بَغْداد

الطَّريدة .... والسّهام

(سقوط بغداد)

بَغْداد

الطَّريدة .... والسّهام

(سقوط بغداد)

تأليف

العلامة الدكتور عبد اللطيف الهميم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله ، وعلى اله وصحبه ومن والاه، وبعد:

هذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً الهدف منه سرد الوقائع أو حتى تحليلها، وليس سرداً لقصة تاريخية أثّرت في مُجمل حركة التاريخ فيما بعدها؛ لأنّ بغداد يومها كانت عاصمة الدنيا، إليها ترنوا عيون العالمين شرقاً وغرباً لأنّها تُمثّل ثُلثي تاريخ الأمة وحضارتها .... لكنّ هذا الكتاب هو كل هذا وغيره، إنّه يؤشر للحظة تاريخية فارقة وحاسمة في مصير الامة وهو العام ٦٥٦ هـ ... إذْ أنّ هذا قد أشّر مرحلة الانكفاء الحضاري للامة فما بعده لايشبه ما قبله، ذلك لأنّ مابعده بمائه عام كان سقوط غرناطة على يد (إيزابيلا وفريناند) أيام كان واليها أبو عبد الله الصغير، ولأمر ما كان أبو عبد الله الصغير صغيرا تماما، كما هو الشأن لآخر خلفاء بني العباس .

ولقد كتبت هذا الكتاب بعد سقوط بغداد مباشرة سنة ٢٠٠٣ وكان الأجدر أن أُؤرخ لهذا السقوط المدوي دون الرجوع إلى الماضي؛ ذلك لأن المغول الجدد (الأمريكان) لم يكونوا أقل جريمة ووحشية من المغول القدامى، فكلاهما يمثلان غزوا إمبرياليا تمارسه كل

الامبراطوريات ... وهذا كله صحيح لكني لم اشأ الكتابة في السقوط الحديث لبغداد؛ لأني آثرت أن أسوق ماجرى في كتاب يضم مذكراتي وهذا ماحدث؛ ولأنّ الكتابة في موضوع هو من أخطر المواضيع التي مرّت على الامة في تاريخها الحديث بعد نكبة فلسطين، وقبل اكتمال التجربة الشعورية التي تحمل في أطوائها مجموعة كبيرة من المخاطرة العلمية والمعرفية وتعني البوح بأسرار لايمكن البوح بها في هذه اللحظة التاريخية خصوصا وأن خياراتي بعد الاحتلال لم تكن خيارات مرنة؛ فقد كنت مطاردا من سلطات الاحتلال والدولة الغازية ، وورد اسمي على أكثر من لائحة من لوائح المطلوبين، ومارست الدولة أبشع صور الابتزاز السياسي والمضايقة لي ولعائلتي، وصادرت أموالي المنقولة وغير المنقولة، وجعلتني أعيش في دوامة من القلق خصوصا في الثلاث سنوات الأولى، وهذا ما دفعني إلى الهروب إلى الماضي تاركا للقاريء المقارنة بين ما جرى في ٦٥٦ هجرية وبين ٢٠٠٣ ميلادية ليجدها متطابقة في كثير من وقائعها واحداثها .....

ختاما أشكر لقاريء هذا الكتاب حسن القراءة والمقارنة، وبالله التوفيق ومنه السداد

المؤلف

كلمة أولى

عندما يرتسم أمام أنظارنا الرقم 656هـ، ترتسم أمامنا صورة بغداد مدينة السلام مُقطّعة الأوصال مُخربة الشوارع، مهدمة البيوت، محروقة المكتبات، منهوبة المتاجر والأسواق، مآذن مساجدها تكسرت كأغصان أشجارها اليابسة المحترقة، جثث سكانها تتناثر في الطرقات تتناوشها أنياب كلاب جائعة، ورائحة الموت تفوح من جهاتها الأربع، فكأنها لم تغن بالأمس ولا دب دبيب حياة بين جوانبها.

إنها صورة لم يبتكرها الخيال ولم يخط خطأ في إطارها بل هي صورة واقعية لمدينة سادت ثم بادت، مدينة لم تضارعها مثيلة لها على امتداد المعمورة في ذلك الحين من الزمن. فهل كانت حقيقتها الزاهرة سبب حتفها؟

وهل حضارتها كانت سبباً في إبادتها؟

ثم هذا الفاعل المعلوم الهوية والمنبت والموطن، ما الذي كان يسوقه إلى فعلته المنكرة منذ ذلك التاريخ الموغل إلى يوم الناس هذا؟

لو كان يحلم ذلك الفاعل الجاهل بالسلطة والسلطان لما أخذته القسوة إلى أبعد آمادها.

لو كان له مطلب يطلب لقبل بما جنح إليه سلطان بغداد أيامها، وقد بسط قناطير الذهب والفضة.

أسئلة ترتسم في الذهن أيضاً لا نملك عنها جواباً الآن، وربما بعد أن نبسط الحديث عن ذلك الغازي الذي قطع بجيشه الجرار الفيافي والصحارى يمكن أن نستشف جواباً تكون فيه للنفس شيء من الرضا والقبول، فصور التاريخ تتناسل حتى قيل في أمرها أن التاريخ يعيد نفسه، وإنما حوادث التاريخ تحدث فنجد لها أشباهاً ونظائر، فكأن ما يحدث أمام أنظارنا شبيه بما حدث في زمن سلف ومضى، فلننظر إلى بغداد منذ ذلك التاريخ وإلى ما قبله قليلاً لنر كيف خمدت جذوتها ثم خمدت واتقدت في تعاقب ينبئ من روحها المتجددة، ليس كنعقاء خرافية، لكنها عنقاء حية متجددة ودليل تجددها دوامها، ودليل تجددها ثبابتها، وسيبقى هكذا حالها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

كلمة ثانية

تعد حملات المغول على مراكز الحضارة الإسلامية، ونشوء دولتهم الكبرى التي كانت تضم الصين وإيران وما بين النهرين وآسيا الصغرى، وشرق أوروبا أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث والرابع عشر الميلاديين)، ومع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف، إلا أننا لم نر قوماً آخرين غير المغول قد استطاعوا أن يغزوا في مدة قصيرة مثل هذه الأقطار التي كانت قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والمدنية.

ولا شك أن استيلاء المغول على هذه الرقعة الفسيحة من العالم، وما تبع ذلك من ضروب القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول، وذهاب عروش، وتقتيل آلاف عديدة من السكان وتخريب أمهات البلاد مما يجلب أنظار المؤرخين ويشجعهم على تأريخ تلك الفترة.

أجل.. كانت هذه الأحداث وأشباهها خير حافز للمؤرخين والكتاب على تأريخ تلك الواقعة التي لم يسبق لها مثيل في فظاعتها وقسوتها، وخطورة نتائجها، ولا غرور فليس هناك فترة من فترات التاريخ تقدم مثل هذه السلسلة الهائلة المتتابعة الحلقات، المتلاحقة العرى من الكوارث المتنوعة المروعة، أو مثل هذه المجموعة من الفتوح التي تشبه الأساطير، والتي لا تدانيها فتوح الاسكندر، وفتوح الرومان، أو هذا التجمع الغريب لضروب الإفراط من كل نوع ما بين أعمال وحشية، وفظائع تثير القلب والعقل، تصحبها أعمال ناصعة البطولة وأفعال ملأى بالشجاعة والرجولة والنبل، وانتصارات تشبه المعجزات. يذكر المؤرخ رشيد الدين في مقدمة كتابه جامع التواريخ أنه بواسطة التاريخ يعلم ابتداء كل ملة، وأول دولة، وأن ظهور دولة جنكيز خان كانت أعظم حادثة في هذا الزمان. لذا كانت جديرة بالتاريخ، إذ أنه في زمان يعيد فتح بلاداً كثيرة، وقهر الجبابرة وكسرهم بأيدي بطشه، وداسهم بأقدام قدرته، وأورثها أولاده وأحفاده.

وكان من عادة العلماء ورسم الحكماء أن يؤرخوا معظمات الوقائع من خيرها وشرها في كل زمان حتى يعتبر بها أولادهم وعقبهم ونسلهم، ويعلموا أحوال الأدوار في القرون الماضية، ويسمعوا تذكير السلاطين المقدمة والأكاسرة الأول، ويبقى ذكرهم مخلداً على صفحات الأيام والليالي في بطون الكتب.

منظر – 1 –
موطن المغول

تعد منغوليا التي تمتد أرضاً في أواسط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غرباً وجبال خنجان شرقاً هي موطن المغول.

ويمكن تقسيم منغوليا إلى قسمين:

قسم شمالي غربي مرتفع به جبال سيلان وتنولا وخنجاي وأكتاج، وبين هذه الجبال هضاب ووديان تغطيها الحصب، وقسم جنوبي شرقي منخفض يشمل صحراء جنوبي أو شاموا التي ليست إلا سهلاً متسعاً مسطحاً متموجاً تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة التي جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل ومن تحتها تظهر في بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر في البحار. وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبي وينسي ولينا، بينما المنطقة الجنوبية لا توجد بها أنهار، فإن وجدت كان ذلك على الحافات مثل أنهار آنون وكرولن وخلاجل. وتسير من جنجان بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حين تصل إلى جوبي. وفوق ذلك يوجد في منغوليا قليل من البحيرات المالحة والعذبة كما تتفجر بعض الينابيع. ولكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه إذا حفر وجده قريباً من سطح الأرض.

مناخ منغوليا

أما مناخ منغوليا فقاس وقسوته في سرعة تغيره، وفي بلوغه النهايات القصوى في الحرارة والبرودة وفي جفافه الشديد، وفي قوة الرياح التي لا حد لها. أما البرودة فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء في المنخفضات حتى شهر مايو، والجليد يمكن أن يرى على أواني الشرب في شهر أغسطس، كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهي، وتبلغ درجة الحرارة في فصل الشتاء في بعض الجهات 58 تحت الصفر، وتبلغ درجة الحرارة في

فصل الصيف القصير المدى أحياناً 60 درجة. ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح التي تهب في معظم أيام السنة شديدة، حتى أنها تحمل الحصى وترسله إلى مسافات بعيدة وبذلك تكون مواجهتها مستحيلة وقسوة مناخ منغوليا هي السبب في فقر الحياة النباتية بها، أما في المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة فتنمو الغابات السيبيرية على سفوح الجبال، وتقل كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعي الألبية. وفي أواسط جوبي لا تنبت إلا حشائش حافة قليلة وبعض النباتات الملحية، وأكثر هذه النباتات ذيوعاً السكسول والدري والأول عبارة عن أشجار صغيرة لا ورق لها تستعمل لإعطاء قليل من الظل والوقود وكغذاء للجمال، والثاني يقدم للماشية أو يتخذ الفقراء من حبوبه غذاء.

ولا توجد في بلاد المغول إلا الحيوانات التي تســـكن الصـــحارى عادة مثل الجمل المتوحش والحمار الوحشي والغزال وأنواع من الفئران ذات الفراء الثمين والذئاب والنمور.

منظر – 2 –
معيشة المغول

كان المغول القدماء كغيرهم من البدو رعاة، لكل قبيلة مع قبائلهم العديدة منطقة معينة تنقل أفرادها بين ربوعها بحيواناتهم باحثين عن منابت العشب تبعاً لفصول السنة المختلفة، فيذهبون في الربيع نحو الجبال ويرجعون قرب الشتاء إلى السهول. كانت كل قبيلة من قبائلهم لها رئيس يحمل لقب (نوين) أو (تيشي) تطيعه وتأتمر بأمره، بل أن كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم إلى جماعات لكل جماعة رئيساً، وكل جماعة يحتويها مكان واحد، وكان أفراد القبيلة يدفعون إلى النوين عدداً معيناً من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم. وفضلاً عن ذلك فقد كان المغول القدماء كالعرب في الجاهلية والهنود الحمر الآن يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية. ولذلك فقد كانت حياتهم بسيطة فطرية لا يتسرب إليها التعقيد. فمأكل المغولي وملبسه ومسكنه وقوانين مجتمعه البسيطة ودينه البدائي كلها مسائل تدور حول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التي يرهبها ويخشاها.

كان مأكل المغول بسيطاً مع بداوتهم وفقر بلادهم، فهم في الشتاء يأكلون اللحوم – لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها – ويدخل في ذلك الكلاب والذئاب والثعالب والفئران والخيل.

كما يأكلون لحوم الحيوانات الميتة، ويأكلون اللحوم البشرية، ويذكر المؤرخون بهذا الصدد أن مسلماً اتهم بالخيانة ضد أباخاقان فأخذ وقطع نصفين وصدرت الأوامر بأن يوضع جزء من لحمه ضمن كل وجبة من وجبات الخاقان، كما ذكر أن أبا خاقان أكل من لحمه وجعل جميع أمراءه يأكلون.

كما يذكر أن السيدات المغوليات طلبن أن يسلم لهن الخائن ولما سلم إليهن عذبنه حياً وقطعن جسمه وقدمنه إلى جميع أفراد الجيش ليأكلوه. وكان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم، وأن المغول في إحدى غزواتهم في الصيف عندما نفد طعامهم ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في الجيش ليكون طعماً للباقين منهم. وفي الصيف لا يأكل المغول اللحوم إلا قليلاً، فإذا أكلوها، كان ذلك بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة، فكانوا إذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا اللحم إلى شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها عفونة. هذا بينما كان جل اعتمادهم

في هذا الفصل على الألبان وما يستخرج منها والألبان التي كانت تتوافر عندهم هي البان البقر والغنم وكانوا يستخرجون منها الزبد والجبن وألبان الأفراس ويستخرجون منها ما يعرف باسم كومس أو خميرة اللبن.

الملبس

كان المغول يتخذون ملابســـهم الحقيرة من أصـــواف الغنم ووبر الجمال، كما كانت ملابس الرجال تكاد تشابه ملابس النساء، كما كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات أحياناً.

وبعد أن صـــارت للمغول في القرن الثالث عشـــر الميلادي إمبراطورية واســـعة الأرجاء بدأ المغول يلبسون الحرير والفراء الثمين الذي صاروا يستوردونه من الصين وفارس وروسيا وغيرها من الجهات التي كانت تدين لهم بالطاعة. إلا أن ذلك لا ينفي الحقيقة الواقعة التي هي بســاطة ملابس المغول وحقارة صنعها وقذارتها، ويرجع ذلك إلى أن المغول كانوا يغيرون ملابسهم في الصيف مرة كل شـهر. وفي الشـتاء لا يغيرونها أبداً، وقد ذكر المؤرخون القدامى أنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ولا يميزون بين طاهر ونجس.

المسكن

لم تكن بيوت المغول أحسن حالاً من بيوت غيرهم من البدو، إذ كانت تقام من الصوف وكانت طريقة إنشـــائها مختلفة كل الاختلاف، وبينما كانت بيوت غيرهم من البدو مدببة من أعلاها كانت أعالي بيوت المغول على شكل نصف كرة لا تجرها الريح ولا تنقلب بسهولة ولو كانت العواصف شديدة، وكانت بسبب ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفاً، كما كانت تشبه إناء منقلباً قائماً على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات. وكانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه العطب، وأنهم كانوا يدهنونها بشـــحم الحيوانات أو بلبن البقرة، حتى لا تتأثر بالماء إذا عبروا بها الأنهار أو نزل عليها المطر، وكانت بعض البيوت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يعلو الواحدة اثنان وعشـــرون ثوراً وبعضـــها الآخر صـــغير يكفي لنقلها ثور واحد أو تنقل على ظهور الجمال.

وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنباً لريح الشـــمال والغرب القاســـية. كما كانت النار تظل على الدوام مشتعلة في وسط البيت المغولي. أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بســـيطاً، فالجدران تســـتخدم لتعليق الأســـلحة والأواني الجلدية التي كانوا يضـــعون فيها الألبان ومستخرجاتها، وكانوا يضعون في الجزء الداخلي المواجه للباب فراش رب الأسرة ويخصصون الجانب الغربي من البيت للرجال والجانب الشرقي للنساء.

منظر – 3 –

القوانين

كانت حياة المغول بسيطة فطرية، وكان لها من القوانين ما يناسبها في البساطة. ولو أننا تناولنا القوانين التي كانت تنظم حياتهم الزوجية بالبحث، لظهر لنا بكل وضوح أنها كانت بدائية، لا أثر فيها لأعمال الفكر الناضج، فلا هي بالتي كانت تقدر الزواج حق قدره، ولا هي بالتي كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة، إذ كانت تعد الزواج عملية تجارية. ويمكن أن يقال بهذا الصدد أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة إلا إذا كان قد اشتراها، ويحدث دائماً أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن. كما كانت تسلب الزوجة حقوقها التي تقررها لها الشرائع الأخرى، والمغولي لا يعد المرأة زوجته الحقيقية حتى يصبح لها طفل، وإذا كانت عاقراً أمكنه طردها، ولا يقدم الزوج مهر الزوجة حتى يصبح لها طفل.

والرجل المغولي يمكنه أن يحوز زوجات على قدر ما يستطيع وللبعض منهم ما يبلغ المائة، ويسمح لهم بالزواج من أية امرأة من الأقارب اللهم إلا أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم من نفس الأم، أما زواجهم من أخواتهم اللائي لسن من أمهاتهم فقانوني فالابن في بعض الأحيان يأخذ زوجات أبيه، ما عدا أمه، وذلك لأن منزل الأب والأم يؤول إلى أصغر الأبناء، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه، وإذا أراد أن يعاملهن معاملة زوجاته. ومما يجر عليه اللوم أن لا يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت أزواجهن. ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يستولدون من السراري في الميراث والحقوق الأخرى. في ذلك كله ما يظهر أن قوانين المغول لم تخدم شرعية الزواج ولم تنظم أحكامه تنظيماً صحيحاً، بل على العكس كانت تعتبر الزوجة من سقط المتاع تورث كما يورث، وتشجع على العشق والزنا باعترافها بحقوق الأبناء من السراري.

ولم تكن القوانين التي وضعها المغول لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم بأعلى درج أو أكثر قبولاً من تلك التي كانت تنظم حياتهم الزوجية، بل إنها كانت أشد إظهاراً لقسوتهم وأقوى تجسيداً لحياتهم الفطرية. فقد كانت تقضي بالإعدام على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة أو التجسس أو السحر، كما كانت تقضي بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضرباً مبرحاً.

والمغول من أجل السرقة الصغيرة كانوا يضربون ضربة واحدة أو سبع ضربات أو 17 أو 27 أو 37 ضربة من ضربات العصا وقد تصل الضربات أحياناً إلى 107 تبعاً لنوع الجريمة بشرط أن يكون العدد فردياً، وأن هذا الضرب كان يودي بحياة المضروب في بعض الأحيان، أما إذا كانت الجريمة سرقة حصان أو شيء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف اللهم إلا إذا كان قادراً على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال قيمة الشيء المسروق.

منظر – 4–

الدين

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين، وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشـامانية، وقد ظلت فيهم حتى حلت محلها الديانة اللامية أو البوذية بشكلها الذي اكتسبته من التبت وذلك في القرن السادس عشر الميلادي. وقد كان المغول – طبقاً لعقائد الشامانية – يعبدون كل شيء يسمو على مداركهم ويدق على أفهامهم. وكل ما يرهبهم ويدخل الخوف إلى أفئدتهم. لهم آلهة في النهصر والجبل والشجرة الكبيرة، ولهم آلهة في الشمس والقمر، ولهم آلهة في أيامنهم وشمائلهم وأمامهم وخلفهم وفوقهم وتحت أرجلهم، إذا تقربوا إلى الجهة الجنوبية دل ذلك على احترامهم للنار، وإذا تقربوا إلى الشرق كان في ذلك احترامهم للهواء.

أما تقربهم إلى الغرب فكان فيه احترامهم للماء، وفي تقربهم إلى الشمال كان احترامهم للأموات، وكان المغول لا يتقربون إلى هذه الآلهة إلا لخوفهم منها ولرغبتهم في إبعاد غضبها وجلب رضاها يرجون منها الصحة في أجسامهم وعقولهم، كما يرجون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم.

ولم تكن عند المغول معابد ولم تكن عندهم أديرة، وكل ما كان يعثر عليه عندهم ما كانوا يسمونه أوبو وهي أكوام من الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها تقام بجوار الأنهار أو على التلال أو تحت الأشجار الكبيرة وتقدم عليها القرابين المختلفة للآلهة المفروض أنه القسم الحي المقابل لها أو أنه روحها. كما أن المغول كانوا يصنعون من الصوف أشكالاً آدمية يضعونها في بيوتهم أو أيامها ويعتقدون أنهم يبعدون الشر عنها ويزيدون الحيوانات فيها ويدرون ألبانها، ومما يذكرونه في هذا السبيل أن كل مغولي كانت عنده في بيته دميات من القماش يمثله وزوجته وأولاده فإذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدميات ولوث فمها بالدهن الذي يستخرجه من اللحم، ثم أخذ شيئاً من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الإله وزوجته وأولاده شاركوه في غذائه.

أما رجال الدين عند المغول فكانوا كالكهنة عند المصريين القدماء من طبقة متنورة تعلم الفلك وتحدد وقوع الكسوف والخوف في أوقاتها، وتعين الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له، وإن كان نفوذ أفرادها لا يصل إلى نفوذ الكهنة عند القدماء المصريين. وكان المغول ينظرون إليهم كما كان

الإغريق ينظرون إلى عرافة معبد دلفي وكما كان العرب ينظرون إلى كهانهم الذين كان أشـهرهم في اليمن. فكانوا يأخذون رأيهم قبل أن يقدموا على الأعمال المهمة وكانوا لا يجمعون جيشـاً ولا يدخلون حرباً إلا بعد موافقتهم وقد كان هؤلاء يعتمدون فيما يدلون به من آراء على شـكل الخطوط والشـقوق التي تظهر على عظام أكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون أصـــلح الحيوانات لهذا الغرض الغنم والآرام والوعل وبخاصة إذا كانت قرابين.

منظر – 5 –
صفات المغول

نشأ المغول في بلاد فقيرة قاسية المناخ فأمدهم الله بصفات دينية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة، وقد ذكر الرحالة بعض مميزات المغول البدنية مثل الرأس الكبيرة والوجه العرض النحيل، وعظام الخد البارز والعيون الصغيرة ذات الجفون المسترخية والأنف المسطح والشفاه العريضة والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الكبير والساقين القصيرتين المعوجتين والقامة القصيرة والبشرة الصفراء السميكة، وكان فقر البلاد وقلة الغذاء فيها سبباً في قصر القامة ونحالة الوجه وبروز عظم الخد من ومن بعيد، كما أن الجفون المتدلية فهي نعمة من نعم الله على المغول لوقايتهم من الرياح الشديدة التي يتعرضون لها في بلادهم في معظم أيام السنة، وكذلك الحال بالنسبة لبشرتهم السميكة أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم الوقت على صهوات الخيل بركاب قصير الحوامل.

ولم تكن صفات المغول البدنية هي وحدها التي تناسب بيئتهم التي درجوا عليها، بل إن صفاتهم الأخلاقية من مستلزمات هذه البيئة، فغنهم وقد كانوا رعاة كان لابد لهم من أن يصطدموا بغيرهم حين يعلمون على توفير المراعي لحيواناتهم في فصول السنة المختلفة، ولذلك كانت تقوم بينهم المعارك وتشتد الأهوال، وكانت حياتهم حياة حربية قوية، وكانت أخلاقهم مزيجاً من صفات المحاربين. أضف إلى ذلك أن الطبيعة كانت في بلادهم قاسية شديدة الوطأة، ولذلك كانت حياتهم حرباً مستمر مع الطبيعة. وقد أمدتهم بيئتهم بما عودتهم من الصبر والجلد بأعظم سلاح يشهرونه في وجهها وبذلك قوت فيهم صفات المحاربين.

من الصفات التي تلازم المحاربين دائماً الجرأة في الحق وإبداء الرأي دون مواربة ولا مداراة، وقد كان المغولي كغيره من أهل البادية صريحاً لا يهاب جريئاً لا يخشى حرا في إبداء آراءه لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما فرضه من العادات، فقد ذكروا أن المغول القدماء كانوا طبقاً للسياسة الكبرى أو الشريعة التي سنها لهم جنكيز خان يجتمعون كل سنة في العيد الكبير أمامهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوه، ويظهر أنهم كانوا يوبخونهم بل ويعزلونهم إذا اقتضى

الحال. ويظهر أن نزعة الصـــراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتاً ما بعد أن كونوا إمبراطوريتهم الواسـعة، فقد ذكروا أن وزيراً من وزراء جنكيز خان تجاسـر على أن يقول لسـيده أن المملكة يمكن فتحها على ظهر الحصـان، مشـيراً بذلك إلى أن الممالك تحتاج لاسـتقرار الأمر فيها إلى إداريين بعد أن يكون الحربيون قد وسـعوا أركانها. وعلى الرغم من هذه الصـراحة والحرية فقد كان للطاعة التي تعد من أهم صفات المحاربين أكبر نصيب بينهم وكانوا مطيعين لرؤسائهم لا يعصون لهم أمراً، حتى أن أكبر القادة إذا غضب عليه الإمبراطور يقبل التقريع من أبسط رسول يرسله أمام جنوده.

وقد ذكر القلقشـندي صـاحب صـبح الأعشـى أن الذي كان عليه جنكيز خان في التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجري على منهاج (ياسـة) (الناموس والقضـاء) التي قرها وهي قوانين خمنها من عقله وقررها في ذهنه وتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشـــريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك سـماها الياسـة الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صـغار أهل بيته. منها أن من زنى قتل، ومن أعان أحد خصـمين على الآخر فقد قتل، ومن أعطى بضـاعة فخسـر ثم أعطى ثانية فخسـر ثم أعطى ثالثاً فخسـر قتل ومن وقع حمله أو قوسه فمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل، ومن وجد أسيراً أو هارباً أو عبداً ولم يرده قتل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذن قتل، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم.

كما ذكر القلقشـــندي أنهم من أعظم الأمم طاعة لســـلاطينهم لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم. حتى إذا كان عندهم أمير في غاية القوة والعظمة وبينه وبين السـلطان كما بين المشـرق و المغرب، متى أذنب ذنباً يوجب عقوبته وبعث إليه السـلطان من أخس أصـحابه من يأخذه بما يجب عليه. ألقى نفسـه بين يدي الرسـول ذليلاً ليُأخذ بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل.كما أن الجندي إذا عصـى كان لا يقتل وحده بل معه أفراد أسـرته، أضـف إلى ذلك أن الأمراء والقواد كانوا يضـربونه بالهراوة عندما يقعون في الخطأ ولا يعتبرون ذلك إهانة لهم ولا يظهرون اشمئزازاً.

وللفروســية عند المغول مركز ممتاز، وقد كانوا على اختلاف أعمارهم يقضـــون حياتهم على ظهر الحصـــان ولا يكادون ينقلون قدماً على الأرض، ولذلك كان من لا يرافقه الحصـــان إما فقيراً أو عديم الأصـــدقاء ذلك لأن المغولي لا يتأخر عن تقديم حصـــان لآخر يطلبه، كما نقدم عود ثقاب لمن

يطلبه لإشعال سيجارة. ولم يكن الرجال الذين يخصون بهذا الأمر من دون النساء بل إن النساء كن يركبن الخيل كالرجال، وكن يستعملن الأقواس والسهام ويقدرون البقاء على ظهر الحصان زمناً طويلاً، ويذهبن مع الرجال إلى القتال.

أما صبر المغول فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفاً بل يحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعاني شيئاً، والرحل فيهم على الرغم من قوة شهيته إلى حد يجعله يأكل خمسة كيلو غرامات من اللحم في الوليمة وربع شاة في اليوم، نجده في الحرب يصبر على الجوع عشرة أيام مكتفياً بما يمتصه من دماء الخيول، وكان يفتح شرياناً من شراينها يشرب دمها المتدفق، كما أنه كان يكتفي بما يتناوله من الكومس أو اللبن الحامض الذي يحمله في قربته، وكان نصف رطل من اللبن المجفف الممزوج بقليل من الماء يكفيه اليوم كله. وكانت خيول المغول تشاركهم في صبرهم فكانت لا تحتاج إلى الشعير أو الفول بل تحفر في الأرض بأرجلها وتأكل ما يظهر لها من جذور النباتات، ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع، بل إنهم كانوا يتحملون البرد والحر اللافح بعزيمة قوية. وشجاعة المغول مضرب الأمثال، وقد شهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم، فقد ذكروا أن جواسيس محمد خوار زمشاه عند عودتهم من زيارة المغول قالوا عنهم: إنهم لا يعطون أنفسهم راحة، وإن الفرار والتقهقر ليس معروفاً لهم وإنهم لا يبارون في الشجاعة والطاعة والصبر. وقد ذكر ابن الأثير عنهم مثل ذلك فقال: سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولاً أنه قال: من حدثكم أن التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا فصدقوا، فإن القوم لا يفرون أبداً، ولقد أخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى مات ولم يسلم نفسه للأسر.

منظر – 6 –
جيوش المغول

حاز المغول كل صـــفات المحاربين الأقوياء، وقد كان من أثر ذلك أن فاقوا غيرهم في تنظيم الجيوش وترتيبها وإمدادها بكل ما يلزمها، كما اتبعوا في حروبهم طرائق كانت تضـمن لهم النصـر، وإن ما لدينا من المعلومات يبين لنا أنهم قسموا الجيوش تقسيماً لا يختلف كثيراً عما يتبع في الجيوش الحديثة، فقد كانت عندهم فرق مكونة من مائة ألف جندي يسـمونها التوك، وأخرى مكونة من عشـرة آلاف يسمونها التومان، وثالثة من ألف يسمونها منجان، ورابعة مكونة من مائة يسمونها دن، وخامسة مكونة من عشـرة يسـمونها أربان، كما أن جيوشـهم كانت غنية بالأسلحة، فالمحاربون العاديون كانوا يلبســون ملابس من الفراء على أجســادهم كما كانوا يضــعون على رؤوســهم خوذات من الحديد ويحملون من الأسـلحة الأقواس والسـهام والمبارد لشـحذ السـهام والحراب التي تنتهي بخطاف والتي تستعمل لجذب الأعداء من سروجهم والبلط والحبال. بينما الرؤساء من الجند والضباط والقواد فكانوا يلبســون اللامات الحربية، ويحملون من الأســلحة مثل ما يحمل الســابقون ولما كان المغول رماة نـابهين، فقد كـانوا يعنون عنـاية فائقة بـالأقواس التي كـانت متينـة إلى أبعد حدود المتـانـة، والتي كـان الواحد منها يتطلب رجلين لثنيه، وكانت ســهامهم تبلغ في طولها قدمين وراحة يد وإصــبعين، كما كانت ذات أسـنان مدببة جداً، وبعضـها كان ذو رؤوس فضـية ملأى بالثقوب حتى إذا رميت أخرجت صـوتاً كالصـفير وكانت اللامة الحربية عندهم تصـنع من الجلد، ومنها ما يصـنع من السلاسل، ومنها ما يصـنع من ألواح الحديد. أضـف إلى ذلك أن مهارة المغول كانت تظهر بكل وضـوح في تسـييرهم الجيوش للحرب، فقد كانوا يرسـلون ألفين من الرجال في القدمة للاسـتكشـاف، ويضـعون مثلهم في المؤخرة وعلى كل جانب من جانبي الجيش، كما كانوا يلحقون بالجيش الزاحف عربات المؤونة تجرها الثيران وكذلك الأبقار والأفراس، وكان كل فرد من أفراد الجيش يأخذ معه مؤونة صـغيرة من الجبن واللحم وغيرها. وعندما تكون الجيوش كبيرة العدد وبخاصــة في الشــتاء كانوا يأخذون معهم خيام المعسـكر تحملها الجمال لتكون لهم مأوى. وكان طول هذه الخيام من أربعين إلى خمسـين قدماً، وكان هيكلها يصـنع من عصـى مدببة طول الواحدة منها سـبع أقدام أو ثمان، تتصـل بعضـها ببعض

بواسطة قطع من الجلد، وتتجمع في القمة مكونة مسطحاً مخروطياً. كما كانوا يأخذون معهم خياماً أصغر ليجمعوا فيها من يقع في أيديهم من الأسرى.

وكان الجيش المغولي إذا خرج للقتال لا يعوقه شيْ عن مقصده، فإذا وصل إلى نهر كبير حزم أفراده حوائجهم وشدوها إلى خيولهم وعلوا فوقها أو أتوا بقرب أو أكياس من الجلد وملؤوها بالملابس وربطوها جيداً ثم وصلوها بذيل الحصان وجلسوا فوقها بينما يجر رجل منهم هذا الحصان، وقد يستعملون مجذافين في دفعها بدل الحصان. وعندما كانت جيوش المغول تلاقي الأعداء كانت لا تدخل في حرب نظامية، بل كان المحاربون يدورون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم، وكانوا في بعض الأحيان يتظاهرون بالفرار ثم يدورون على سروجهم ويرمون أعدائهم بكل شدة، وهكذا ينزلون بهم الخسائر الكبيرة. وكانت خيولهم متمرنة أحسن تمرين حتى أنها كانت تجري هنا وهناك كالكلاب، وعندما كان المغول يرون أنهم قتلوا الكثير من الخيول والرجال كانوا يديرون على أعقابهم ويبدءون بمناجزة القوم، وهم في أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتاً مزعجة تصم الآذان وتدخل الرعب في القلوب.إن المغول قد يفرون ولكنهم دائماً يحفظون جماعتهم بعضها مع بعض ومن أكثر الخطر متابعتهم لأنهم حين فرارهم يرمون إلى الخلف من فوق رؤوسهم ويؤثرون تأثيراً كبيراً على متتبعيهم، وتكون صفوفهم دائماً متقاربة حتى أنك قد تظنهم أقل من نصف حقيقة عددهم، وفي هذا ما يثبت أن المغول اتبعوا طرائق حربية تدل على نضجهم الحربي ورسوخ قدمهم في فنون الحرب.

منظر – 7 –
المغول في نظر المؤرخين

يكاد المؤرخين يجمعون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشيي الطباع، وأنهم كانوا كالتيار المدمر لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وأذاهم، لا يختلف في ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخو الغرب ولا مؤرخو العصور الوسطى إخوانهم في العصور الحديثة أما ما ذكره مؤرخو الشرق في العصور الوسطى عن المغول فيمكن أن نتخذ له مثلاً ما ذكره ابن الأثير، فقد قال يصف مجيء التتر إلى بلاد الإسلام: الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام عن مثلها عمقت الخلائق وخصت المسلمين. فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله يختصر ببني إسرائيل من القتل والتخريب ببيت المقدس وما البيت بالمقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من إسرائيل. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب إستدبرته الريح، ثم ذكر فتوحاتهم فيما وراء النهر وخراسان وروسيا وقال: هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة.

وقد ذكر ياقوت يصف الأقاليم التي اكتسبها جيوش المغول في إحدى رسائله فقال: وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان يتجاوب في نواحيها البوم ويتناوح في أراجيها (أرجائها) الريح السموم، يستوحش فيها الأنيس ويرثى لمصابها إبليس:

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمـــى وأقيـــــال ملك في بسالتهم أسد

فمن حاتم في وجده وابـــن مامة ومن أحنف إن عد حلم ومن سعد

تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا لنا عبرة تدمـــــي الحشا ولمن بعد

وذكر المؤرخ الجويني أن البلاد الإســـلامية التي اكتســـبها المغول لم يبق بها واحد من ألف سكانها الأصليين، كما قال إنه لو زاد السكان باضطراد دون أن يحول ذلك حائل من الحوائل وذلك في خراسان والعراق حتى يوم القيامة لما بلغ سكانها عُشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولي.

ولم تختلف نظرة مؤرخي أوربا في العصور الوسطى عن نظرة مؤرخي الشرق السابقين، فهذا روجر بيكون اعتبرهم جنود المسيح الدجال، وذلك القس جون الكربيني يعتبرهم بقايا القبائل العشر التي حاول الإســـكندر الأكبر عزلها في الجبال التي بقرب بحر قزوين، أي أن كلاً منهما نظر إليهم نظرته إلى عوامل الفســـاد في الأرض. أما المؤرخون المحدثون فلا يختلفون عن الســـابقين في هذه الناحية، وقد جاء في مجموعة كمبردج التاريخية أن المغول لم يكونوا ممن يهمهم إنماء بذور الحضـــارة بالتعاون مع الآخرين وأن جل همهم كان التوســـع والغزو، كما أن العالم عرفهم محاربين أشـــداء خربوا البلاد وقتلوا العباد وإنهم وإن كانت لهم آثار أخرى غير أثارهم الحربية فهي قليلة لا يعتد بها، وهم إن أمنوا الطرق وفتحوها ما بين غربي آسيا وشرقها لم يفيدوا التجارة بشيء لأن البلاد التي اكتسحوها وخربوها لم يبق بها شيء يتبادله الناس، كما أنهم وإن أعطوا الحرية الدينية لرعايتهم ولم يميزوا بين علماء المســلمين وبطارقة المســيحيين ورؤســاء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم مبدأ حرية التدين، بل لأنهم لم يعتقدوا بأي دين من الأديان،ـ ولم يجدوا حرباً في أن يعتنق أي امرئ الدين الذي يميل إليه.

أضـف إلى ذلك أن دوسـون المعجب بهم لم يجد بداً من الإقرار بالحقيقة فذكر أنهم أي المغول: فاقوا في قســـوتهم أشـــد الناس فكانوا يقتلون في الأقاليم التي يفتحونها الرجال والنســـاء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويحولون الأرض العامرة إلى صحارى، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره أو رغبة في الانتقام لأنهم لم يعرفوا أســـماء الناس الذين قضـــوا عليهم، وقد كان ممكناً أن نفرض أن التاريخ جســـم معالمهم لو لم يكن المؤرخون في جميع الأقطار قد اتفقوا على هذه المســـألة، وقد كان الناس بعد الفتح يرون المغول يعاملون البقايا الضـــعيفة في الأمم المفتوحة كعبيد لهم وأنهم أثقلوا على

الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف، وأن حكومتهم كانت تحتقر كل شريف بينما يلقى أحط الناس ممن دخلوا في خدمة هؤلاء السادة الغلاظ الغنى والإكرام والقدرة على الاستبداد بإخوانهم ثمناً لخيانتهم.

لقد جمع المغول كل صفات المحاربين الأقوياء وزودوا جيوشهم بالسلاح واتبعوا في حروبهم طرائق لا جدال في أنها من أحسن ما وجد في أيامهم، ولكننا في الوقت نفسه لا نعدم الدليل على أنهم كانوا محاربين من النوع القاسي الذي لا يلين له قلب، كما أنهم كانوا مكرة مخادعين لا ينفذون وعداً ولا يرعون ذمة ولا عهداً، ولذلك فقد كانت أعمالهم أقرب إلى أعمال المخربين منها إلى أعمال المحاربين النظاميين. وتظهر قسوة المغول فيما كانوا يعاملون به أعدائهم فقد كانوا حين ينتصرون لا يتركون على قيد الحياة عظيماً ولا حقيراً ولا كبيراً ولا صغيراً ولا امرأةً ولا طفلاً رضيعاً، كما أنهم كانوا إذا أرادوا أن يحتفظوا بالأسرى ربطوهم من أرجلهم تحت بطون الخيل. ولم تكن تلك القسوة عرضية بل كانت متأصلة في نفوس المغول تظهر في طريقتهم في ذبح الحيوانات، إذ كانوا يفتحون بطنها ويقبضون على قلبها ويجرحونه ليقتلوها، وقد ذكر القلقشندي فقال: ومن معتقدهم في ذبح الحيوانات أن تلف قوائمه ويشق جوفه، ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيهرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه، ومن ذبح ذبحه المسلمين ذبح. كما تظهر قسوتهم في تضحيتهم بالرجال في جنائز العظماء وفي قتلهم عدداً من جمال المتوفى وخيوله ودفنها، وفي معاملتهم للمرضى منهم فقد يتخلون عنهم بل ويعملون على إماتتهم. ويقول وليام الروبريكي في ذلك أنه عندما يمرض أحد من المغول يوضع في مرقده توضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل وإلى عدم دخول أحد عليه، ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته، كما يذكر كربيني أنه عندما يمرض شخص توضع حربة خارج خيمته كما يلفون حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ غريب على دخولها، وعندما يشتد بالمريض مرضه يتركه الجميع، لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل مسكن أي عظيم أو قصر الإمبراطور حتى يبزغ القمر من جديد. فكأنهم ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس. وليت الأمر وقف عند هذا الحد من القسوة بل إن فنست أف بوفيه جين يقول: إن من بين التتار من إذا هرم أبوه أعطاه مادة دهنية – مثل ذيل شاة – ليأكلها فتضغط عليه وتخنقه، وإنهم كانوا عندما يموتون يحرقون أجسادهم ويجمعون بقاياها ليرشوا من مسحوقها على طعامهم عندما يتناولون الطعام كل يوم. إنه بذلك يقدم لنا أكبر دليل على قسوتهم وتحجر قلوبهم.

أما غدر المغول ومكرهم وعدم مراعاتهم للعهود فيتجلى في ســـلوكهم في حروبهم في فارس والصـــين، فكثيراً ما وعدوا أهل المدن بالنجاة إن هم ســـلموا مدنهم ولم يلبثوا أن أنزلوا عليهم من العذاب ألواناً وقتلوهم حين أصـــبحوا في أيديهم. هذا بالنســـبة إلى أعدائهم وقد يجد فيه بعض الناس عذراً لهم، إنما عذرهم الذي لا يمكن الدفاع عنه فيظهر في معاملتهم لحلفائهم، وقد جاء في كتاب هورت: إن دأبهم حين ينتصرون على أعدائهم أن يستولوا على الغنيمة دون تردد أما إذ انهزموا فإنهم يتبعون حلفاءهم وينزلونهم عن خيولهم ويحملون ما معهم من الأسباب.

منظر – 8 –
قبائل التتار

كانوا يقظون المنطقة التي تحد شـمالاً بنهري أرقون وسـلنجا ومملكة القرغيز، وشـرقاً بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغرباً بمسالك الأوريغو، وجنوباً بإقليم التبت، ومملكة التانجون، كانت هذه القبائل من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في أقاليم آسيا الشمالية، وهم يتشعبون إلى شعب كثيرة. ويذكر رشـيد الدين أن هؤلاء التتار كانوا كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعماً وأنهم كانوا أثرياء.

وهؤلاء التتار كانوا في أغلب الأوقات مطيعين وخاضـعين لملوك الخطا، ولكن من آن لآخر، كانوا يثورون على الخطا فيسـرع هؤلاء لمقاومتهم وإجبارهم على الخضـوع مرة أخرى. وقد عرف هؤلاء التتار بشـدة البأس والجبروت، وكانوا يعيشـون في صـراع دائم مع بعضـهم البعض. وكانت الحروب تنشـب بينهم لأتفه الأسـباب، وقد تسـتمر المعارك الناشـبة بينهم عدة سـنوات، وقد بالطعان والنزال. ولم يكن لهم قانون يحكمهم أو شـريعة يسـيرون عليها ولو كانوا يسـود هؤلاء الأقوام الوئام ويؤلف بين قلوبهم الاتحاد لما استطاعن أقوام الخطا ولا غيرهم التغلب عليهم والنيل منهم.

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء التتار اسـتطاعوا أن يخضـعوا أغلب القبائل، وكانوا يتمتعون بشـهرة ذائعة الصـيت وشـوكة كبيرة بحيث أن قبائل الأتراك الأخرى على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم كانوا يتسمون باسمهم فأطلق على الجميع (تاتار) أو (تتر). ولهذا السبب لا نزال للآن في بلاد الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد الفرغيز والكلاو والباشغر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم (تاتار) على أقوام الأتراك.

ولم يهدأ صـراع التتار مع بعضـهم البعض حتى ظهر جنكيز خان، ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويناصـرون القبائل الثائرة عليهم، كان جنكيز خان ينظر إليهم على أنهم ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده، فبعد أن انتهى من القضـاء على القبائل المناوئة له تفزع للتتار وكان مدفوناً بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم، فقام مع جنوده بالإجهاز عليهم واسـتئصـال شـأفتهم. وأصـدر أمراً قاطعاً بألا يترك واحد منهم على قيد الحياة، وتنفيذا لهذا لهذا القرار الرهيب، صـار جنود المغول

يقتلون حتى النساء والأطفال، ويشقون بطون الحبالى لأنه تأكد لدى المغول أن التتار هم سبب الفتنة ورأس الفساد.

ولم يقف جنكيز خان عند هذا الحد، بل إنه لم يترك فرصة لأي شخص لكي يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول إخفاءهم ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة فقد أقبل كثير من المغول الزواج من بنات المغول وزعمائهم.

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول ولكن من الغريب أنه على أثر انتصار جنكيز خان على التتار أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، وفي بدء هجوم المغول على المماليك الإسلامية كانوا يعرفون بالتتار، كما أطلق عليهم أيضاً اسم (المغول) فاشتهروا بهذين الاسمين

جنكيز خان

- عندما ولد (تموجين) وذجدت إحدى يديه قابضة على قطعة متجمدة من الدم.

- الحاضرون مولده تداولوا الحديث في غرابة ذلك.

- أحدهم يقول: إن هذا الطفل سوف يكون ملكاً عظيماً، وسوف تظهر على صفحة جبينه آثار الغزو والسيطرة، وتبدو على محياه أنوار السعادة والتوفيق.

- آخرون استدلوا بهذه الواقعة على استعداد ذلك المولود وجرأته على سفك الدماء.

- يسوكاي بهادر يتوفى وابنه في الثالثة عشر من العمر.

- الأقارب والأتباع ينفضون عن تموجين.

- قبيلته تستغل صغر سنه وترميمه بالضعف وترفض أن تطيعه وتعلن التمرد والعصيان.

- رغم نشاط أمه (أولون أيكة) ورجاحة عقلها وبعد نظرها فقد تخلى عنه أيضاً من بقي من أتباع أبيه وحملوا معهم قطعانهم وانضموا إلى قبائل (التايجون).

- أحدهم يقول بقسوة بالغة: لا حاجة للقوم إلى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين.

- قرار قوم تموجين: أن الرباط القوي الذي كان يمنحنا القوة والمنعة قد ذهب. والصخرة التي كنا نحتمي وراءها قد تحطمت، ولم يبق غير المرأة وأطفالها. فما لنا إياهم.

- عرباتهم المحملة أخذت تتدحرج خارجة من المخيم، فقد خشوا أن يتركوا مصائرهم ومصائر أسرهم بين أيدي امرأة وصبي غير محنك مثل تموجين.

- تموجين الشاب المراهق بقي وحيداً مع أمه وأخوته.

- المجموعة الصغيرة انحدرت إلى البؤس فكانت تعيش على رصيد الحيوان والأسماك.

تموجين يشترك مع أخوته الذين يصغرونه سناً في صيد الحيوانات الصغيرة التي توجد في الراعي القريبة، مثل السمور والفأر البري أو الثعلب الأسود، وكانوا يأكلون لحومها، ويدخرون

الأوتاد والجلد.

- كان في استطاعة تموجين أن يبقى ثلاثة أو أربعة أيام دون طعام وكثيراً ما كان يشعر بألم الجوع قبل أن يعثر على طعام جديد، وفي بعض الأحيان كان يخرج سكيناً ويقطع وريداً من أوردة فرسه الذي يركبه، ويشرب قليلاً من دمه ثم يسد الوريد، ويواصل طريقه.

- سرقة عصفور وسمكة من توجين.

- المتهم بالسرقة أخ له من أمه.

- تموجين يقدم على قتل أخيه دون شفقة أو رحمة.

- تموجين الابن الأكبر للعائلة يجلس برهة مطرقاً حزيناً إلى جوار جمرة متقدة بين أحجار الموقد وخلف الموقد بسطت فروة جلد فرس أبيض حيث كان يجلس الخان.

تموجين ينبئ أمه أنه قرر أن يأخذ مكان الخان ويتسمى باسم جنكيز خان، وأن تبقى الأسرة بقطعانها وممتلكاتها في موطنها حيث المراعي إلى جوار النهرين.

- معنى قرار تموجين أن على الأسرة أن تدافع عن نفسها ضد أعداء الزعيم الراحل الذين كانوا لا يتوانون عن الثأر من الأطفال، وهذا ما حدث بالفعل، فرغم ما كانت تنصب على رأس تموجين من مصائب ونكبات ينوء بها كاهله الصغير، فإن قبائل التايجوت التي كانت تناصبه العداء لم تتركه وشأنه، بل كانت تشن عليه الحرب تلو الحرب وتأسره وتمعن في إذلاله، ولكنه بدهائه وذكائه كان يستطيع الخلاص، ونفسه ممتلئة بالحقد والكراهية على هذه الطائفة، وكله عزم وتصميم على الصبر والمثابرة حتى تسنح له الفرصة للانتقام من الأعداء.

- أتباعه يستمرون في الانفضاض من حوله واحداً بعد الآخر.

- أحد أتباعه الذين يحضرون باحترام الجميع وامه (تودان تموجي) يعز عليه.

- جنكيز خان يذهب إليه بنفسه ويحاول بمسكنة وتواضع أن يثنيه عن عومه, ولكن الرجل لم يستجب لندائه ورد عليه قائلاً: لقد صممت على على الرحيل، ومجال التوقف محال ثم تركه وانصرف.

الأوامر وأهملتم، فإننا نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحاة، فســوف لا نقبل عذركم، ونتوجه إليكم فيجري على ولا يتكلم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم.

- هولاكو يتلقى الثناء والترحيب عندما ذاع نبأ وصــوله إلى إيران من أتباعه الجدد ابتداء من شــمس الدين كرس ملك هراة ومن الســلغري أبي بكر ســعد بن زنكي أتابك فارس إلى الســلجوقيين القائمين في آسيا الصغرى وهما كيكاوس الثاني ونقلج أرسلان الرابع.

- في هذا الوقت كان الإســماعيلية يســتوطنون الجبال في ولاية طالقان (ورذبار الموت) (المعقول الرئيسي لتجمع الإسماعيلية ويفصله عن قزوين ستة فراسخ. وكانت لهم في تلك المناطق قلاع حصينة تبلغ الخمسين أشهرها وأمنعها ثلاث: الموت وميمون دز ولنبه سر. وكان الإسماعيلية يتخذون قلعة – والدة تموجين تخرج بنفسها في نفر ضئيل ممن قبل البقاء مع ابنها، يحاولون إجبار الأتباع على العودة إلى قبيلتهم، فلما تقابل الفريقان نشبت الحرب رجل هرم مجرب يناصر تموجين اسمه (جرقة أبو كان) وكان أحد الأمراء الكبار، فأصيب بطعنة في ظهره، ولكنه تحامل على نفسه، وعاد منا لحرب، فأسرع إليه تموجين يستفسر منه حقيقة الأوضاع، فقال له (جرقة)، بعد وفاة أبيك الصالح شقت الأقوام والجنود عصا الطاعة وأعرضوا عنك فأردت أن أمنعهم ولكن القضاء كان لي بالمرصاد فجأة أصبت بطعنة نجلاء.

- تموجين بعد أن رأى جرح (جرقة) كان بليغاً وحاله سيئة بكى عليه بكاء مراً، وعندما خرج فاضت روح ذلك الرجل.

- التقلبات التي صادفها تموجين في شبابه والتجارب والمحن التي مر بها في حياته، ومقاومته للمناخ القاسي وما فيه من برد قارص وحرارة خانقة، ومقدرته على تحمل آلام الجوع والحرمان لعدة أيام، وعدم اهتمامه بما يصيبه من جروح وآلام أو سوء معاملته في أوقات الضعف والهزيمة، كل ذلك قد أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات، وصنع منه رجلاً صلباً حديدياً أدهش العالم.

- الجوز جائي (مؤرخ فارسي) يصف تموجين فيقول: عندما جاء إلى خراسان كان رجلاً طويل القامة قوي البنية، ضخم الجثة، له عينان كعيني القط وهو في غاية الجلد والذكاء والدهاء والعقل والهيبة وكان محارباً عادلاً حازماً شديد الوطأة على عدوه شجاعاً سفاكاً متعطشاً للدماء، وبمثل هذه الأوصاف وصفه أيضاً المؤرخ الصيني منج هونج الذي كان في سنة 618هـ سفيراً لدى

المغول من قبل أباطرة الصين في الجنوب، وميزه بأنه كان ضخم الجثة عريض الجبهة طويل اللحية.

- في ظل هذه الحياة القاسية، بدأ يظهر جبروت تموجين وبطشه، ولقد أجاد في الرماية ومهر في الصيد واشترك في حلبات سباق الخيل وأتقان المصارعة وتفوق على أقرانه، وبالرغم نم أنه كان يميل إلى النحافة، فإنه كان في استطاعته أن يتغلب على أقوى الصبيان المصارعين، كما كان سريع الحركة شديد المكر كالثعلب كذلك برع في رسم الخط وتدبير الأمور، وآمن بعقيدة راسخة تتلخص في أن البقاء للأقوى، ويروى أنه عندما ابتسم له الحظ بلغت ثروته تسعة من الخيول سرق منها قطاع الطرق ثمانية ولكنه استطاع أن يستردها بمساعدة صديقه (بو أرتجو)، وهو ابن أحد الرؤساء، فصار منذ ذلك الوقت أخلص ملازم لتموجين وأصبح في أيام عظمته واحداً من خيرة قواده.

- تموجين لما تأكد من نهاية بؤسه تقدم ليتزوج من ابنة أحد رؤساء القنقرات، فطلب أبوها مهراً لها هو عبارة عن فرو سمور أسود.

- تموجين فتى كان شريداً طريداً تتلقفه أيدي من يشفق عليه من أصدقاء أبيه، بدأ نجمه يلمع حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة من عمره استطاع بفضل ذكائه وحنكته وشجاعته وصبره أن يجتذب إليه أكبر الشخصيات من قبيلته، وأن يخضع المناوئين له في هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة عليها.

تموجين رأى في منامه ذات ليلة أن يديه امتدتا، وكان يمسك سيفاً في كلتا يديه بحيث أن طرف أحدهما كان متصلاً بالمغرب، فلما أصبح الصباح قص رؤياه على أمه فقالت له: أنت سوف تستولي على العالم شرقيه وغربيه، وسوف يصل أثر سيفك المضرج بالدماء إلى بلاد المشرق والمغرب.

- نظر تموجين يتجه نحو القبائل المجاورة ويصمم على إخضاعها، فانتصر على قبيلة التايجوت التي لقي من زعيمها الهوان والعذاب، وبهذا بسط سيطرته على منطقة شاسعة تمتد شمال صحراء جوبي، حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم عمل على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى، وذلك وفق سياسة محكمة عبر عنها أصدق تعبير فقال: كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائماً أن القلوب والعقول المتباينة لا يمكن أن تكون في جسد واحد، ولكني أريد أن أثبت أن ذلك ممكن عملياً.

فسوف أبسط نفوذي على جميع جيراننا.

تموجين وقبيلة كرايت

قبيلة كرايت تمتاز على غيرها من القبائل المغولية بالقوة والشـــوكة، وتتفوق عليها في العدد والعدة وكان أونك خان الذي يدين بالمسيحية رئيساً لهذا القبيلة، وكان صديقاً حميماً ليسوكاي بهادر والد تموجين.

- في بادئ الأمر اســتمر أونك خان أيضـــاً على وفائه للابن تموجين وغمره بلطفه، وتوطدت بينهما أواصر الود والصداقة، ورفض التعرض له ومقاومته حين استعدى عليه إمبراطور الصين، ولما رأى في تموجين الشجاعة والإقدام وبعد النظر، أعجب به وبالغ في إكرامه وإعزازه.

- أبناء أونك وإخوته وخاصته والمقربين إليه صـاروا يحسدون تموجين على ما بلغه من جاه ومنزلة، فعملوا على الإيقاع به عند أونك خان، وكانوا دائماً يحذرونه منه ويوحون إليه بأن في بقائه خطراً على دولته، وهكذا دأبوا على وشـــاياتهم وســـعاياتهم حتى تغير موقف أونك خان من تموجين وصار يخشاه ويعمل على الخلاص منه.

- أونك خان وجد أن من المتعذر أن يقاوم تموجين علناً، ففكر في القضاء عليه سراً.

- أونك استقر رأيه على مهاجمة تموجين وقت السحر.

- غلامان من أتباع أونك خان يهربان إلى تموجين ويطلعاه على تفاصـــيل مؤامرة أونك خان التي تحاك ضده.

- جنود أونك يهاجمون منازل تموجين فيجدونها خالية ويجدون في طلبه، فيلتقي الفريقان وتدور بينهما معارك طاحنة أسفرت عن انتصار تموجين وقتل خصمه وغنم غنائم كثيرة وكان هذا سنة 599هـ.

- في يوم النصـــر رفع تموجين قدر الغلامين ومنحهما لقب (ترخان) وهو يخول لصـــاحبه أن يتمتع بالإعفاء من جميع المؤن والتكاليف، وأن يســـلم له ما يغنمه في الحرب، وله أن يدخل على تموجين دون اســتئذان، كذلك أمدهما بالجند والرجال، وأعطاهما من الدواب والمتاع الشـــيء الكثير، وأمر بألا يؤاخذا على ما يقترفانه من ذنوب مهما كثرت، وقد اســـتمرا يلازمان تموجين إلى أن كبرا

وتناســـلا وانتشـــر أولادهما وأحفادهما في جميع الممالك، والتحقوا بخدمة ملوك المغول، وكانوا معززين مكرمين.

- الموقعة تلك زادت من شـــوكة تموجين وأوقعت الرعب في نفوس الجميع فأســـرعت القبائل التي كانت مترددة إلى تقديم فروض الخضـــوع والطاعة، وعندما أرســـل إلى قبائل الأويرات والقنقورات يطلب إليهم الدخول في طاعته قبلوا على الفور فخصهم بالأنعام والرعاية.

تموجين وقبيلة النايمان

بعد أن تغلب تموجين على قبيلة كرايت، تأكد تايانك خان رئيس قبيلة النايمان أن تموجين سوف يهاجمه ويقضي عليه كما فعل بأونك خان فاستنجد بملك قبيلة الأنكوش غير أن هذا الحاكم أرسل إلى تموجين رسولا يطلعه على ما عرضه عليه تايانك خان، فاستعد تموجين لمحاربته، ولكن تايانك خان كان قد اتخذ الأهبة للقتال وجمع جيشا جرارا وانضم إليه الكثير من رؤساء القبائل الأخرى ودارت الحرب بين الفريقين في سنة 600هـ فتغلب تموجين على خصمه وقتله وأسرت زوجته وسيقت إلى تموجين فتزوج منها.

- تموجين يؤلب القبائل الواحدة منها على الأخرى، ويتحالف مع القوى منها على الضعيف، وبهذه الوسائل استطاع التغلب على أقوام المغول الذين ينزلون في منطقة التبت وشرقي تركستان.

- في تلك السنة وبعد أن ظهرت شجاعته ومقدرته، اجتمع حشد كبير من القبائل على حدود نهر أوين وأقيم حفل عظيم وأجمع الحاضرون على انتخاب تموجين إمبراطوراً عليهم وسموه (جنكيز خان) ومعناه أعظم الحكام أو إمبراطور البشر.

- سنة 600هـ تعتبر بدء دولة جنكيز خان، ولو أنه لم يحصل على لقب (خان) إلا في سنة 603 حتى أصدر دستوره الشهير المعروف بـ (الياسا).

- بعد أن جلس جنكيز خان على عرش القبائل المغولية شرع يوسع دولته على حساب الأقاليم المجاورة فتغلب على طوائف القرغيز.

- الأويغريون يدخلون في طاعة جنكيز خان وسار أيدي قوت ملكهم بنفسه وقدم فروض الطاعة لجنكيز خان مع الهدايا.

- سيطرة جنكيز خان على مناطق الصين الشمالية بعد أن استطاع أن يكون حكومة واحدة، ولما كان جنيكز خان يعلم الشيء الكثير عن الأوضاع الداخلية في الصين، ومدى ما بلغته هذه البلاد من حضارة وما كانت عليه من غنى وثروة أقدم على تنفيذ خطته دون تردد، واستعد لحرب طويلة الأمد وحشد لها معظم قواته، ثم خرج بنفسه على رأس هذه القوات فاشتبك مع الصينيين لأول مرة

عام 608هـ ثم تابع حملاته واستطاع أن يحرز جملة انتصارات، وخضعت له البلاد الواقعة داخل سور الصين العظيم.

- في سنة 610هـ تحركت ثلاثة جيوش جرارة.

- الجيش الرئيسي على رأسه جنيز خان يساعده ابنه الأصغر تولي.

- الجيش الثاني قاده أبناؤه الثلاثة الآخرون: جوجي وجغتاي وأوكستاي، وشكلوا الجناح الأيمن لجيش أبيهم، ثم سارت هذه الحملة متجهة إلى الجنوب.

- الجيش الثالث تحرك بقيادة إخوته إلى الشرق في اتجاه المحيط.

- هذه القوة الجبارة مكنت جنكيز خان من أن يواصل فتوحاته في يسر وسهولة أول الأمر لكنه اضطر إلى التوقف عند مرتفاع شانتونج عندما شعر بالإعياء والتعب للمقاومة الباسلة التي أبداها الصينيون في الدفاع عن وطنهم.

- جنكيز يقترح عقد هدنة مع إمبراطور الصين واي وانغ.

- الهدنة فشلت واستغل جنكيز خان الفرصة والتحم مع الصينيين في معركة فاصلة سقطت على أثرها مدينة بكين في أيدي المغول عام 612هـ.

- أحدث نبأ انتصار جنكيز خان على الصينيين واستيلائه على بكين دوياً هائلاً في الممالك الإسلامية وكان الغازي المغولي يود أن يكمل فتوحاته في هذه البلاد، غير أنه فضل العودة إلى منغوليا عام 613هـ.

- كوجك خان ابن الملك المهزوم تايانك خان يفر مع جمع كثير من أتباعه، وقد تعرض أثناء فراره وجولاته لمتاعب عديدة، ووقع في الضيق والعوز، وتفرق الجمع الذي كان يصاحبه، ويقال أن كوجك لجأ إلى كورخان، وصار محتجزاً عنده ردحاً من الزمن.

- السلطان علاء الدين خوارز مشاه يشق عصا الطاعة على كورخان ويرفض أن يدفع له الجزية.

- كوجك خان ينتهز الفرصة ويدخل في روع كورخان إنه يستطيع أن يجمع أتباعه المشتتين

في نواحي إيميل وقياليخ وبيش باليغ، ويكون جيشـــاً كبيراً ويقف إلى جانب كورخان ضـــد مطامع خوارزمشاه.

وأنه يتعهد لكورخان بأن يظل وفياً له، ولا يعصي له أمراً.

- الخطة تنطلي على كورخان وشـمل كوجلك بعطفه ورعايته ومنحه كثيراً من التحف والهدايا وسمح له بتنفيذ هذه الخطة.

- الزعيم الفار كوجلك يجمع جنوده ويعيد تنظيم قواته وينضـــم إليه بعض من أتباع كورخان، كما لحق به توق تغان حاكم قبيلة المركيت الذي كان قد فر هو الآخر خوفاً من بطش جنكيز خان، ومنذ ذلك الوقت صـار كوجيلك يبدو في ثوب التابع المخلص لكورخان، حتى إنه إذا لمس منه ضـعفاً لبس جلد النمر وصمم على الغدر بولي نعمته والقضاء عليه.

- كوجلك ينتهز فرصة العداء الشديد بين الخوارزميين والقراخطائيين ويتفق مع السلطان محمد خوارزمشـاه على إزالة هذه الدولة واقتبسـامها بينهما فصـادف ذلك هوى في نفس السـلطان محمد، ووافق على التدخل عندما رأى رجحان كفة كوجلك الذي سـارع إلى محاربة كورخان، فاسـتطاع أن ينتصر عليه ويأسره ويزج به في السجن حيث توفي بعد عامين فقد تزوج كوجلك من ابنة كورخان، فاســتطاعت أن تقع زوجها بالارتداد عن المســيحية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها. ولما رأى السلطان علاء الدين محمد وألحق بالخطائيين أعمل بالسيف في رقاب البقية الباقية منهم وبذلك شارك في تحطيم دولتهم.

- بعد هزيمة القراخطائيين أخذ كوجلك يوســع دولته ويخضــع كثيراً من القبائل المجاورة ومد ســلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية دون أن يعوقه عائق وبذلك نجح في تأســيس دولة قوية تقوم على حدود البلاد الإسلامية.

- السكان في مناطق كاشـغر وختن من بلاد القراخطائيين يتمردون عليه فيرسـل جيوشـه أولاً إلى كاشــغر في وقت حصــاد الغلات، فكان جنوده يســتولون على المحصــول ويأكلون ويحرقون وينهبون ويعيثون في الأرض فساداً.

- أثمان الحاجات ترفع والأقوات تتعذر، والمجاعات تهلك كثيراً من الأهالي.

الغاصب المحتل يغدق على السكان البوذيين المشركين ويعطيهم كل ما يطلبون ولا يستطيع أحد أن يمنعه من هذا الظلم الصارخ، والتفرقة غير المشروعة في المعاملة.

- أجبر كوجلك المسلمين على الارتداد عن دينهم.

- وأجبرهم على مناظرات عقيمة في شؤون الأديان والعقائد.

- جنيكز لم يكن غافلاً عما يعمله عدوه اللدود كوجلك.

- ما أن انتهى جنكيز من حروبه في الصين حتى سارع فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أحد قواده المشهورين (جبه نويان).

- كوجلك يفر قاصداً (بدخشان) فيتعقله بعض الصيادين ويسلموه للمغول الذين قتلوه على الفور.

- جنكيز خان يتعقب الهارب الآخر (توق تغان) فيجده ويقتله.

بهذا الانتصار تمت سيطرة المغونل على جميع القبائل التركية التي كانت تخضع للقراخطائيين، كما احتلوا المناطق الأخرى التي كان كوجلك خان قد ضمها إلى دولته.

وبوقوع هذه المناطق في أيدي المغول صاروا يجاورون أملاك الخوارزميين.

- جنكيز خان أراد أول الأمر أن يكون على علاقة طيبة بالسلطان محمد خوارزمشاه، ولكن تطور العلاقات بينهما من سيء إلى أسوأ، جعله يترك سياسة المهادنة ويسير بجيوشه الجرارة إلى البلاد الإسلامية.

منظر – 9 –

الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول

- الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول كان في حالة شديدة من الضعف والتخاذل تضمنه مناطق تسودها الفتن والدسائس وتتنازعها الأهواء والأغراض وتصطرع فيها المذاهب والآراء ويسيطر عليها حكام متنازعون متباغضون يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح أوطانهم العليا.

- كانت أهم الدول التي تمثل الشرق الإسلامي في ذلك الوقت تقوم في إيران والعراق والشام ومصر.

- في إيران تقوم الدولة الخوارزمية التي تنسب إلى مؤسسها (نوشتكين) وكان أول أمره عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة من غرجستان ثم شغل منصب (الطشت دار) إلى أن نصب حاكماً على إقليم خوارزم وتلقب بلقب (خوارزمشاه) سنة 490هـ.

- جنكيز خان يشن حروباً شديدة على الإمبراطورية التي كانت تمتد من نهر السند شرقاً إلى كردستان وخوزستان والخليج العربي غرباً، ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً وتشمل أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمي وفارس وكرمان ومكران وستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصغد وما وراء النهر.

- الحرب تستعير على مدى خمسة أعوام من سنة 1218هـ- 1223م.

- جنكيز خان يستولي على كثير من مدن ما وراء النهر وأهمها بخارى وسمرقند وترمذ، ثم عبر نهر جيحون وفتح بلخ والطالقان وباميان بينما فتحت جيوشه حوض نهر سيحون وخوارزم وخراسان، وتتبع قسماً منها يعرف في التاريخ باسم المغول المغربة محمد خوارزمشاه الذي أخذ يتنقل مسرعاً من نيسابور إلى قزوين وإلى جيلان مازندران إلى جزيرة عند مصب نهر جرجان في بحر قزوين حيث مات، ثم بعد ذلك سار المغول المغربة حتى دخلوا روسيا بعد أن عبروا جبال القوقاز.

- بعد موت محمد خوارزمشاه الحروب تستمر بين ابنه جلال الدين وبين جنكيز خان.

- جلال الدين يهزم جيش جنكيز خان إلى خوارزم.

- الجيشان يلتقيان مرة أخرى عند نهر السند في معركة أظهر فيها جلال الدين شجاعة أرعبت عدوه.

- انسحاب جزء من جيش جلال الدين بسبب نزاع القادة أضعفه واضطره إلى عبور نهر السند إلى الهند.

- جنكيز خان بقي بعد ذلك مدة قصيرة على شاطئ نهر السند أرسل فيها اثنين من قواده لاقتفاه أثر جلال الدين في الهند، كما أرسل ابنه أجطاي إلى غزنة فخربها، وأرسل جيشاً غير هذه الجيوش ففتح (هراة) وخربها كما فتح مرو وخربها.

ولما عادت هذه الجيوش إليه عزم على العودة إلى منغوليا في ربيع عام 1223م وقد أراد العودة في أول الأمر أن يعود عن طريق الهند والتبت وسار فعلاً بعض المراحل، ولكنه غير رأيه وسار عن طريق فارس وما وراء النهر، أي اتبع في عوده الطريق التي سلكها عند مجيئه فوصل إلى قصره في منغوليا في فبراير 1225م.

- وعلى ذلك فقد سار جنكيز خان شوطاً بعيداً في سبيل ضم معظم غربي آسيا إلى ممتلكات المغول، كما أنه ثبت قدم المغول في جزء واسع من شمالي الصين ووجه أنظارهم إلى البلاد الصينية، وقد مات جنكيز خان في 18 أغسطس سنة 1227م وهو يحارب في بلاد التنجوت.

منظر – 10 –
عهد خلفاء جنكيز خان

سـار خلفاء جنكيز خان على الطريق الذي سـلكه. فابنه أجطاي عندما خلفه على العرش عول على إخضاع أمراء أسرة كين الذين ثاروا على المغول على أثر موت جنكيز خان وهزموهم في سنة 1228م. وفي سـنة 1230م وقد سـار على رأس جيش كبير كما سـير أخاه توني إلى هونان وكانت النتيجة انتصار المغول واكتساح أسرة كين من الوجود، وأتموا إخضاع الصين الشمالية نهائياً بعد أن ظل أفراد هذه الأسرة يحكمون 118 سنة.

- أما في الصـين الجنوبية فقد عول أجطاي على تنفيذ رغبة جنكيز خان الذي جهز لغزوها ولكنه مات قبل تحقيقها.

- أجطاي يسـعى إلى تحقيق رغبة والده المتوفى جنكيز خان رغم مسـاعدة ملكها لأجطاي في حربه ضد الصين الشمالية.

- أحطاي يعلن الحرب اتباعاً لطريق والده جنكيز خان.

- الحرب لم تحقق نتائج حاسمة.

- الحرب في كوريا تستعر بين ملكها وأجطاي والثورات ضد المغول تتوالى مما دعى أجطاي إلى إرسال حملة بقيادة سابوتاي الذي انتصر وعين حاكماً من المغول في كثير من مدن كوريا.

- في سـنة 1232م ثار أهل كوريا وقتلوا كثيراً إلى الفرار إلى جزيرة سـيانج هو على سـاحل كوريا الغربي فاسـتدعاه أحطاي ولكنه رفض مما دعا أجطاي إلى إرسـال حملة ضـده سـنة 1235م فخضع بعدها ملك كوريا ووعد أحطاي بدفع الجزية وأرسل الرهائن إلى أحطاي.

منظر – 11 –

المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية

المغول يقسمون قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية.

- فتح الجيش الأول ديار بكر وأرزن الروم وميافارقن وماردين ونصيبين وسنجار.

- الجيش يتقدم حتى يبلغ ساحل الفرات.

- الجنود المغول ينشطون في القتل والسلب والنهب.

- سـكان هذه المناطق لا يجرؤون على مقاومتهم وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي.

- ابن الأثير يصف ما جرى فيقول: إن الرجال الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس وقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتاري ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع الرجل رأسه على الأرض ومضى التتاري فأحضر سيفاً فقتله به.

- الجيش الثاني قصد مدينة (بدليس) فأحرقها واستولى على بعض القلاع المحيطة بها.

- الجيش الثالث يسير إلى منطقة أذربيجان ويشرع بفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً صمم على احتلال حاضرتها تبريز فسلمت دون مقاومة عام 629هـ وذلك لأن الأهالي لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين.

- الناس حينما تأكدوا من ضعف الحكام الخوارزميين ثاروا عليهم وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم.

- الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز فيسارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة فوافق المغول ودخلوا المدينة التي سلمت من التخريب والتدمير.

في سنة 632هـ و633هـ المغول يدخلون إقليم إربل وغزوا حاضرته إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة وتحصنوا فيها فحاصرها المغول أربعين يوماً، وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ من المال ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد جاء من بغداد.

- القوات المغولية تنتقل إلى العراق في سنة 634هـ وواصلت زحفها شمالاً حتى بلغت مدينة (سامراء) فلما شعر الخليفة بما يتهدده من خطر أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء جعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله.

فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدواتدار استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل (حمرين) وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل، ولم تغفل نشوة النصر جنود المسلمين عن إقامة الاستحاكامات المنيعة حول بغداد.

- ومع هذا لم يمض وقت طويل حتى عاود المغول الكرة فقصدوا هذه المدينة في سنة 635هـ، حيث هزموا المسلمين في (خانقين) وقتلوا عدداً كبيراً منهم وعاد الباقون إلى بغداد.

- المغول يواصلون زحفهم في الشمال فيها جمون جورجيا مستخدمين أبشع أساليب البطش والهمجية لمقاومة ملكتها (روسوداق) ولكنها أجبرت في النهاية على الهرب، وسقطت في أيدي المغول معظم المدن المهمة في هذا الإقليم وفي مقدمتها العاصمة (تفليس) أما أرمينية الكبرى فقد خربت عاصمتها (آني) وقتل عدد كبير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحصرونها زمناً طويلاً، كما عوملت (قرس) إحدى مدنها معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها إلى المغول، ولم ينج من مذبحتها سوى الأطفال والصناع. ولكن المغول عادوا فأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان تلك الجهات التي سلمت من أذى المغول وشرورهم، إذ أنه عندما قبل الحكام في هذين الإقليمين الدخول في طاعة المغول اكتفوا بأخذ الجزية منهم وأقروهم في مناصبهم.

- المغول يسيطرون سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أدنى مقاومة فسلمت لها سجستان وغزنين وكابل وحدود السند.

- في سنة 639هـ عزل (جورماغون) من قيادة الجيش المغولي على أثر إصابته بالشلل وحل

محله القائد المغولي (بايجو نوبان).

- المغول يستغلون فرصة النزاع الدائر بين السلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جهة، وبين حكام مصر والشام من جهة أخرى، فسار بايجو في نفس السنة على رأس جيش تعداده 30000 ألف جندي مجهزين بآلات القتال قاصدين (أرزن روم) حيث التحموا بقوات السلطان غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين كيقباذ أحد سلاطين السلاجقة الروم فلم يقو على الصمود أمام المغول، وسقطت المدينة في أيديهم بعد أن قتل من أهلها عدد كبير ووقع في الأسر الكثيرون.

- في سنة 640هـ استعد غياث الدين كيخسرو للقاء المغول، فكون جيشاً كبيراً من المسلمين والأرمن والكرج واليونانيين والفرنج، وساروا على طريق البر كما سار البعض عن طريق البحر متجهين إلى أرمينية لمحاربة المغول، فالتقى الفريقان في (كوسه طاغ) (الجبل الأقرع) من نواحي أرزنجان حيث دارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار المغول ودحر هذا الجيش غير المتجانس، ولم يجد السلطان غياث الدين مفراً من الهرب والتحصن بمدينة أنقورة ثم استولى المغول على سيواس وقيسارية وخربوهما، كذلك كر المغول عند عودتهم إلى مدينة أرزنجان وملكوها عنوة وقتلوا رجالها وسبوا الذراري ونهبوها وخربوا سورها وانسحبوا.

- كان لهذه المعركة أثر حاسم في مقدرات الدولة السلجوقية، إذ وقع الأناضول بعدها في قبضة المغول.

- السلطان غياث يرسل رسولاً إلى المغول يعلن خضوعه ويتعهد بدفع الجزية السنوية لخان المغول.

وبهذا قضي على استقلال دولة سلاجقة الروم، وصارت تابعة للمغول وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم فرادى أو مثانى أو أكثر بـ (بيرائغ) (مراسيم) من حكام المغول.

- الحكام المغول هم الحكام الحقيقيون للبلاد السلجوقية وهم الرقباء على إدارة السلاجقة.

منظر – 12 –
فتح أقاليم الصين الشرقية

في عهد جنكيز خان استطاع المغول أن ينتزعوا بعض الأجزاء فقط من أقاليم الصين الشمالية مثل شبه جزيرة شانتونج وأطراف خليج بتشيلي والعاصمة الأولى بكين، أما الأجزاء الأخرى فكانت لا تزال تحت حكم أسرة كين، كذلك استطاعت هذه الأسرة من استرداد جزء كبير من ممتلكتهم بعد رحيل جنكيز خان مباشرة، واتخذت مدينة كاي فونج في هومان عاصمة لها.

فلما تولى أوكتاي قا آن حكم المغول أعد العدة لفتح هذه البلاد فسير جيوشه إليها في سنة 627هـ وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي.

- أوكتاي يسير بنفسه مع أخويه جغتاي وتولي إلى سهل (هوانج هو) الذي يطلق عليه المغول (قرا موران) ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسيين، هجم أحدهم من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولي، وقد أسفرت المعارك انتصاراً ساحقاً وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي.

- المغول يعهدون إلى قائدهم المشهور (سبوتاي) بفتح العاصمة (كاي فونج)، وقد استعد الصينيون من جانبهم استعداداً تاماً لخوض المعركة الفاصلة فجيش ملكهم التون خان الذي كان يدعى (نن – كيا – سو) مائة ألف من خيرة جنوده وأمر عليهم قائداً كبيراً وأنقذهم للقاء المغول.

- سبوتاي يقوم بمحاصرة المدينة واستمر الحصار مدة طويلة.

- الصينيون يبدون شجاعة تفوق حد الوصف إلا أنهم لم يستطيعوا حماية عاصمتهم من السقوط في أيدي المغول وقتل معظم سكان المدينة ولم يفلت منها إلا القليل، وكان ذلك في سنة 631هـ.

- الوزير المصلح (بي ليو جوتساي) يتقدم بطلب أوكتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة بل يلحقها بالأملاك المغولية.

- أوكتاي يستجيب للطلب.

- ملك الصين – كيا – سون يلجأ إلى مدينة أخرى تسمى (ناميك) قبل سقوط العاصمة (كاي فونج).

الملك بعد أن بلغه ما جرى على أصحابه ارتاع وفزع وانتابه اليأس من الحياة لجمع أولاده ونساءه وكل من يعز عليه، ودخلوا بيتاً من بيوت الخشب وأمر بإضرام النار فيه فاحترق هو ومن معه أنفة من الوقوع في أسر المغول وكان يقول: لا أريد بعد طول هذه المدة من الحكم والسيطرة والتمتع بضروب الشهوة أن أقع أسيراً في يد المغول، فأموت ملطخاً بالعار.

- المغول يسيطرون بعدها على أقاليم الصين الشمالية بأكملها وزالت دولة أسرة كين.

- عند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة (سونج) يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية فلما خابت آمالهم نشبت الحرب بينهم وبين المغول وكانت هذه فرصة سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة وضم أملاكها إلى حوزتهم.

منظر – 13 –
المغول في أوروبا

في عهد جنكيز خان بعد أن أخضع المغول الأقاليم الشمالية من الدولة الخوارزمية عبر القائدان المغوليان جبه وسبوتاي المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى القبجاق في روسيا، ولكن لم تتح لهما الظروف أن يستمرا في فتوحاتهما وعندما خلف أوكتاي أباه جنكيز على عرش المغول كان أول ما فعله أن وجه همته نحو الغزو والفتح، فكان من برنامج أن يكمل الفتوحات التي قام بها المغول في عهد جنكيز خان.

وبعد أن عاد أوكتاي تعداده 150000 جندي أسند قيادته العليا إلى باتوين جوجي، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور (سبوتاي) يتولى القيادة الفعلية، وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا، وأحرق مدينة موسكو ودمر مدينتي سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال، على حين شهدت فلاديمير عند سقوطها عنوة أفجع المناظر إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار.

بعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة (أوكرانيا) فقلبوا هذه المناطق أيضاً رأساً على عقب وعاثوا فيها فساداً وتخريباً واستولوا على عاصمتها (كييف) في سنة 638هـ ودمروها تدميراً كاملاً ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكلمها واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف وبعد أن أتم المغول فتح روسيا انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا وتوجه القسم الثاني إلى المجر وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولنديين والألمان يبلغ تعداده 30000 ألف جندي واستولى المغول على مدينة (برشلا) وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار وفي هذا الإقليم وحده جمعوا أكياساً ملؤوها بآذان ضحايا وقتلاهم فبلغ مجموعها 270000 ألف أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة.

أما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجرمين واستولى المغول على عاصمتهم يسـت وتقدموا إلى فينا من جهة، وإلى سـواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، ولما كان المجريون والمغول من أصـــل واحد، ترك المغول هذه البلاد بعد ســـنة من احتلالها واكتفوا بتبعيتها لهم من الناحية الرسمية.

وهكذا ابتلى المغول أقاليم أوروبا بنفس الأهوال التي ابتلوا بها إيران، وقد أزعجوا بأفعالهم وشناعاتهم العالم المسيحي، فبعث البابا (جريجوري التاسع) كتاباً إلى الأمراء المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لإعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة من التتار.

وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في القارة الأوروبية، إذا بالأنباء ترد إلى أوروبا تعلن وفاة أوكتاي في سنة 639هـ واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القور يلتاي، والاشتراك في انتخاب الخان الجديد وبذلك ســـلمت أقاليم غرب أوروبا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول.

منظر – 14 –

- بعد أن انتصر المغول على السلطان علاء الدين محمد خورزمشاه، وقعت أحسن الأقاليم في إيران تحت نفوذ المغول، الذين لم يجدوا مقاومة تذكر في تسخير تلك المناطق، ولم تبق هناك قوة تستطيع أن تقف أمام هؤلاء الغزاة لتصد هجماتهم، ذلك لأن السلطان محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي وحده سلطان البلاد جميعها. فلما هزمه المغول لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها.

- الحكام المسلمون خارج إيران يعرفون تمام المعرفة أهمية قيام الدولة الخوارزمية.

- بعض خواص الأشرف موسى الأيوبي يهنئونه بمقتل عدوه جلال الدين مفبركتي فيرد عليهم قائلاً:

تهنئوني به وتفرحون؟ سوف ترون غبة: والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، وما كان الخوارمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

- نبوءة الأشرف تصدق، إذ لم يكد منكوقاً أن يتربع على عرش المغول، ويقضي على الفتن الداخلية ويتخلص من الفتن الداخلية ويتخلص من المناوئين لسياسته، حتى نراه في السنة الثانية من حكمه، يوجه همته نحو الغزو والفتح ويعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فيكلف أخاه هولاكو خان بقيادة الحملة على إيران.

- منكوقا آن يُعِد حملة على إيران بإعداد دقيق يكفل لهولاكو خان النصر. فقد أمره بكثير من القوات الممارسة للحروب والمقتحمة لميادين القتال والمنتصرة فيها.

- منكوقا آن يرسل رسله إلى بلاد الخطا لاستدعاء ألف أسرة من أولئك الذين مهروا في استخدام أدوات القتال مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمي السهام.

- منكوقا آن يصدر أوامره باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان لتكوين حرس خاص لهولاكو.

- منكوقا آن يرسل الرسل والمرشوين ليختبروا الطريق الذي سوف يخترقه جيش هولاكو قبل قيام الجيش بمهمته ابتداءً من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، ويضعون أيديهم على جميع المزارع والمراعي التي تمتد على طول الطريق، وأقاموا الجســـور على الأنهار العميقة وعلى مجاري المياه السريعة وقد عني منكو عناية خاصة بتموين هذا الجيش من جميع أنحاء الإمبراطورية.

- منكوقا آن يجهز كل ما يلزم لهذه الحملة من الرجال والعدة والعتاد ويرسم لأخيه هولاكو خان الخطة التي سوف يتبعها ويقول له:

- إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وتحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات.

وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصـــي بلاد مصـــر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصـــيك، فأغرقه في الذلة والمهانة مع نســـائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان فخرّب القلاع والحصون.

وإذا فرغت من هذه المهمـة، فعليك أن تتوجـه إلى العراق، وأزل من طريقك اللو والأكراد، الذين يقطعون الطريق على ســـالكيها، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصـــى، فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور، العقل الحكيم والرأي الســـديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم.

وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم ســـوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة. وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون.

- منكوقا آن: كان واثقاً تماماً من أن هولاكو يستطيع بجيشه القوي أن يسيطر على تلك الأقاليم، وأن يكون منها مملكة خاصـــة به وبأبنائه من بعده، ولكنه مع هذا أوصـــى أخاه بأن يعود إلى مقره الأصلي حينما يفرغ من إنجاز مهمته.

منظر – 15 –
هولاكو والإسماعيلية

ظل الإســماعيلية مع الغول في صــفاء مدة طويلة. وكان جلال الدين حســن بن محمد زعيم الإسماعيلية هو أول حاكم يرسل رسولاً إلى جنكيز خان ليقدم إليه فروض الخضوع والطاعة عن ما جاء على رأس جيشــه إلى إقليم ما وراء النهر وبعد عبوره نهر ســيحون. والإســماعيلية هم الذين اتصــلوا بالمغول ودعوهم أكثر من مرة لمهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي والقضــاء نهائياً على الدولة الخوارزمية.

لكن الإسماعيلية عندما رأوا أن مطامع المغول لا تقف عند حد، وأن فترهم مستمرة في الصين وأوروبا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى، طافوا خطرهم وصمموا على مقاومتهم فأخذوا يرسلون رسلهم إلى إنجلترا وفرنسا سنة 637هـــ طالبين معونة الأوروبيين الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية، ولكنهم لم يلقوا مجيباً، يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر:

دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضــهم بعضــاً حتى يقضــى عليهم نهائياً، وعندئذ ســوف نقيم على أنقاضــهم الكنيســة الكاثوليكية العالمية، فتكون حقاً راعياً واحداً وقطيعاً واحداً. ولم يقف الإســماعيلية عن هذا الحد، بل إنهم حاولوا تكوين اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصــد الخطر المشــترك الذي يتهددهم جميعاً.

- هذه الأخبار تصــل إلى المغنول وتوضــح لهم عدم إخلاص هذه الطائفة، ونفاقها ورياءها ويتضح هذا من خلال المعاملة السيئة التي لقيها رسل الإسماعيلية الذين أوفدوا إلى قراقورم للاشتراك في القوريلتاي الذي انعقد هناك لانتخاب (كيوك) خاناً أعظم للمغول وكان ذلك في سن 644هـ.

- المغول عندما كانوا يفكرون في إزالة الدولة العباسية أدركوا طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم، وقد تحول دون تحقيق أطماعهم، وقد تحول دون تحقيق أطماعهم في الســيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي، لهذا أوصى منكوقا أن أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الجماعة قبل مسيره إلى بغداد، قضاءً مبرماً فيخرب قلاعهم، ويجعل أعاليها أسافلها ولا يبقى منها أي أثر.

- العامل المهم الذي شجع المغول على مهاجمة الإسماعيلية هم المسلمون أنفسهم الذين كانوا تحت حكم المغول، فلقد ضج هؤلاء بالشكوى من الإسماعيلية بسبب ما لاقوه منهم من عنت وإرهاب وظلم وجور، لاسيما أهل قزوين الذين كانوا يجاورونهم، وكانوا في نضال دائم معهم لأنهم كانوا يعتنقون مذهب أهل السنة وكانوا يغالون ويتعصبون لهذا المذهب.

يقول المؤرخ ابن طباطبا صاحب كتاب (الفخري في الآداب السلطانية):

حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري قال:

أذكر ونحن بقزوين إذا جاء الليل جعلنا جميع ما لنا من أثاث وقماش ورحل في سراديب لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة، فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حَملُ القزاونة للسكاكين وكثر حملهم للسلاح، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي قزوين وتوجهه إلى قآن، وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان.

ويذكر أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على أتصال بالمغول، وكان إماماً وعالماً كبيراً، ذهب مرة إلى منكو خان، وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ويخلص الناس من فسادهم، وفي أثناء حديثه وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين، صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكو خان، وكان لها أثر عميق في نفسه، إذ نصب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة التي تدين بدين مخالف لديانات المسيحيين والمسلمين والمغول، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغزوا منكو خان بالمال، بينما هم يتحينون فرصة دولته، فيخرجون من الجبال والقلاع، ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويخفوا آثارهم.

منظر – 16 –

بدء الحملة نحو إيران

- هولاكو خان يخرج على رأس جيشـــه من عاصـــمة المغول (قراقورم) في ســـنة 651هـ (1253م).

- أمراء الأطراف يســـرعون إلى تقديم كافة التســـهيلات لتموين الجيش، كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك.

- هولاكو وجنوده يقطعون المراحل والمنازل حتى يصـلوا إلى سـمرقند، وقد وصـلوها سـنة 653هـ.

- هولاكو يتوجه إلى مراعي (كان كيل).

- مســـعود بك حاكم ما وراء النهر وتركســـتان يقيم خيمة مطرزة بالذهب لهولاكو يقيم فيها ما يقرب من أربعين يوماً. بين الإنس والشراب.

- هولاكو يرحل بعدها إلى مدينة تركش، التي تقع إلى الجنوب الغربي من سـمرقند، ويقيم فيها مدة شـهر وكان موضـع تكريم الوجوه والأعيان في إقليم خراسـان، أولئك الذين أسـرعوا إليه حاملين هداياهم ومقدمين له فروض الخضوع والطاعة، وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول.

- هولاكو يوجه عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران يقول فيها:

لقد أتينا هنا بناءً على أمر الخان الأعظم، وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية، والقضاء على تلك الطائفة، فإذا ســـاهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات، فســـوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشـــكم ومســـاكنكم، وســـتحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة، فسوف لا نقبل عذركم، ونتوجه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم.

- هولاكو يتلقى الثناء والترحيب عندما ذاع نبأ وصـــوله إلى إيران من أتباعه الجدد ابتداء من شـمس الدين كرس ملك هراة ومن السـلغري أبي بكر سـعد بن زنكي أتابك فارس إلى السـلجوقيين القائمين في آسيا الصغرى وهما كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع.

- في هذا الوقت كان الإســماعيلية يســتوطنون الجبال في ولاية طالقان (ورذبار الموت) (المعقول الرئيسـي لتجمع الإسماعيلية ويفصـله عن قزوين ستة فراسخ. وكانت لهم في تلك المناطق قلاع حصينة تبلغ الخمسين أشهرها وأمنعها ثلاث: الموت وميمون دز ولنبه سر. وكان الإسماعيلية يتخذون قلعة الموت عاصـــمة لهم وقاعدة لملكهم. كما كانت لهم قلاع أخرى محكمة في غير روذبار الموت في قومس، وقهستان يحكمها حاكم يقال له مجنشم.

- القائد المغولي (كيتو بو قانويان) يســير في طليعة جيش هولاكو خان إلى قهمســتان، وهي مناطق الجبال الواقعة بين هراة ونيسابور، فاستطاع أن يستولي عن كثير من القلاع الموجودة هناك، غير أنه عندما تقدم إلى قلعة (كردكوه) وجدها حصـــينة محكمة، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها.

- الحصار يطول على هؤلاء المدافعين فينتشر الوباء بينهم لندرة الماء والطعام، فكان ذلك سبباً في وفاة الكثير منهم.

- علاء الدين حاكم الإسماعيلية عندما علم بذلك خشـي مغبة الأمر وخاف أن تسقط القلعة في أيدي المغول إن استمر الحال على هذا المنوال فلم يجد مفراً من تقديم المساعدة السريعة إلى هؤلاء المحاصرين، فأرسل 110 شخصاً من الفدائيين المشهورين لإنقاذ أهالي هذه القلعة.

- مصادفة تؤدي إلى فائدة في دفع الوباء:

وحدث أن فتاة كانت قد تزوجت من أمير إسماعيلي داخل القلعة، فخضبوا يديها وقدميها بالحناء ثم غسلوها بالماء. ولما كان الماء عزيز الوجود، شربت طائفة من المرضـى من ذلك الماء الملوث بالحناء فلم يمت واحد منهم.

وبهذا وضح للأهالي فائدة الحناء في دفع الوباء، فطلبوا المزيد من هذا الصنف.

- الفدائيون يخترقون صـــفوف المغول، وكان كل منهم يحمل بعض الحناء والملح، لأن الملح

كان قد نفد من القلعة، ويمرون جميعاً دون أن يصابوا بأذى ما عدا شخصاً واحداً سقط في الخندق فكسرت ساقه فحمله زملاؤه على أكتافهم، وذهبوا به إلى القلعة.

وبهذه النجدة قوي موقف الإسماعيلية في هذه القلعة وصاروا أقدر على المقاومة والصمود في وجه أعدائهم.

- في نهاية شوال من سنة 653هـ وجد علاء الدين محمد زعيم الإسماعيلية مقتولاً في مكان يدعى (شيركوه).

- القتل ينسب إلى الحسن المازندراني الحاجب بالاتفاق مع خورشاه بن علاء الدين. وكان المازندراني من أخص خواص علاء الدين. وكان موضع أسراره لا يفارقه ليلاً ونهاراً. وكان ركن الدين خورشاه يحقد على أبيه بسبب سوء معاملته له لأنه خلعه من ولاية العهد، ولكن الإسماعيلية لم يقبلوا بذلك، جرياً وراء تقليدهم القاضي بأن النص الاول هو الصحيح، وأن عهد الإمام لا ينقض.

- الدليل على أن ركن الدين كان متواطئاً مع الحسن المازندراني على قتل أبيه، هو أن ركن الدين عندما خشي أن يُفشي المازندراني هذا السر، أرسل إليه أحد أتباعه، فقتله ثم أحرقت جثته كما حرقوا أبناءه الثلاثة، وكانوا ولداً وطفلتين. وبعد مقتل علاء الدين محمد جلس ابنه ركن الدين خورشاه على عرش الإسماعيلية.

- في غرة ذي الحجة سنة 653هـ، عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون، وتقدم نحو تلك القلاع المنيعة وأخذ هو وقواده يعملون في تخريبها وتحطيمها.

- هولاكو يدرك منذ اللحظة الأولى أنه إذا اعتمد على القوة وحدها في الاستيلاء على تلك القلاع، فإن ذلك سوف يكلفه مزيداً من التضحية فضلاً عن طول الوقت. ونظراً لصلابة هذه القلاع ومنعتها واستماتة الفدائيين في الدفاع عنها لجأ إلى سياسة الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

نـجاح سياسة هولاكو

وقد نجحت هذه السياسة بالفعل، فعندما أرسل هولاكو خان الملك شمس الدين كرت برسالة إلى ناصر الدين محتشم الإسماعيلية في قلعة (سرتخت) يدعوه إلى الدخول في طاعته، امتثل لهذا الأمر، وقصـد هولاكو خان في صـحبة شـمس الدين كرت حيث قدم للخان جملة من الهدايا والتحف بعد أن قبل الأرض بين يديه، فتعطف هولاكو عليه وقبل تلك الهدايا ثم قال له:

وإنك نزلت من القلعة، وقبلت الخضـوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك، فلماذا لم تنزل معك سكان القلعة، وتحثهم على التسليم؛ فأجاب ناصر الدين: إن لهم ملكاً يدعى خورشاه، يأتمرون بأمره.

- هولاكو ينعم على ناصـر الدين بلوحة ذهبية ومرسـوم ينصـبه حاكماً على مدينة تون إلى أن توفي عام 655هـ.

- هولاكو بعد أن فرغ من هذه المهمة، صـــار ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصـــل إلى حدود (زاوه) بخراسان وخواف وهي مدينة كبيرة أهله ذات قرى وبساتين ومياه.

- هولاكو تعتل صحته فيترك الميدان لقواده حتى يشفى من مرضه.

- قواده بعد أن انتهوا من مهمتهم لحقوا به وسار الجميع إلى طوس ومنها إلى جفوشان.

- هولاكو من هناك يرسل رسالة إلى خورشاه يطلب إليه الخضوع والتسليم، ولم ينتظر الرد بل شرع في الهجوم.

- وفي سـنة 654هـــ قصـد خرقان وبسـطام، وشـرع هو وجنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى حتى تمت لهم الغلبة على أكثرها. ولم تستعص عليهم أول الأمر إلا قلعتا ميمون دز والموت، إذ طال حصارهم لهاتين القلعتين.

- هولاكو يرسـل رسـله مرة أخرى إلى قلعة ميمون دز حيث كان يقيم خورشـاه، وذلك لتهديده وتخويفه حتى يسارع إلى التسليم.

- الأصـدقاء الثلاثة: الخواجة نصـير الدين الطوسـي ورئيس الدولة وموفق الدولة كانوا يقيمون

مجبرين في قلعة (ميمون دز)، وكانوا قد سئموا الإقامة عند الإسماعيلية لما رأوه من أفعال خورشاه السيئة، ولما لمسوه من ظلمه وجوره فمالوا إلى هولاكو خان، وودوا لو وجدوا الخلاص على يده من هذا السجن الذي هم فيه محصورون، فبدأوا يتشاورون سراً، واتفقوا على أن يقدموا خورشاه بالتسليم، وعلى هذا صاروا يزينون له النزول على حكم هولاكو وعدم مقاومته، لأن في هذا نجاة له ولأسرته.

- هولاكو بعد أن رأى أن خورشـــاه يراوغه ويداوره، عقد العزم على فتح القلعة عنوة، مشـــدد الحصار عليها من جميع الجهات.

- هولاكو يتعذر عليه اقتحام قلعة خورشاه.

- هولاكو يستشير النبلاء والأمراء من المغول في استمرار الحصـار أو العدول عنه والعودة إلى قواعدهم، والانتظار حتى يحل الربيع.

- مستشـارو هولاكو يقولون له: إننا في وقت الشـتاء، وحيواناتنا نحيفة عجفاء والعلف منعدم وتجب المبادرة بنقل العلف من طرف الأرض أو حدود كرمان، والأفضل أن نعود إلى قواعدنا.

- بعض قواد هولاكو أصروا على الاستمرار في ضرب الحصار حول القلعة.

- هولاكو خان يرسل رسالة إلى خورشاه ملؤها التهديد والوعيد، يعرض فيها أنه إذا نزل من القلعة، وتخلى عن المقاومة، وتوجه إلى معسكر الخان، فإن تصرفه هذا سيكون سبباً في إنقاذ حياة طائفة كبيرة من الضـعفاء والمسـاكين، وأما إذا تلكأ، ولم يقدّم نفسـه خلال خمسـة أيام، فإن عليه أن يستعد لحرب ضروس.

- رسـالة هولاكو خان رسـالة كان لها أثرها البالغ في نفس خورشـاه، فاسـتشـار أركان دولته، واستقر الرأي على أن يرسل إلى هولاكو خان الخواجة نصير الدين الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة، يحملون التحف والطرائف الكثيرة، فوصـلوا إلى معسـكر هولاكو في 27 شـوال سنة 654هـ.

- ركن الدين خورشـــاه يجد أن الأمر قد خرج من يده، ولم تعد له طاقة على المقاومة، كما أن اليأس كان قد تطرق إلى نفوس رجاله المحاصـــرين، وفقدوا كل أمل في الصـــمود، فنزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها، وكان ذلك في يوم الأحد غرة ذي القعدة سـنة 654هـــ وسـلم نفسـه

لهولاكو مظهراً الخضوع والطاعة.

- هولاكو يتوجه بعدها إلى معقل الإسماعيلية في الموت، واستدعى ركن الدين خورشاه ليحث المدافعين على التسليم.

- قائد القلعة رفض الانصياع إلى نصائح خورشاه.

- هولاكو يصدر أمراً إلى جنوده بضرب الحصار حول القلعة، ثم شنوا هجوماً عاماً عليها استمر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أرسل هولاكو إلى المحاصرين منشوراً يؤمنهم على حياتهم إذا ما أسرعوا إلى التسليم.

- قائد القلعة يستجيب لنداء هولاكو وينزل من القلعة ويسلمها للقائد المغولي.

- المغول يصعدون إلى القلعة ويحطمون ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال.

- السكان يطلبون منهم مهلة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم وفي اليوم الرابع اقتحم الجنود القلعة وأعملوا فيها يد التخريب والتدمير بعد أن استولوا على الكنوز والأموال، كذلك وقعت في أيديهم المكتبة النفيسة التي تعب الإسماعيلية في إعدادها وصرفوا في ذلك سنوات عديدة. حتى طبقت شهرتها الآفاق، وكانت سبباً في نشر صيت تلك الجماعة.

- المؤرخ عطا ملك الجويني يستأذن (هولاكو خان) في أن يطلع على محتويات تلك المكتبة، ليبقي منها الصالح، ويحرق ما دون ذلك من الكتب التي تتناول عقائد الإسماعيلية الفاسدة.

- المؤرخ عطا ملك الجويني يستطيع إنقاذ مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات الرصد، ومن بين تلك الكتب اتي عثر عليها عطا ملك كتاب سركزشت سيدنا (أي سيرة سيدنا) الذي كان يشتمل على شرح أحوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده. وقد ضمن الجويني خلاصة هذا الكتاب في الجزء الثالث من مؤلفه (تأريخ جهانكشاري) محافظ بذلك على تأريخ هذه الجماعة من الضياع.

- هولاكو خان لما تأكد من صدق وإخلاص نصير الدين الطوسي ومرافقيه – ممن كانوا يقيمون مكرهين في قلاع الملاحدة – شملهم بعطفه، ورفع قدرهم، وألحقهم بخدمته، ثم أمر فأعطيت لهم الدواب اللازمة لحمل أسرهم وأمتعتهم وكل ما يتعلق بهم إلى معسكره، وصيّرهم من أتباعه وملازميه.

- هولاكو خان يعامل ركن الدين خورشاه معاملة حسنة، وينعم عليه ويمنحه فتاة مغولية ليتزوج منها، واختار له مدينة قزوين لتكون مكاناً لإقامته ولحفظ أمتعته وأمواله وليتخذها مكاناً لأتباعه.

- هولاكو خان يعامل ركن الدين خورشـــاه معاملة كريمة رغم مراوغة خورشـــاه ومقاومته للمغول مدة طويلة لأن هولاكو خان قطع العهد على نفسه لخورشاه بأن يؤمنه على حياته، ولم يشأ أن يتحلل من هذا العهد. ومن جهة أخرى لأن هولاكو كان يعرف جيداً أنه لا زالت هناك قلاع كثيرة تخص الإسماعيلية، موجودة في هذه الديار، وفي بلاد الشام، وهذه وتلك يمكن استخلاصها دون إراقة دماء، وذلك بتوجيه خورشـــاه ونفوذه باعتباره زعيمهم الأكبر، وإلا كان على هولاكو أن يصـــرف السنوات العديدة، فضلاً عن الجهود المضنية حتى يتيسر له فتح هذه القلاع الحصينة.

- سياسة هولاكو القائمة على التسامح مع خورشاه لم تدم طويلاً، إذ أرسله هولاكو إلى بلاط أخيه في منغوليا، فلما علم هذا الخان أن خورشاه في طريقه إليه خاطب أتباعه قائلاً:

لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثاً على الدابة التي يركبها؟! ثم أرسل من قبله شخصاً قضى عليه. وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أسرته وأقاربه من الرجال والنساء، ولم يستثنوا حتى الأطفال، وكان ذلك في موضـــع يقع ما بين أبهر وقزوين. وأغلب الظن أن هولاكو خان كان يريد أن يبدو إلى آخر لحظة محافظاً على عهده وميثاقه، فاتفق مع أخيه منكو على الخلاص من خورشاه بهذه الطريقة.

- اندحار طائفة الإســماعيلية كانت له رنة فرح وســرور عمت العالم الإســلامي رغم ما كان يعانيه من المغول، ورغم ما كان يتوقعه على أيديهم من أحداث أخرى جســـام، وما ذلك إلا لأن هذه الفرقة التي قاومت في القرن الســادس كل جهود ســلاطين الســلاجقة، واســتطاعت أن تفزع الخلفاء العباســيين وترهبهم كانت ســبباً من اســباب الفســاد المعنوي، والتفرق في العالم الإســلامي، فإذا كان هولاكو خان قد أبادها أخيراً، فإنما يكون قد أدى بذلك خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة.

يقول الجويني: حقاً!.. لقد كان هذا العمل مرهماً لجراح المســـلمين، وتداركاً للدين من الخلل، وإن الناس الذين يبقون من هذا العهد، يعرفون إلى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة، وإلى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم. وأن الشخص الذي كان على وفاق معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصــر، إنما كان فقط مدفوعاً بدافع الخوف منهم. أما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعاعهم. لقد كان كأساً طافحاً، وريحاً عاتية ولكنها أخمدت.

منظر – 17 –
ضعف الخلافة العباسية

ضعف الخلافة العباسية يُعزي إلى عدة أسباب منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك، وسوء معاملة هؤلاء الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان سبباً في انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال إفريقية، ومما كان سبباً أيضاً في ظهور الحركات الهدامة مثل حركة صاحب الزنج (255-270هـ) والقرامطة.

وكذلك ولاية العهد لأكثر من واحد، ونحن لا ننسى ما كان لذلك من أثر في قيام النزاع بين الأمين والمأمون، والعصبية في الجيش العباسي بين اليمنية والمضرية، وقد كان لها أثر كبير في ضعف الدولة العباسية في بلاد المغرب والأندلس. وغزوات البيزنطيين وتنافس الكبراء على الوزراء كانت من عوامل ضعف الخلافة العباسية أيضاً. ولا يمكن أن ننسى ما كان من ارتقاء خلفاء ضعاف عرش الخلافة من أمثال المقتدر (295-320هـ) الذي كان مسرفاً في وقت قلّ فيه دخل الدولة والذي ترك أمر الدولة للنساء.

وقد حاول الخليفة الراضي (322-329هـ) أن يخلص الدولة العباسية من الضعف فأنشأ منصب أمير الأمراء، ولكن محاولته هذه أتت بعكس ما كان يؤمل؛ بسبب تنافس الكبراء على هذا المنصب كما كان من قبلهم يتنافسون على الوزارة.

وكان من أثر التنافس على أمرة الأمراء بين الكبراء توجيه نظر الأجانب إلى العراق، فاستولى عليه الحمدانيون في مستهل شعبان سنة 330هـ ثم جاء بعدهم معز الدولة بن بويه (334هـ) وأسس دولة ظلت قائمة أكثر من مائة سنة (334-447هـ) تناوب السلطة فيها أحد عشر أميراً يطلق عليه الملك الرحيم. ولم تنته أيام بنى بويه في العراق إلا على يد طغر لبك السلجوقي الذي دخل بغداد وقبض على الملك الرحيم وأتباعه سنة 447هـ وبذلك بدأ عهد النفوذ السلجوقي في العراق الذي دام حتى سنة 551هـ.

اضمحلال السلاجقة وأسبابه:

ظل السلاجقة أصحاب الكلمة العليا في العراق طوال حكم طغر لبك (447-455هـ) وألب أرسلان (465هـ) وملك شاه (465-485هـ) وبركيا روق بن ملك شاه (485-498هـ) ومحمد بن ملك شاه (498-511هـ) وهي مدة لا تقل عن ثلاث وستين سنة تمتع فيها العراق بالسلام والطمأنينة وقلت فيها المنازعات بين أهل السنة والشيعة بعد أن كانت لا تكاد تنقطع في أي عهد من العهود.

- الاضمحلال بدأ يدب في جسم السلطنة السلجوقية في العراق منذ ارتقى عرشها محمود بن ملك شاه سنة 511هـ ثم أخذ يتغلغل عظيماً في عهد خلفائه حتى زال نفوذهم عن العراق في عهد محمد بن محمود سنة 511هـ.

ويعزى ضعف السلاجقة إلى عدة عوامل منها:

ضعف شخصية السلاطين الذين ارتقوا عرش السلطنة منذ أيام محمود بن ملك شاه، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي في ذلك العهد، وظهور دول الأتابكة، وظهور طائفة الإسماعيلية.

انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجقوقي:

لم يكن أفراد البيت السلجوقي متضامنين فيما بينهم، بل كان انشقاق بينهم متفشياً. وقد كان الأمراء الذين يخرجون على السلاطين يعرفون ما لهذا الشقاق من أثر، ولذلك تجدهم يحاولون توسيع الهوة وزيادة شقة الخلاف، وكثيراً ما نجدهم يستعملون أحد أفراد البيت السلجوقي إلى صفوفهم ويمنونه بالسلطة فيكون لهم من وراء ذلك كثرة عود أعوانهم والفت في عضد أعوان السلطان. وقد حدث ذلك عند النزاع بين قره سنقر والسلطان مسعود، إذ استدعى قره سنقر الملك سلجوق بن محمد ووعده بأن يمضي معه إلى فارس ويستخلصها له، كما أخذ أيضاً عندما قام النزاع بين عباس ووزابه من جهة وبين السلطان مسعود من جهة أخرى، فقد استدعيا سليمان بن محمد أخا السلطان وأغرياه وواعده بالسلطنة، ولما اتفق بوازبه مع جاولي الجاندرار على الخروج على مسعود بعد ذلك تعهد له بأمر يأتيه بالملك محمد بن محمود، وأخيراً لم ينس بوزابه حين سار للأخذ بثأر شريكيه ابن طغا برك وعباس، أن يأخذ معه محمد وملك شاه ابني السلطان محمود إلى أصبهان حيث توجهما ثم سار إلى همذان ليلاقي حتفه.

ظهور دولة الأتابكة:

ذكر ابن خلكان أن: الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك، وأن الأتا بالتركية هو الأب وبك هو الأمير، فأتابك مركب من هذين المعنيين، ومعناه أبو الأمير. كما ذكر ابن الأثير أن السلطان ملك شاه خلع على نظام الملك ولقبه ألقاباً من جملتها أتاك ومعناه الأمير الوالد.

وكان سلاطين السلاجقة يعينون أولادهم وهم صغار على أجزاء من أملاكهم ويرسلون معهم رجالاً يكون لهم بمثابة المربين يديرون الأمور باسمهم ويطلقون عليهم اسم الأتابكة. وكان هذا النظام ممكناً عندما كان رئيس الدولة رجلاً قوياً مثل ملك شاه له هيبة القلوب، ولكن عندما ضعف السلاطين وضاعت هيبتهم كان هذا النظام سبباً في إضعاف الدولة السلجقوقية، لأن كثيراً من الجهات انفصلت عنها نتيجة لاستقلال الأتابكة بها وعملهم على تثبيت حكم أمرائهم فيها.

وقد ظهرت بهذه الطريقة الدولة البورية (497-549هـ) التي أسسها طغلكين الذي عينه تتش أتابكا لابنه دوقاق في دمشق ولكنه لم يلبث أن اتخذها لنفسه، والتي ظل حكمها في أبنائه من بعده حتى سنة 549هـ حين انتزعها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من الفرنجة الذين كانوا قد أخذوها من مجير الدين أرتق آخر أفراد الدولة البورية في نفس السنة والتي امتد نفوذها في دمشق وحماة ردحاً من الزمن. كما ظهرت أيضاً الدولة الأرتقية (495-712هـ) التي أسسها أرتق بن أكسب، والتي امتد نفوذها في حصن كيفا وماردين وأمد وخدتبرت وميافرقين، بل وحلب والقدس زمناً طويلاً. وكذلك دولة دانشمد (490-650هـ) التي أسسها كمشتكين بن الدانشند في كباروكيا، والتي شملت سيواس وقيصرية وملطية، والتي ظلت حتى ضم أملاكها سلاجقة الروم إليهم.

ودولة الأتابك عماد الدين زنكي (521-648هـ) التي بدأت في الموصل ثم اتسعت حتى شملت جزءاً عظيماً من الجزيرة الفراتية والشام. ودولة أتابكة أذربيجان (531-623هـ) من أفراد أسرة أيلدكز الذي أسسها وحكمها بعد أن كان رجلاً عادياً نشأ في بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخي السلطان الأرملة، ثمخ خلفه عليها أولاده وأحفاده. والدولة الغورية التي بدأت في ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت إلى غزنة وظلت قائمة حتى قضى عليها محمد خوارزم شاه. ودولة شاهات خوارزم نفسها التي أسسها أنو شتجين أحد مماليك السلطان ملك شاه بعد أن عينه حاكماً عليها، ودخل في حوزتها العراق العجمي وفار س وخراسان وما وراء النهر، والتي

ظلت قائمة حتى قضـــى عليها المغول في عهد أجطاي بانتصـــارهم على جلال الدين منكبرتي ابن خوارزم شاه وموت جلال الدين مشرداً سنة 628هـــ فكانت مدتها حوالي قرنين من الزمان (470-628هـــ). والدولة السلغرية التي تنسب إلى سلغر رئيس جماعة من التركمان نزحوا إلى خراسان ثم انضموا إلى جغر لبك الذي جعل سلغر من ضمن حجابه، وتمكن واحد من نسل سلغر هو سنقر بن مودود من حكم فارس سنة 543هـ، وتأسيس دولة لأسرته فيها ظلت أكثر من قرن (543-686هـ). وقد دفع بعض أمرائها الجزية للدولة الخوارزمية كما خضع آخرون للمغول عند ظهورهم.

ظهور طائفة الإسماعيلية (الحشيشية):

أول ما ظهرت دعوة الإسماعيلية في بلدة ساوه في أيام السلطان ملك شاه السلجوقي.

وقد سميت بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا ينادون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، إذ كان لجعفر أربعة أولاد أكبرهم إسماعيل الذي كان حفيداً للحسن من جهة أمه، وقد عهد إليه أبوه بالإمامة من بعده. ولكنه كان يعاقر الخمر، فأنكر عليه جعفر ذلك وقال: إن إسماعيل ليس ابني، لكنه شيطان ظهر في صورته.

ونقلوا عنه أيضاً «بدا لله في أمر إسماعيل». ونص على أن يكون ابنه الآخر موسى إماماً من بعده، ولكن المؤيدين لإسماعيل أصروا على أن الأصل هو النص الأول، ولا يجوز البداء على الله. وكل من يعرف باطن الشـــريعة، لا يعاقب إذا ما أغفل الظاهر، وكل ما يأتيه الإمام من قول أو فعل فهو حق، إذ لم يتطرق خلل أو نقصان إلى إسماعيل من جراء شرب الخمر، فسموا بالإسماعيلية وتميزوا بهذا الاســم عن بقية الشـيعة. كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون، وكانوا يقولون: إن للشـــريعة باطناً وظاهراً، والأصـــل هو الباطن، فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع، فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع، فلا خلل يحدث إذا استهانوا بالظاهر.

واشتهر الإسماعيلية عند خصومهم باسم الملاحدة لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين، ودعموا آراءهم بالأقوال التي وصـــلت إليهم عن فلاســـفة اليونان. كما اقتبســـوا بعض المبادئ من مذاهب المجوس، كذلك أطلق عليهم لفظ الحشاشين أو الحشيشية لأنهم كانوا يستعينون بالحشيش في الترويج لمذهبهم وفي حوادث الاغتيال السياسي. وكان أول ظهور لهم في الشمال الغربي من إيران.

وكان جميع أفراد هذه الطائفة متفقين على أن الزمان لا يخلو من إمام يمكن به معرفة الله، ولا

سبيل إلى معرفة الله بدون معرفة الإمام، وإلى هذا الإمام أشار الرسل في كافة العصور، وكانوا يعتقدون في المهدي باعتباره إماماً ثائراً ينتظر اللحظة التي يظهر فيها، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

ولقد تحقق للدعوة الإسماعيلية آخر الأمر غرضها بقيام الدولة الفاطمية بشمال إفريقية سنة 297هـ وظهور الإمام المستتر، ثم انتقال مر الخلافة إلى القاهرة سنة 363هـ، وما تلا ذلك من اتساع أملاك الفاطميين، وامتداد نفوذهم إلى الجهات التي كان يسيطر عليها العباسيون وتهديدهم بغداد.

وما أن أقام الفاطميون دولتهم، حتى أخذوا يروجون للمذهب الشيعي في الشرق الإسلامي، واضعين نصب أعينهم إضعاف الخلافة العباسية، تمهيداً للقضاء عليها. ولقد كان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أثر فعال في نشر مذهب الإسماعيلية في إيران، إذ نجح الحسن بن الصباح في تكوين قوة هائلة عجز عن مقاومتها أقوى الحكام والسلاطين.

وقد ساعد على سرعة انتشار الإسماعيلية في طول البلاد وعرضها إلغاء ملك شاه لنظام أصحاب الأخبار ثم قيام النزاع بعد موته بين ابنيه بركيا روق ومحمود. وقد تمكن الإسماعيلية في أيام بركيا روق من نشر دعوتهم في أصبهان ثم الاستيلاء علهيا وذلك حين كان يرأسهم أحمد بن عطاش، كما أنهم في عهد رئاسة تلميذه الحسن بن الصباح استولوا على الموت وعلى كثير من القلاع الأخرى مثل قهستان وزوزن وتون وغيرها من أمثال خالنجان وآمل وكردكوه، فلما مات بركيا روق وتولى السلطنة أخوه محمد بن ملك شاه رأى فيهم خطراً شديداً على نفوذه، وسير جيوشه لمحاربتهم وظل يكافحهم مكافحة شديدة ولكنه لم يعش طويلاً حتى يقضي عليهم قضاءاً تاماً.

هذا وقد كان ظهور هؤلاء الإسماعيلية سبباً في إضعاف الدولة السلجوقية ليس فقط باستيلائهم على البلاد التي سبقت الإشارة إليها وسلخها عن أملاك الدولة السلجقوية أو باضطرارهم السلاطين إلى تسيير الجيوش إليها، بل لأنهم زعزعوا الأمن في جميع أرجاء الإمبراطورية السلجوقية كما أدخلوا الرعب في قلوب الأهليين.

أضف إلى ذلك أن الإسماعيلية كانوا سنداً لمن تسلطوا على البلاد في أيام سلاطين السلاجقة الضعاف مثل أبي إسحاق الدركزيني في أيام السلطان محمود بن محمد بن ملك شاه، ومثل خاصبك

بن بلنكري في أيام السلطان مسعود. فعاونوهم في سياستهم التخريبية كما أزالوا أعدائهم من الوجود. وقد بلغ من اعتماد هؤلاء المستبدين على مساعدة الإسماعيلية لهم في عدوانهم أن قال أبو إسحاق الدركزيني للسلطان معزل بن محمد الذي خلف محموداً على السلطنة. والذي وزر له الدركزيني وقتاً قصيراً حين سأله عن الجفر الذي يلزم للقضاء على ثورة أخيه مسعود: لا تبال ولا تخطر خاطراً بالبال، فإني قد ندبت جماعة من الحشيشية تقتل أعدائك.

أن هؤلاء الإسماعيلية بقتلهم كثيراً من الشخصيات البارزة في أيام السلاجقة حرموا الدولة من معاونتهم. وليس هناك من ينكر ما خسرته الدولة بقتل أمثال نظام الملك وزير ملك شاه وجمال الملك السمير مي وزير محمود بن محمد بن ملك شاه، وفخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر صاحب الأمر في خراسان.

حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين لم تكن حالة الخلفاء العباسيين في أيام السلاجقة تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه. ذلك لأنه بينما كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون في يدهم كل السلطة، كان نواب السلاجقة العسكريين يحكمون العراق ويستأثرون بالنفوذ فيه.

وقد بلغ من عجز الخلفاء عن تدبير الأمور في ذلك الوقت وضآلة أثرهم أن الناس في بغداد قاموا في أيام الخليفة القائم سنة 465هـ وأنكروا كثرة المغنيات والخمور، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي، فثار به الجندي الذي كانت عنده فضربه فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك. ولم يجرؤ أن يتخذ قراراً بهذا الشأن. أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين ظلوا يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها لهم عمال من بينهم الوزير وكاتب الإنشاء على ما كان عليه الأمر في أيام بني بويه، ولم يكن لهم من الأمر سوى ذكر اسمهم في الخطبة، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها.

على أن هذا لا يحجب عن أنظارنا تلك الحقيقة الواضحة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بني بويه لهم.

والأمثلة على احترام السلاجقة للخلفاء العباسيين وحسن معاملتهم لهم كثيرة. منها أن طغر لبك

عندما عاد إلى بغداد مرة أخرى سنة 455هـ قادماً من أرمينية وعلم أن الخليفة القائم يريد أن يستقبله بنفسه، أعفاه من ذلك واكتفى بأن يستقبله وزيره ابن جهير.

ومنها أن السلطان ملك شاه عندما وفد عليه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي سنة 475هـ يحمل رسالة من قبل الخليفة المقتدى تتضمن شكواه من العميد أبي الفتح بن الليث عميد العراق، أكرمه وأجابه إلى جميع ما التمسه، فأهين العميد ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة. ومنها أن السلطان ملك شاه أيضاً عندما ذهب إلى بغداد سنة 479هـ في أيام الخليفة المقتدى طلب أن يقبل يد الخليفة، ولكن هذا لم يجبه إلى ذلك، فسأل أن يقبل خاتمه، ولما أعطاه إياه قبله ثم وضعه على عينيه. كما أنه أمر أن يزداد في إقطاع وكلاء الخليفة نهر برزى من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار معاملة بغداد.

وإن أقوى العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة لتتجلى فيما كانوا يتبادلونه من الخلع والتفويض فقد كان الخليفة عند ارتقائه عرش الخلافة يرسل إلى السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا.

كما كان السلطان السلجوقي بعد أن يتولى السلطنة يلتمس التفويض من الخليفة العباسي، كما تظهر تلك العلاقات أيضاً فيما كان بين البيتين السلجوقي والعباسي من الارتباط بأواصر الزواج، وأن المؤرخين ليذكرون لنا أمثلة كثيرة لذلك، فهذا طغر لبك قد تزوج سنة 454هـ ابنة الخليفة القائم، وذاك الخليفة القائمة نفسه قد زوج ابنة المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان سنة 465هـ، كما أن الخليفة المستظهر ابن المقتدى تزوج من ابنة السلطان ملك شاه سنة 502هـ، وتزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت محمد بن ملك شاه وأخت السلطان مسعود.

أن السبب فيما كان هناك من علاقات طيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين يرجع إلى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني الذي كان الخليفة العباسي رئيسه الأعلى، وأن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لا لمركزه السياسي، بل لأنه خليفة الله.

ورغم طيب العلاقات وحسن التفاهم وتبادل الاحترام بين السلاجقة والخلفاء العباسيين، إلا أنه في الوقت نفسه لا يحول دون ذكر ما حدث من سوء تفاهم بين الطرفين في بعض الأحيان وتعدي السلاطين على الخلفاء، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما غضب السلطان ملك شاه على الخليفة المقتدى

وأمره بالخروج من بغداد والذهاب إلى البصـرة بسـبب تدخله في شـؤون الحكم أو بسـبب رغبة ملك شـاه من إسـناد الخلافة إلى جعفر بن الخليفة المقتدى من أخته. كما أنه لم يمنع اعتداء السـلاجقة على الخلفاء في بعض الأوقات. وقد اتخذ السلاجقة لأنفسهم ظل الله في الأرض الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسـيون لأنفسـهم في الماضـي، وأنهم أخذوا من الخليفة المسـترشـد بردة الرسـول التي كان الخلفاء يلبسونها عند توليهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية.

غير أن مثل هذه الأعمال لم تصـدر من السـلاجقة إلا نادراً بل أن الأمثلة المذكورة قد تكون كل ما ذكر في هذه الناحية.

ولم يكن احترام الخلفاء العباسـيين في ذلك الوقت مقصـوراً على السـلاجقة، بل أن غيرهم من الأمراء الذين ينظرون إلى الخليفة العباسي كواسطة لتثبت عروشهم وإكساب حكمهم صيغة شرعية.

إن معاملة السـلاجقة للعباسـيين بالحسـنى أعادت إلى أنفسـهم الأمل وجعلتهم يفكرون في إعادة مجد الخلافة العباسية السالف.

منظر – 18 –

أيام العباسيين الأخيرة في العراق

1- الحالة الداخلية:

بعد أن تمكن المقتفي لأمر الله من صـــد الســـلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملك شـــاه السلجوقي عن بغداد سنة 551هـــ، حكم مستقلاً في العراق حتى سنة 555هـــ. وبعد موته ارتقى عرش الخلافة المستنجد (555-566هـ) عم المستضيء (566-575هـ) ثم الناصر (575-622هـ) ثم الظاهر (622-623هــ) ثم المستنصر (623-641هــ) وقد تمكنوا جميعاً من الاحتفاظ باستقلال العراق أكثر من مائة سـنة. ولكن أيامهم لم تكن أيام يسـر وطمأنينة للعراق بل كانت على العكس أيام فقر واضــطراب. كما أن الخلل والضــعف لم يكن مقصــوراً على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل شملها جميعاً.

2- الناحية السياسية:

كان معظم خلفاء هذه الفترة ضــعاف الشــخصــية ليس لديهم دراية بشــؤون الحكم. وقد مدح مؤرخو العرب أكثر من واحد من بينهم، ولكنهم لم يزيدوا عن القول بتقواهم وورعهم، ولم يذكروا أعمالاً لهم تستحق الذكر. وأن كثيرين من هؤلاء الخلفاء، لم يزد الواحد منهم عن أن يكون مثل الشيخ الأجوف.

وقد ذكر بنيامين التطيلي وضعاً شاملاً لحياة الخليفة العباسي وأفراد أسرته عندما زار بغداد في أيام المسـتنجد قائلاً: ويبلغ اتسـاع قصـر الخليفة في بغداد ثلاثة أميال، وتوجد في هذا القصـر حديقة واسـعة بها كل أنواع الشـجر سـواء منه النافع أو المسـتعمل للزينة وكل أنواع الوحوش. كما توجد به أيضــــاً بركة يمتد إليها الماء من نهر دجلة. وفي أي وقت يحس الخليفة برغبته في المتعة والتريض تجهز له الطيور والوحوش والأسماك. وهذا العباسي العظيم يعطف على اليهود ويتخذ من بينهم كثيراً من عماله. كما يفهم كل اللغات ويعلم القانون الموســـوي علماً تاماً ويقرأ اللغة العبرية وبكتبها، ولا يطيب له إلا ما يحصـــل عليه بكد يده؛ ولذلك يصـــفح الأغطية ويســـمها بخاتمه ثم يبيعها عماله في

السوق العامة للأغنياء ويقتني بثمنها الأشياء التي تلزمه. والخليفة رجل فاضل موثوق به طيب القلب لا يضمر شراً لأحد، ولكنه يحتجب عادة عن المسلمين. ويحب الحجاج الذين يفدون من الأقطار البعيدة عند مرورهم ببغداد في طريقهم إلى مكة أن يحظوا برؤيته فينادونه: سيدنا يا نور المسلمين ومجد الدين أرسنا نور وجهك، ولكنه لا يعير كلماتهم اهتماماً. وبعد أن يتقدم عماله ويقولون له أيها السيد أشمل هؤلاء الناس بسلامك لأنهم أتوا من بلاد بعيدة، ويحبون أن يأووا إلى ظل عظمتك، يقوم ويضع أطراف ردائه خارج الشباك فيلثمها الحجاج بشغف ثم يقول لهم أحد الكبراء: انصرفوا سالمين فسيدنا نور المسلمين مغتبط كل الاغتباط ويبار لكم. ولما كانوا يعتبرون هذا الأمير ممثلاً لنبيهم، فإنهم يسيرون في طريقهم يملؤهم الفرح بتلك الكلمات التي وجهها إليهم هذا الكبير ناقلاً رسالة السلام.

ومن عادة كل أخوة الخليفة وأفراد أسرته أن يلثموا ملابسه، كما أن كل واحد منهم يملك قصراً داخل قصر الخليفة؛ ولكنهم جميعاً مقيدون بسلاسل من جديد ويقوم ضابط على كل مسكن ليحول دون ثورتهم ضد الرئيس الأعظم. وقد أتخذ الخليفة هذه الاحتياطات بعد أن ثار أخوته عليه واختاروا واحاً من بينهم بدلاً منه، ملكي يمنع حدوث مثل هذا في المستقبل قرر أن يقيد كل أعضاء أسرته بالسلاسل حتى يكبت ميولهم الثورية. ومع ذلك فإن كل واحد منهم يقيم في قصره معززاً كما أنهم يملكون القرى والمدن ويجمع مديرو شؤونهم إيجارها كما يأكلون ويشربون ويعيشون حياة كلها لهو. ويحوي قصر الخليفة مباني وأعمدة من الذهب والفضة وكنوزاً من الأحجار الكريمة. ويترك الخليفة قصره مرة كل سنة وذلك في وقت العيد المسمى (رمضان)؛ فيجمع زواراً كثيرون من الجهات البعيدة ليحظوا برؤية وجهه، بينما يعلو صهوة بغلة مرتدياً الملابس الرسمية المصنوعة من نسيج الذهب والفضة وواضعاً عمامة مزينة بأحجار كريمة لا تقوم بمال فوقها قناع أسود كأنه رمز التواضع. فكأنه يقول انظروا إلى هذه العظمة الدنيوية ستصير إلى الظلام يوم الممات. وتحف به حاشية كبيرة العدد من الأشراف يلبسون الملابس الفخمة ويركبون الخيول والأمراء الذين جاءوا من بلاد العرب وميديا وفارس بل ومن بلاد التبت التي تبعد ثلاثة شهور عن بلاد العرب. ويتقدم هذا الموكب من القصر إلى المسجد الواقع عند باب البصرة وهو المسجد الجامع وهؤلاء جميعاً الذين يسيرون في موكب الخليفة، سواء أكانوا من الرجال أم النساء يلبسون الحرير.

أما في الطرق والميادين فيكون الغناء والطرب وترقص الجماعات أمام الأمير العظيم الذي

يسمى خليفة وتحييه بقولها: باركك الله يا سيدنا ومليكنا. بينما هو يرد تحيتها بلثم ردائه ولمسه بيده. ثم يسير الموكب إلى ساحة المسجد ويعتلي الخليفة منبراً خشبياً ويشرح للناس قوانينهم، وينهض العلماء المسلمون ويصلون من أجله، ويطرون عطفه العظيم ورحمته ويجيبهم المجتمعون بقولهم: آمين. وبعد ذلك يباركهم الخليفة ويذبح جملاً معداً لهذا الغرض وهو بمثابة قربان يوزع على الأشراف الذين يرسلون أجزاء منه إلى أصدقائهم الذين يشتهون أن يذوقوا اللحم الذي ذبحه أميرهم المقدس.. ثم يترك المسجد ويعود وحده إلى قصره على شواطئ دجلة يصحبه الأشراف في قوارب حتى يدخله. ولا يعود الخليفة من الطريق الذي أتى منه أبداً. كما أن السبيل الذي سلكه على شاطئ النهر يوضع تحت الحراسة الدقيقة طول العام حتى لا يسلكه غيره. ولا يترك الخليفة قصره مرة أخرى طول العام.

إن هذا الوصف على الرغم مما تخلله من الأخطاء بسبب جهل بنيامين التطيلي بتعاليم الدين الإسلامي يرينا كيف كان الخلفاء العباسيون في ذلك الوقت يقضون حياتهم في اللهو واللعب، كما يرينا تمسكهم بأهداب الرفعة وميلهم إلى الظهور أمام الناس بمظهر القدسية، وأنهم كانوا يقضون حياتهم خائفين على مراكزهم أن ينتزعها منهم أحد أفراد أسرتهم فيصبحون بعيدين عن الناس وعن إدارة شؤون الدولة.

والواقع أن هؤلاء الخلفاء جميعاً كانوا ضعافاً ولم يستفد العراق من حكمهم كثيراً أو قليلاً، بل أن حكمهم جرّ عليه الويل. وإذا كان الناصر قد شذ عنهم بشخصيته القوية ومطامعه الكبيرة ونشاطه الجم وميله إلى العمل، فإنه لم يكن لأعماله من الأثر ما يختلف عما كان لأعمال الآخرين من آثار بل إن أيامه لتعد أسوأ الأيام في العراق وذلك لأن قوته كان يشوبها الظلم والتجبر فكان يثقل كاهل الناس بالضرائب والمكوس، كما كان يشوبها الغرور وليس أدل على ذلك من العلم بأنه أراد أن يحيط نفسه بهالة من السمو فابتعد عن الناس كما أدعى العلم بالغيب، وأن المؤرخين ليذكرون لنا كثيراً من أخبار إدعاءاته، فمن ذلك ما ذكره السيوطي من أن رسول صاحب مازندران دخل بغداد وكانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل.. فخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب وكذلك ما ذكره من أن رسول خوارزم شاه أتى بغداد برسالة مخفية (سرية) وكتاب مختوم، فقيل له أرجع فقد عرفنا ما جئت به.

وأيضـاً ما ذكره من أن رجلاً أتى ببيغاء تقرأ (قل هو الله أحد) تحفة للخليفة من الهند فأصـبحت ميتة وأصـــبح حيران (هكذا) فجاءه فراش يطلب منه البيغاء فبكى وقال: الليلة ماتت، فقال: قد عرفنا هالتها ميتة. وقال: كم كان ظنك أن يعطيك الخليفة؟ قال: خمســـمائة دينار، خذها فقد أرســـلها إليك الخليفة فأنه أعلم بمالك منك منذ أن خرجت من الهند. ولم يكن لأي واحد من خلفاء هذه الفترة يداً في إدارة شـؤون البلاد؛ لأنهم كانوا يعيشـون في قصـورهم الواسـعة ولا يظهرون للناس إلا نادراً. وقد كانت الحكومة في زمنهم في أيدي غلمان القصر وعلى رأسهم أستاذ دار الخليفة يحركها كيف يشاء. وتمتاز هذه الفترة على وجه العموم وبغير استثناء بازدياد سلطة أساتذة الدار. ففي أولها تمكن عضد الدولة أبو الفرج ابن رئيس الرؤســاء أســتاذ دار المســتنجد من تدبير مؤامرة ذهب الخليفة ضــحيتها وذلك حين خاف بطشه. هذا إلى أنه بعد ذلك أحضر ابن الخليفة المقتول ووضعه على عرش الخلافة ولقبه المستضـيء وذلك بعد أن اشترط عليه شروطاً قبلها، فكأنه تمكن من التخلص من خليفة ووضع آخر مكانه ثم وضـع لمن أجلسـه على العرش السياسـة التي يسير عليها. وليس بعد هذه السلطة أمل لمؤمل.

وفي أيام الناصر كان نفوذ أستاذ الدار لا يزال كبيراً أيضـاً؛ بدليل ما ذكره ابن جبير في رحلته بعد زيارته لبغداد سنة 580هـــ حيث قال: إن أستاذ الدار قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد وأبيه وعلى جميع من تضـــمنه الحرمة الخلاقية. وكان يُدعى له إثر الدعاء للخليفة. وقد بلغ من ازدياد سلطة أساتذة الدار أن طغوا على الوزراء فلم نعد نسمع عنهم شيئاً. ونحن لا نكاد نرى بعد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد وزيراً واسع السلطان مسموع الكلمة. وقد ذكر ابن جبير في رحلته أيضـــاً أنه وجد في بغداد نائب وزارة ولم يقل أنه وجد وزيراً. وفي هذا ما يكفي للدلالة على أن الوزير وإن كان موجوداً إلا أنه كان لا يكاد يحس بوجود إنسان.

وكان من اثر ضـــعف الخلفاء في هذه الفترة وتقلص ســلطة الوزراء أمام تيار غلمان القصـــر وأســاتذة الدار الجارف أن اعتلت الإدارة في العراق وبدأ العامة يحسـون بضـعف الحكومة وعجزها عن تسـيير دفة البلاد، ولذلك نجدهم يسـتهترون بها فتعم الفتن وتكثر الاضـطرابات فيما بينهم. وإننا لنعجب حين يذكر لنا ابن الأثير عند كلامه على سنة 601هـــ أن ثلاث فتن وقعت في بغداد فيما لا يتجاوز الشـهر بين أهالي المحلات المختلفة، ثم لا يلبث عجباً أن السبب في وقوع اثنتين منها هو أن أهل محلة من المحلات قتلوا سبعاً وأرادوا أن يمروا في المحلة الأ خرى فاشتبك بهم أهلها، وأن الفتنة

الثالثة كان السبب فيها أن رجلين من محلتين مختلفتين إختصما وتوعد كل منهما صاحبه فاجتمع أهل المحتلين واقتتلوا. والأدهى من ذلك وأمر هو ما ذكره من أن حكومة الخلفاء كانت تتدخل في كل هذه الفتن، وأحياناً تطفئها بعد أن يناوئها الأهلون وأحياناً تتركها حتى تهدأ من تلقاء نفسها.

الناحية الحربية

لم تكن الناحية الحربية خيراً من الناحية السياسية. فقد أخذ جيش الخلفاء العباسيين يفقد شهرته منذ تسرب الضعف إلى جسم الدولة العباسية. وكانت أيام بني بويه والسلاجقة في بغداد أيام انحطاط إن لم تكن أيم زوال لهذا الجيش، لأنه لم يكن من مصـــلحة هؤلاء الأجانب بقاء جيش يناوئهم النفوذ وقد يطردهم في يوم من الأيام حين يجد في نفسه القدرة على التغلب عليهم.

وعلى الرغم من أن هذا الجيش بدأ يزداد عدداً وعدة منذ أيام الخليف المقتفي لأمر الله، فإنه لم يبلغ الدرجة التي كان عليها في أيام العباســيين الأول، ولم يزد عن أن يكون قوة ثانوية ليس في إمكانها أن تلعب دوراً مهماً في الحوادث الجسام. حقيقة أن خلفاء تلك الفترة استعملوا هذا الجيش في أمور عدة. فالمقتفي لأمر الله تمكن بواســطته من صــد محمد بن محمود بن محمد بن ملك شــاه السلجوقي عن بغداد سنة 551هـ وحقق بذلك استقلال العراق وخلص الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب بعد أن ظلت خاضعة لهم نحو الأربعة قرون. وأن المستنجد تمكن بواسطته من القضاء على بني أسد أصحاب الحملة المزيدية حين رآهم يعيثون في بلاده فساداً. إلا أن هذه الأعمال كانت ثانوية أيضاً، فقد كان السلاجقة حين صدهم المقتفي لأمر الله قد وصلوا إلى أشد درجات الضعف، هذا ونحن نعلم أن جيوش الســلاجقة هزمت جيوش الخلافة بعد ذلك في أيام الخليفة الناصــر، إذ أن هذا الخليفة عندما رأى ازدياد نفوذ طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل جهز عسكراً كثيفاً سنة 485هـ وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ثم سيرهم لمحاربته ولكنه هزمهم قرب همذان. كما أن بني أسـد الذين انتصــر عليهم الجيش العباســي أيام المســتنجد لم يزد أمرهم عن أن يكونوا قبائل بدوية لا يربطها نظام ولا يجمعها حكم.

لقد كان هذا الجيش قوة ثانوية لا أكثر ولا أقل حين نراه في أيام الخليفة الناصــر يظهر العجز والقصــور أمام جيوش محمد خوارزم شــاه. فقد أرســله بقيادة وزيره ابن القصــاب إلى خوزســتان فاستولى عليها كما استولى على بعض مدن في فارس، ولكنه حين وصلت جيوش محمد خوارزم شاه انسحب منها وولى الأدبار؛ ولذلك كان الناصر يتحاشى ملاقاة جيوش محمد خوارزم شاه بعد ذلك.

ويضــاف إلى ذلك أن الخليفة المســتنصــر كان يلجأ إلى الأمراء المسـلمين يطلب معونتهم حين

تهاجم حدود بلاده جيوش التتار.

وأننا لنعلم أن الأيوبيين كانوا يرسلون إليه فرقاً من جيوشهم، كما كانوا يستخدمون له جنداً مرتزقة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا لأن الخليفة كان يؤمن بضعف جيشه أمام تلك الغارات القوية من تلك الجيوش العظيمة.

الناحية الطائفية

كان خلفاء تلك الفترة كغيرهم من الخلفاء العباسيين يعتنقون المذهب السني؛ وذلك نجدهم يتخذون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة أهل السنة.

هذا إلى أنهم كانوا ينشؤون لهم المدارس والربط والمارستانات والمساجد. وقد ذكروا أن مدارسهم في بغداد بلغت الثلاثين في أيام الناصر. ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن الخلفاء كانوا يحضرون مجالس الوعظ التي جرى هؤلاء على إقامتها في ذلك الوقت. ويذكر ابن جبير في رحلته أن الخليفة الناصر جعل الشيخ جمال الدين أبا الفضائل ابن علي الجوزي، أحد علمائهم يقيم مجلسه في ساحة قصر الخليفة ومناظره مشرفة عليه حتى يسمعه، وكان يفرش هذا المكان بالحصر ليحضره العامة.

أما الشيعة فإنهم وإن لم يكونوا في ذلك الوقت موضع استبداد أو ظلم من الخلفاء؛ إلا أنهم كانوا في مكانة أدنى من مكانة أهل السنة، ولم يكن الخلفاء يتخذون منهم وزراء أو أعواناً، وقد حدث أن الخليفة الناصر – وكان يتشيع – اتخذ رجلاً من الشيعة هو نصير الدين العلوي سنة 604هـ بعد ان القصاب وزيراً له فغضب أهل السنة وكثرت أقوالهم فيه حتى اضطر إلى عزله، ومن أقوالهم هذه الأبيات:

ألا مبلغ عني الخليفة أحمدا توق وقيت السوء ما أنت صالح

وزيرك هذا بين أمرين فيهما فعالك يا خير البرية ضائع

فإن كان حقاً من سلالة أحمد فهذا وزير في الخلافة طامع

وإن كان فيما يدعي غير صادق فأضيع ما كانت لديه الضائع

وقد كان لسياسة الخلفاء هذه إزاء الطائفتين أثرها السيء، لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنة ويحقدون عليهم تمتعهم بالمراكز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء، ولذلك كانت المعارك كثيراً ما تقوم بين الفريقين فيقوض النظام ويضطرب الأمن.

وكان للمسيحيين في بغداد مركز ثابت، كما كان الخلفاء العباسيون يعاملونهم معاملة حسنة. وقد سمحوا البطريق النسطوريين منهم بالإقامة في بغداد، كما سمحوا لهم جميعاً بإقامة الكنائس والأديرة ومزاولة طقوسهم الدينية. وكان للمسيحيين في بغداد الغربية أديرة كثيرة منها دير العذارى في حي الكرخ ودير درتا وهو يحاذي باب الشماسية راكباً على دجلة ودير القباب شمال حي الزبيرية ودير أستموني وهو بقطر بل شمال المدينة المستديرة ودير مديان أو دير سرجيوس على قناة الكرخ ودير الثعالب بقرب قبر معروف الكرخي ودير الجاثليق بقرب دير الثعالب.

وكانت توحد في بغداد الشرقية كنيستان إحداهما للنسطوريين والأخرى لليعقوبيين.

وكان للنسطوريين أيضاً دير الروم ويحيط به حي النصارى الذي كان يقع إلى الشمال من قناة المهدي عندما كانت تسير غرباً لتلتقي بقناة السور في حي الشماسية، كما أن لهم ديرين خارج باب الشماسية، هما دير درمالس ودير سمالو وشمالها دير ساير ودير مارجرجس. أما في بغداد الجديدة فكان لهم دير الرندورد بقرب باب الأزج.

وعندما كتب ياقوت كتابه البلدان، كان كثير من هذه الأديرة قد تهدم وأصبح أماكن نزهة يذهب إليها أهل بغداد لقضاء أعيادهم. على أن المسيحيين مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بمركزهم القديم في بغداد. وإن كانت بعض مبانيهم قد تهدمت في أثناء المنازعات التي كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة فقد تهدم أيضاً من جراء هذه المنازعات كثير من مساجد المسلمين. ولا شك أن المسيحيين لم يلاقوا من الخلفاء العباسيين إلا كل عطف.

ولم تكن حالة اليهود في تلك الفترة من حياة الخلافة العباسية تختلف عن حالة المسيحيين من حيث الحرية والطمأنينة. فقد كان عددهم في بغداد يبلغ الألف نفس عندما زارها بنيامين التطيلي في أيام المستنجد. كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاه عظيم. وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوي بلغت العشرة، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر ويسميه المسلمون حفيد داود النبيل تحت سلطته كل الجمعيات اليهودية ويتمتع بدخل واسع. وكان الخلفاء العباسيون يقربون اليهود اليهود ويأمرون الناس، سواء منهم المسلمون أو المسيحيون باحترام رئيسهم والقيام في حضرته. وكان لليهود ثمانية وعشرون معبداً بعضها في بغداد الشرقية والبعض الآخر في الكرخ. وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب؛ وذلك لأن اليهود في بغداد كانوا أغنياء يملكون

البساتين والعقارات ويشتغلون بالتجارة.

الناحية العمرانية

العراق قطر زراعي والعمل الأســـاســـي الذي يقوم به أهله هو الزراعة. وأهم ما تحتاج إليه الزراعة هو الاهتمام بمشروعات الري اهتماماً يكفل للزراع الحصول على الماء حين يحتاجون إليه. ولما كان الخلفاء العباسيون بعد أن استقلوا بشؤون العراق ساروا على شاكلة السلاجقة وأهملوا مشـــروعات الري إهمالاً جعل الحصـــول على الماء اللازم للزراعة في حينه متعذراً، كما جعل المزروعات عرضة لفيضانات الأنهار في كثير من الأحيان، فقد صار أهل العراق في هذه الفترة في أسوأ حال.

وزاد من سوء حال أهل العراق في ذلك الوقت ما اشتهر به الخلفاء من حب للمال وعملهم على جمعه. فإنهم لم ينسوا أن يثقلوا كاهل الناس بالمكوس والضرائب، وقد ذكروا أن المستنجد (555هـ- 566هـ) حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج، كما ذكروا أن الناصر (575هـ- 622هـ) كان سيئ السيرة خربت في أيامه العراق مما أوجدته من الرسوم، وما اغتصبه من الأموال والأملاك.

وأن الخراج في أيامه أصبح كبير جداً لدرجة أن بعقوباً التي كان يحصل منها قبل زمنه عشرة آلاف دينار أصبح يؤخذ منها في أيامه ثمانية ألفاً.

وكما أن الخلفاء أهملوا الزراعة والري فقد أهملوا التجارة وكان جشـــعهم ســـبباً في كســـادها، وليس أدل على ذلك مما ذكره السيوطي حين قال أن فقيهاً خرج من سمرقند في أيام الخليفة الناصر بقصد الحج على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد. فإن جشع الخليفة الذي صار مضرب الأمثال وأصبح الناس يتقونه لدرجة أنهم يخافون على فرس يركبها رجل بقصد الحج، لا بد أخاف التجار وأزعجهم وجعلهم لا يقدمون إلى العراق.

ولم يعن الخلفاء بإقامة المباني وتشييد القصور لما كان من سبقهم في أيام السلاجقة؛ وذلك لأن ظهور الدولة الخوارزمية أولاً ثم ظهور الخطر المغولي بعد ذلك استغرق معظم جهودهم. ولذلك فإننا لا نكاد نعثر في هذه الفترة على مبان تستحق الذكر اللهم إلا المدرسة المستنصرية التي أسها الخليفة المستنصر (623-640هـــ). وعلى العموم، فقد كانت هذه الفترة فترة تأخر للزراعة وكساد للتجارة وتأخر لفن العمارة.

الحالة الخارجية

كانت حالة الخلافة العباسية في هذه الفترة على العكس مما قد يتوقعه البعض أحسن من حالتها الداخلية. فقد كانت الخلافة لا يزال لها في العالم الإســـلامي مركز ممتاز وكان الخلفاء لا يزالون يتمتعون باحترام عظيم من المسلمين، وليس أدل على ذلك مما ذكره الذهبي في مخطوطه عند كلامه على سنة 622هـــ فقد قال إن الملك المعظم يقصد الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الذي حكم في دمشق من سنة 615هـــ إلى سنة 624هـــ حين دعاه جلال الدين خوارزم شاه لمحاربة الخليفة الناصر كتب إليه يقول أنا معك على كل حال إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين.

هذا إلى أن معظم خلفاء هذه الفترة كانوا يسيرون الخلع والتقاليد إلى الأيوبيين في مصر والشام ومكة وأحياناً إلى فارس وخراســـان وخوارزم وما وراء النهر. على أنه يجب علينا إذا أردنا أن نستوفي الكلام على الحالة الخارجية أن نتكلم على الدولة الإسلامية في ذلك الوقت ثم على علاقة هذه الدول بالخلافة العباسية.

العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء (551هـ - 640هـ)

1- الدولة السلجوقية في فارس:

بعد أن تضعضعت الأسرة السلجوقية، وفقدت نفوذها في العراق سنة 551هـ على أثر فشل السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه في التغلب على جيوش الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله التي قامت بالدفاع عن بغداد، لم يبق لها إلا فارس. وقد تمكن سليمان شاه بن محمد بن ملك شاه عم محمد بن محمود من أن يصبح سنة 554هـ صاحب الأمر فيها واستقر في همذان وذلك بعد أن تغلب على ملك شاه ابن أخيه محمود وعلي أسلان شاه ابن أخيه طغرل الأول وحكمها سنتين؛ وخلفه على العرش أرسلان شاه ابن أخيه طغرل وظل في الحكم إلى أن مات سنة 573هـ، فخلفه ابنه طغرل الثاني الذي حكم سبع عشرة سنة فقد بعدها حياته وملكه، حين هزمه تكشس خوارزم شاه وقتله وضم أملاكه إلى أملاك الدولة الخوارزمية سنة 590هـ.

2- الدولة الخوارزمية:

أما الدولة الخوارزمية، فقد أسسها أحد مماليك السلطان ملك شاه السلجوقي واسمه أنشت جين حين جعله هذا السلطان العظيم حاكماً على ولاية خوارزم سنة 470هـ. فقد خلفه ابنه قطب الدين محمد سنة 490هـ ثم حفيده أطسز سنة 521هـ الذي كان أول من أظهر استقلاله على الدولة السلجوقية العظمى سنة 533هـ في أيام السلطان سنجر الذي مد نفوذه حتى مدينة جند الواقعة على نهر سيمون، وكان من المصادفات أن مات أطسز في سنة 551هـ التي بدأ فيها عهد استقلال الخلفاء العباسيين وتخلصهم من نير السلاجقة. ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده حتى وصل الأمر إلى تكشس بن أيل أرسلان فضم إلى أملاكه خراسان والري وأصبهان فيما بين سنتي 589 و590هـ. وبعد موته سنة 596هـ تولى ابنه علاء الدين محمد فسار في الطريق الذي سلكه أبوه واستولى على كرمان ومكران وبلاد الجبل وفارس. كما أخضع لنفوذه نجاري وسمرقند وغزا أملاك الخطا واستولى على عاصمتهم أترار.

وفي سنة 611هـ قضى على الدولة الغورية واستولى على غزنه. ولم يكن هذا هو كل ما فعله محمد خوارزم شاه، بل إنه في نة 624هـــ اعتنق المبادئ الشيعية وعول على السير إلى بغداد ولم ينقذها منه إلا غضــب الطبيعة على جيشــه ونزول الثلج على جنوده. وقد تبع ذلك ظهور المغول في شرق أملاك الدولة الخوارزمية ثم مهاجمتهم لها. وفرار محمد خوارزم شاه أمامهم وموته حزناً على ضياع ممتلكاته سنة 617هـــ ثم قيام ابنه جلال الدين سنكبرتي بعده بمحاربة المغول وانتهاء أمره بالهزيمة ثم الفرار والموت سنة 615هـ وزوال الدولة الخوارزمية من الوجود.

الإسماعيلية (الحشيشية)

أما الإسماعيلية فإنهم كانوا من قوى العالم الإسلامي التي لا يستهان بها في ذلك الوقت. وأول ظهورهم كان في أصبهان على يد أحمد ابن عبد الملك بن عطاش، وفي أيام تلميذه الحسن بن الصباح اتسع نفوذهم فاستولوا قلعة الموت سنة 483هـ ثم نشروا نفوذهم على قلاع أخرى كثيرة في بلاد فارس من بينها زوزن وكرد كوة. وظهر لهم بعد ذلك أتباع في الشام في عدة مراكز من بينها حلب في أيام أميرها رضوان ابن تتش ودمشق في أيام تاجي الملوك بوري. وقد ظهر رجل منهم يسمى بهرام قوى نفوذه وتمكن من الاستيلاء على بانياس وعلى سبع قلاع أخرى بين حماه وحمص وكاد يستولي من دمشق نفسها لولا أن أحسن بوري بخطره.

ثم تنقلت رئاسة الإسماعيلية بعد ذلك من واحد لآخر؛ حتى صارت في أيام صلاح الدين الأيوبي إلى أبي حسن الراشد الدين سنان المصري. واشترك الإسماعيلية في الشام في كثير من الحروب الصليبية. كما أنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي فحاصر قلاع سنة 572هـ ثم عفا عنهم. وقد مات رئيسهم سنان سنة 588هـ ولم يأتوا بعد ذلك بأمر ذي بال.

وقامت حكومة الإسماعيلية في الموت بزعامة الحسن بن الصباح، فلما مات سنة 518هـ تناوب الزعامة سبعة سموا مشايخ الجبل في مدى قرنين من الزمان بسطت فيهما نفوذها على كثير من بلاد قوهستان وتمكنت من مقاومة السلاجقة ثم الخوارزميين. وقد كان هؤلاء الرؤساء جميعاً بعيدين عن العمل بالشريعة الإسلامية، فلما تولى الرئاسة جلال الدين بن حسن الكيا الصباحي أظهر التوبة في سنة 557هـ، وبقي على ذلك إلى سنة 608هـ فأظهر شعائر الإسلام وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام فأقيمت فيها، وبقي على ذلك حتى توفي سنة 618هـ فقام من بعده ابنه علاء الدين محمد الذي عاد إلى ما كان عليه أسلافه من الإلحاد، ثم ولي بعده ابنه ركن الدين خور شاه بعد أن حرض حسن المازند راني على قتل أبيه سنة 563هـ.

1- الدولة الأيوبية:

ومن أهم الدول الإسلامية في تلك الفترة الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة وبلاد العرب. فقد ذهب صلاح الدين إلى مصر موفداً مع عمه أسد الدين شيركوة من قبل نور الدين، ثم ما

لبث بعد موت عمه أن صـار حاكم مصـر الحقيقي وذلك سـنة 564هـــ على الرغم من أن الخليفة الفاطمي العاضد لم يمت إلا بعد ذلك بثلاث سنين. وقد عمل بعد ذلك على نشر نفوذه فصـار صـاحب السلطان في مكة والمدينة بل وفي اليمن حين أرسل أخاه توران شاه إليها سنة 569هـــ فأسس بها حكومة أيوبية ظل يتولاها أفراد من بني أيوب حتى سنة 625-626هـــ حين حلت محلهم أسرة بني رسـول. هذا إلى أن صـلاح الدين نشـر نفوذه في سـورية على إثر موت نور الدين سـنة 569هـ وأخضع الموصل وجعل أمراء بلاد الجزيرة أقياله 581هـ، وبذلك أصبح السيد المطلق في الأراضي الممتدة بين الفرات والنيل اللهم إلا معاقل الصليبيين، ومع ذلك فقد قوضت موقعة حطين سنة 583هـ أركان مملكة بيت المقدس الصليبية.

وبعد موت صلاح الدين سنة 589هـ انقسمت أملاكه بين أخوته وأولاده. فكانت اليمن بيد أخيه طغطكين سيف الإسلام (577هـ- 593هـ) وآلت البلاد الجزرية إلى أخيه العادل سيف الدين أبي بكر الصـفدي، وكانت حلب في يد الظاهر غازي بن صـلاح الدين، ودمشـق في يد صـلاح الدين، ومصـر في يد العزيز عثمان بن صـلاح الدين، ومصـر في يد العزيز عثمان بن صـلاح الدين، بينما كانت حمص في يد مجاهد شيركوة الثاني حفيد أسد شيركوة عم صلاح الدين.

وكانت حماه في يد منصـور الأول محمد بن مظفر الأول محمد بن مظفر الأول تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه أخي صـلاح الدين، وكانت بعلبك في يد بهرام شاه بن فروخ شاه داود بن نور الدين شاهنشاه.

غير أن الأمور ما لبثت أن تغيرت ولم تجر في طريقها العادي، فاسـتولى العادل على دمشـق من الأفضل سنة 592هـــ ثم على مصر من منصور محمد بن العزيز سنة 596هـــ وظل يحكم تلك الجهات حتى مات سنة 561هـــ. وبعد موته ترك أولاده فحكموا في مصـر ودمشق وبلاد الجزيرة وأسسوا لهم بيوتاً حاكمة فيها. بينما لم ينجح من أبناء صلاحا لدين سوى واحد فقط هو الظاهر غياث الدين غازي (582- 613هـ) الذي أسس دولة له في حلب. أما بيت طغطكين سيف الإسلام في اليمن فقد ظل الأمر فيه يسـير في مجراه الطبيعي. وكذلك كان الحال فيما يختص بالبيت الشـيركو هي في حمص والبيت الشـاهنشـا هي في حماه، الذي من نسـله أبو الفدا مؤلف كتاب المختصـر في أخبار البشر، ويجب ألا ننسى أن الفرع الثاني من البيت الشاهنشاهي كان يحكم في بعلبك منذ موت صلاح

الدين وزوال سنة 627هـ بموت بهرام شاه.

إن حروباً كثيرة كانت تقوم بين أفراد البيت الأيوبي، وكان من نتائج هذه الحروب أن بعض أفراد هذه البيوت الحاكمة كان يمد نفوذه أحياناً على أملاك البعض الآخر، ومثل ذلك ما حدث بعد ذلك حين مد الكامل صاحب مصر سلطانه على دمشق سنة 635هـ وتبعه في ذلك العادل الثاني في نفس السنة ثم الصالح أيوب سنة 637هـ وسنة 653هـ بعد أن كان الصالح إسماعيل صاحبها قد استرد نفوذه فيها (637- 643هـ). أضف إلى ذلك ما كان يتعرض له الأيوبيون من هجمات الصليبيين التي يمكن أن نذكر من أهمها غزوهم دمياط في أيام الكامل سنة 616هـ وغزوهم دمياط والمنصورة سنة 647هـ في أيام الصالح نجم الدين أيوب.

2- الروم السلاجقة:

كانت دولة الروم السلاجقة من ضمن الدول الإسلامية المعاصرة لفترة استقلال الخلفاء العباسيين الأخيرة (551-640هـ) أسسها سليمان بن فطلمش ابن أرسلان بيغو بن سلجوق سنة 470هـ. وتولى على عرشها من بعده أولاده وأحفاده حتى وصل الأمر إلى غياث الدين كيخسروا الثاني ابن علاء الدين كيقباد الأول (634-643هـ). وهذه الدولة وقعت منذ سنة 640هـ تحت نفوذ المغول، على أثر ما كان من انهزام غياث الدين كيخسروا أمام جيوشهم عند أرزنجان – إحدى بلاد أرمينية ودخول هذه الجيوش وتغلغلها في بلاده، وفتحها سيواس وقيصرية عنوة ثم طلب غياث الدين الصلح وإجابته إليه على أن يدفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينار ويقوم عدداً من العبيد والخيل والأشياء الثمينة.

3- أتابكية الموصل:

أن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في سنة 521هـ ظلت قائمة في هذه الفترة وإن كانت قد ضعفت وضافت رقعتها. وبعد أن كات تشمل في أيام نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازي الشام وبلاد الجزيرة، أصبحت لا تتعدى الموصل، وانتهى بها الأمر بعد وفاة ملكها القاهر عزالدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي سنة 615هـ أن صارت تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذي عينه الملك القاهر قبل وفاته وصياً على ولده نور الدين أرسلان شاه لصغر سنه. وصار بعد وفاة نور الدين هذا سنة 616هـ وصياً على أخيه ناصر الدين محمود الذي كان له من العمر ثلاث سنوات. وبعد وفاة هذا الأخير سنة 631هـ أصبح بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل واستتب له الأمر فيها، بل أنه أخذ يضيف إليها فملك جزيرة ابن عمر سنة 648هـ وأسر صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من بيت أتابك زنكي. ثم قتله وظل يحكم حتى سنة 660هـ.

منظر – 19 –

علاقة الخلافة العباسية بالدول الإسلامية

كانت العلاقات الخارجية بين الخلفاء العباسيين والدول الإسلامية في ذلك الوقت تسر طبقاً لسياسة مرسومة ترمي إلى غرضين اثنين أحدهما تأمين العراق من الأخطار الخارجية، وثانيهما نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي.

1- تأمين العراق من الأخطار الخارجية:

تمكن الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله من صد غارة السلطان محمد بن محمود السلجوقي عن بغداد سنة 551هـ وأعلا بذلك إلى الخلافة العباسية نفوذها بعد أن كانت ألعوبة في أيدي الأجانب أكثر من قرنين (334-551هـ) كما أعاد إلى العراق استقلاله. وبعد موته سنة 555هـ اعتلى عرش الخلافة المستنجد فحمل هو ووزيره ابن هبيرة على تأمين العراق من الأخطار. وحدث في ذلك الوقت بعد أن أصبح الأمر في فارس للسلطان سليمان شاه بن محمد بن ملك شاه بعد تغلبه على ملك شاه ابن أخيه محمود وعلي أرسلان شاه ابن أخيه طغرل، وأرسل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك لينوب عنه في بغداد، كما أرسل رسولاً ليخطب له في العراق، فلم يرض المستنجد ووزيره بشيء من ذلك ولم يحقق أمله، ومات الرسول وانتشرت الأراجيف بعد موته كما عاد ابن طغايرك أدراجه.

أما الخليفة الناصر فإنه حين رأى طغرل بن أرسلان شاه قد قوي نفوذه بعد موت أبيه وامتلك كثيراً من البلاد وأصبح يهدد العراق، أرسل قوة على رأسها وزيره جلال الدين عبيد الله ابن يونس لمحاربته والقضاء عليه، فلما انتهى أمرها بالهزيمة ورأى أن قوته لن تنفع في صد تيار طغرل اتجه إلى الدولة الخوارزمية الناشئة واستعان بها عليه فوصل إلى غرضه، إذ حاربه تكش خوارزم شاه وهزمه وقتله وأرسل رأسه إلى الخليفة ليعرضها أمام قصره في بغداد.

وكما أن تأمين العراق كان سبباً في بدء العلاقات الودية بين الخليفة الناصر والدولة الخوارزمية، فقد كان أيضاً السبب في سوء هذه العلاقات وما أتت به من نتائج سيئة، وذلك أن الناصر حين استعان بتكش كان يأمل من وراء القضاء على السلاجقة تأمين العراق بالحصول على

جزء كبير من أملاكهم في فارس، ولهذا السبب نجده بعد أن يقض تكش على طغرل يبادر إلى الاعتراف بسلطته في خوارزم وخراسان وفارس ثم يرسل إليه سنة 590هـ وزيره مؤيد الدين ابن القصاب ومعه خلع ثمينة وهدايا فاخرة، ولكنه حين يجد أن تكش لم يقابل رسوله بالترحاب بل وأرسل قوة لرده قبل وصوله إلى همذان، يعلم أنه يريد إبقاء ممتلكات السلاجقة لنفسه ويرى أن في هذا أكبر خطر على العراق لأن الدولة الخوارزمية أقوى من السلاجقة في فارس ومطامعها أوسع، ولذلك عزم على مناوأة تكش، وقد أرسل لهذا الغرض وزيره ابن القصاب على رأس قوة إلى خوزستان في السنة نفسها، كما أرسل في السنة التي تليها قوة على رأسها مملوك اسمه سيف الدين طغريل. نجحت كل منها واستولت على عدة بلاد بسبب غياب تكش في الجهات الشرقية من ممتلكاته.

ولكن نجاحها كان مؤقتاً، ولم يلبث تكش منذ عودته أن طرد كلاً منها وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل إن تكش في سنة 592هـ أرسل إلى الخليفة يطلب السلطنة وأعاد دار السلطنة إلى ما كانت عليه وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية. كما أنه عند موته واعتلاء ابنه محمد خوارزم شاه على عرش السلطنة تبودلت الرسائل بينه وبين الخليفة الناصر في هذا الموضوع ولكنه لم يغز بطائل، وكان ذلك سبباً في غضبه بعد أن وقعت في يده مراسلات عندما فتح غزنة كان الناصر قد أرسلها إلى شهاب الدين الغوري وأخيه يدعوهما فيها إلى محاربة تكش. وبعد أن ثبت لديه أنه يحرض الثائرين عليه في فارس. وقد سنحت له الفرصة عندما حرّض الناصر نفراً من الحشيشية فقتلوا أغلمش الأتابكي الذي كان ينوب عنه في العراق وذلك عندما ركب يلتقي الحجاج عند انصرافهم من حج بيت الله الحرام، وقد سار محمد إلى العراق العجمي، وجمع مجلساً من العلماء أفتى بأن الناصر لا يستحق الخلافة، وعين علوياً من ترمذ اسمه علاء الملك إماماً بدلاً منه، ولم يكتف بذلك بل سار يقصد بغداد، ولم يحل دون ذهابه إليها إلا نزول الثلج على جيشه بعد أن بعد عن همذان بيومين أو ثلاثة وعلا عقبة سعد آباد ومهاجمة بني ترجم الأتراك وبنى هكار الأكراد لمن بقي من الجند ثم تهديد المغول لبلاده.

ومع ذلك، فإنه أخذ يقطع الخطبة للناصر في البلاد التي يمر بها في عودته.

وبعد موت محمد خوارزم شاه واستيلاء ابنه جلال الدين على عرش الدولة الخوارزمية ظلت العلاقات مع الناصر سيئة، على الرغم من محاولة جلال الدين تحسينها. فلما مات الناصر وحلت أيام

المستنصر تحسنت العلاقات، ولكن لم تكن لذلك فائدة تذكر؛ لأن الدولة الخوارزمية سرعان ما زالت أمام ضربات المغول.

إن سياسة تأمين العراق من الأخطار الخارجية كانت سبباً في نشوء العلاقات بين الخلافة العباسية والمغول، أو بمعنى آخر كانت سبباً في مجيء المغول إلى الغرب وقضائهم على الخوارزمية كما كانت من قبل سبباً في قضاء الخوارزمية على دولة السلاجقة في فارس.

فقد ذكروا أن الخليفة الناصر حين اشتد النزاع بينه وبين محمد خوارزم شاه وخاف خطره استدعى المغول الذين كانوا قد نشروا نفوذهم في الصين واتجهوا غرباً فلبوا دعوته وتدفقوا إلى ما وراء النهر بقيادة جنكيز خان وتمكنوا بعد حروب طويلة من القضاء على الدولة الخوارزمية التي كانت تضايق الخلافة العباسية وتهددها وذلك في عهد أجطاي بن جنكيز خان، على أن الناصر وقد أدت به رغبته في تأمين العراق إلى استدعاء المغول ما لبث أن رأى أكبر الخطر مجسماً فيهم ولذلك أخذ يقاومهم في آخر أيامه. وكذلك حاربهم خلفه المستنصر وصدهم عدة مرات عن العراق ولكن الخطر المغولي كان عظيماً جارفاً ولذلك كان سبباً في فشل سياسة تأمين العراق، بل أنه اكتسح العراق نفسه وقضى على الخلافة العباسية.

إن سياسة تأمين العراق كانت السبب في نشوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاجقة فارس ثم بينهم وبين الدولة الخوارزمية ثم أخيراً بينهم وبين المغول.

2- نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي:

كانت أول محاولة لنشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي للخليفة المقتفي لأمر الله حين أراد أن يستفيد من حسن علاقاته مع نور الدين محمود بن زنكي لنشر نفوذه في مصر. فقد ذكر أنه عندما علم بمقتل الظافر بالله الفاطمي وإقامة ابنه الفائز عيسى مكانه وكان صبياً صغيراً كتب عهداً إلى نور الدين وولاه مصر وأمره بالمسير إليها. هذا وإذا لم تكن رغبته قد نفذت في حياته فإن نور الدين في السنة التي أعقبت موت المقتفي وفي عهد المستضيء عندما بلغه أن صلاح الدين تمكن من مصر سنة 567هـ وحكم على القصر، أرسل إليه يأمره بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية مكانها. وكان له ما أراد وتمت أول خطوة لنشر نفوذ الخلافة العباسية في أيام الخليفة المستضيء.

أما الناصر فسار شوطاً بعيداً في سبيل نشر نفوذ الخلافة في العالم الإسلامي، وكذلك فعل من

جاء بعده من الخلفاء مثل الظاهر والمستنصر، ودليل ذلك أنهم جميعاً اتبعوا سياسة مصادقة الأيوبيين، فكانوا يرسلون إليهم الخلع والتقاليد كما كان هؤلاء يحترمونهم فيرجعون إليهم لفض مشاكلهم ولا يتأخرون عن تقديم المساعدة التي في مقدورهم تقديمها. وبهذه الطريقة ظل نفوذ الخلافة العباسية قوياً في بلاد الأيوبيين، وأن التأريخ ليقدم لنا شوطاً كثيراً من الأمثلة التي توضح صدق ما قلنا، فالسيوطي يذكر أن الناصر عندما تولى الخلافة بعث إلى السلطان صلاح الدين بالخلع والتقليد كما كتب إليه السلطان كتاباً يقول فيه والخادم والله الحمد يعدد سوابق في الإسلام والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه وإلى ثم وارى، ولا آخرية طغر لبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الفضة التي أذخر الله للإساغة في سيفه ماءها فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد إبراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر.

كما يذكر أبو الفداء ما يوضح أن الناصر بعد موت صلاح الدين ظل يسير على سياسته الأولى حيال الأيوبيين فأرسل سنة 604هـ إلى الملك العادل وابنيه الملك الأشرف والملك الأعظم خلعاً صحبة الشيخ شهاب الدين السهر وردي وكذلك أرسل إلى الملك الكامل. وأن الملك الأفضل بن صلاح الدين كتب إليه من صرخد يشكو عمه الملك العادل أبا بكر وأخاه الملك العزيز عثمان لاغتصابها دمشق منه ويقول:

مولاي أن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

فانظر إلى خطر هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب إليه الخليفة الناصر جوابه قائلاً:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن اصلك طاهر

غصبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر

فاصبر فإن غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

ويذكر المقريزي ما يبين أن الخليفة المستنصر سار على طريقة الناصر، وكانت العلاقات بينه وبين الأيوبيين على ما يرام، ويقول أنه أرسل في سنة 628هـ للملك الكامل الخلع والتقليد وميزه بزيادات كثيرة لم تفعل في حق غيره من السلجوقية وغيرهم، كما أرسل خلعاً للملك الأشرف أيضاً.

ومما ذكره المقريزي أن الملك الكامل عندما أرسل إليه الخليفة المستنصر سنة 635هـ مائة ألف دينار ليستخدم له بها عساكر لصد المغول، أعاد تلك الأموال دون أن يمسها وأخرج من بيت ماله الخاص مائتي ألف دينار استخدم له بها عساكر ثم جرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف نجدة للخليفة، هذا إلى أنه وقد كان حاقداً على الناصر داود صاحب الكرك لطلاقة ابنته لم يسعه حين شفع لديه فيه الخليفة المستنصر وأرسله إليه إلا أن يقبل الشفاعة بل ويضعه على رأس العساكر التي جمعها للمستنصر.

إن الخليفة الناصر حسّن علاقاته مع الإسماعيلية وأنه كان يرمي من وراء ذلك إلى ضمهم تحت لواء الخلافة العباسية تمشياً مع مبدأ ضم المسلمين جميعاً تحت راية الخلافة العباسية، وإن مما سهل عليه العمل لهذه الغاية ما كان جارياً عند الإسماعيلية أنفسهم في ذلك الوقت. فإن جلال الدين حفيد حسن الصباح ورئيسهم في ذلك الوقت أمر في سنة 608هـ بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلاد الإسماعيلية في خراسان والشام، وأرسل رسلاً إلى الناصر وغيره من أمراء الإسلام يخبرهم بما فعله بل إنه ترك مطالبه في الإمامة واعترف بالخليفة العباسي.

إن الخلفاء العباسيين في هذه الفترة الأخيرة من حكمهم في العراق نجحوا في تنفيذ سياستهم الخارجية، فقد أمنوا العراق من الأخطار التي تعرض لها سواء من سلاجقة فارس أو من سلاطين الدولة الخوارزمية بالقضاء عليهم جميعاً، كما تمكنوا من ضم مصر والشام وكل بلاد الأيوبيين وكذلك بلاد الإسماعيلية وقتاً ما إلى دائرة نفوذهم الديني، إلا أنهم برغم ذلك فإن نجاحهم كان ينطوي على أسباب فشلهم.

فقد كلفتهم سياسة تأمين العراق كثيراً من المجهودات كما أنهم حين أزالوا الدولة الخوارزمية كان ذلك بفضل المغول. ولا يخفى أن المغول وقد تغلبوا على الدولة الخوارزمية تطلعوا إلى أبعد من ذلك، وكان لا بد لهم أن يتابعوا السير وسيرهم إلى الغرب لا بد أن يقضي على الخلافة العباسية التي استظلت بهم زمناً. ومع ذلك فإن خطرهم وضح في آخر أيام الناصر نفسه كما أن المستنصر من بعده بذلك مجهوداً لا بأس للوقوف أمامهم. أما نشر نفوذ هؤلاء الخلفاء على الأيوبيين وعلى الإسماعيلية وقتاً ما، فإنه وإن أكسبهم احتراماً لدى هؤلاء الأمراء وزاد من نفوذهم المعنوي بينهم، بل وإن عاد إليهم ببعض الفوائد المادية كما حدث حين أرسل الكامل للخليفة المستنصر سنة 635هـ عشرة آلاف

رجل بجانب ما جمعه له من العســـاكر بمائتي ألف دينار، فإنه بعد ذلك ثم ينفعهم حين اشـــتد خطر المغول ومن هنا كان ضـئيل الأثر أن المسـتعصـم على الرغم من احتفاظه باحترام العالم الإسـلامي، سيتلقى الضربة القاضية وحده دون أن يأخذ بيده إنسان ممن يخطبون على منابرهم.

منظر – 20 –
الفتح المغولي للعراق
بغداد قبيل الفتح المغولي

1- طبوغرافية بغداد:

أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد سنة 149هـ وكانت عبارة عن دائرة في مركزها قصر الذهب والمسجد الجامع تحيط بها منازل أبنائه ودواوين حكومته، ومحيطها أسوار ثلاثة من اللبن متعاقبة، بين الداخلي والأوسط مسافة عرضها 510 ياردات يسكنها الأتباع، وبين الأوسط والخارجي مسافة يبلغ اتساعها 50 يارد خالية، وكانت محاور هذه الدائرة شوارع أربعة في نهايتها أبواب كبيرة هي باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة. ومنذ أواخر عهد المنصور أخذت بغداد في الاتساع والنمو ولم تعد تقتصر على تلك الدائرة، ولم تؤثر في نموها تلك الحوادث التي نزلت بها كالنزاع الذي قام بين الأمين والمأمون وانتقال الخلفاء آل سامراء، ووقوع الخلافة تحت سيطرة بني بويه والسلاجقة، وأصبحت ثلاثة أقسام القسم الرابع الواقع على شاطئ دجلة الغربي، ومن محلاته شارع دار الرقيق والحربية وباب البصرة والكرخ والمستشفى العضدي. والقسم الواقع على امتداد الجزء الشمالي من شاطئ دجلة الشرقي ومن محلاته الرصافة والشماسية والمخرم ومحلة القصور البويهية. والقسم الرابع الواقع على امتداد الجزء الجنوبي من شاطئ دجلة الشرقي ويشمل حريم دار الخلافة الذي كان يحيط به سور ويوجد في داخله القصر الحسني وقصر التاج وقصر الفردوس ومحلات العامة التي كان منها المأمونية وباب الأزج ومسعودة والريان والمقتدية وقرح ظفر والقاضي وابن رزين وأبي الشحم والتي أحاطها جميعها الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بسور عظيم.

وعلى الرغم من أن القرن السادس الهجري شاهد على استعادة الخلفاء العباسيين لسلطانهم بعد أن اغتصبه بنو بويه ثم السلاجقة أكثر من قرنين (334-547هـ)، فإن أقسام بغداد المختلفة في إبانه وفي أوائل القرن السابع الذي تلاه فقدت كثيراً من عمارتها بسبب كثرة القلاقل والمنازعات التي كانت تقوم بين سكان المحلات المختلفة أو فيضانات دجلة الكثيرة.

وقد أثبت ذلك ابن جبير في رحلته حيث قال وهذه المدينة العتيقة – إن لم تزل حاضرة الخلافة السياسية ومثابة الدعوة الأمامية القرشية الهاشمية – وقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل أنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص.

ولو أننا أردنا أن نصف بغداد بأقسامها المختلفة حين حاصرها هولاكو سنة 656هـ لوجدنا أن هذه الأقسام بغداد الشرقية الجديدة التي كان يقيم فيها الخليفة المستعصم وحكومته والتي ركز المغول جهودهم لفتحها، وقد كانت قصور الخلفاء في هذا القسم مختلفة عما كانت عليه في الماضي، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه، والقصر الحسني القديم كان قد تهدم أيضاً ونشأت على أنقاضه منذ القرن الخامس الهجري قصور أخرى تهدمت بدورها ثم نشأت على أنقاضها المدرسة المستنصرية وقصر عرف باسم الريحانيين، كما أن قصر التاج القديم الذي وضع أساسه المعتضد وأكمله المكتفي تهدم ونشأ قصر آخر باسمه إلى الشمال منه. أي أن منطقة حريم دار الخلافة كانت في ذلك الوقت تتكون من الشمال إلى الجنوب من المدرسة المستنصرية على ساحل دجلة الشرقية وقصر الريحانيين بجذائها إلى الداخل، ثم قصر التاج إلى الجنوب منهما، هذا عد قصور أخرى وحدائق غناء. وكانت هذه القصور لا يزال يحيط بها سور يفصلها عن محلات العامة وإن كان هذا السور قد نقل إلى الجنوب من مكانه الأصلي.

وكان حريم دار الخلافة في أيام ياقوت يشمل ثلث بغداد الشرقية الجديدة تقريباً كما كان له سور يتحيز به ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إليها كهيئة نصف دائرة، وله عدة أبواب أولها من جهة الغرب باب الغربة وهو قرب دجلة، ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق في أول أيام الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء، ثم باب البدرية وعقده باب العتيقة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد، ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضاً. ثم يمتد قرابة ميل ليس باب إلا باب بستان قرب المنظرة التي تخر تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتي سهم في شرقي الحريم، ولم نعلم بعد ذلك أنه لحق به تغيير كبير.

أما محلات العامة التي كانت توجد خارج سور حريم دار الخلافة التي منها المأمونية وباب الأزج والريان ومسعودة والمقتدية وقراح ابن رزين وقراح أبي الشحم وقراح القاضي وقراح ظفر

والمختارة فقد لحقها كثير من التلف بسبب فيضان دجلة سنة 554هـ ثم في سنة 614هـ ولكنها رغم ذلك ظلت عامرة. وقد ذكر ياقوت أن محلة الريان كانت من أهم المحلات، كما ذكر أن المحلات الأربع التي كانت تسمى قراح ابن رزين وظفر والقاض وأبي الشحم كانت لا تزال موجودة في أيامه ولو أنها كانت منفصلة عن بعضها البعض، وإن أبنيتها كانت جيدة وأنها كانت عامرة ومتسعة وفي كل منها مساجد وأسواق ودروب كثيرة، كما ذكر أن محلة أخرى هي محلة العجم كانت موجودة وأنها كانت أشبه بقرية قائمة بنفسها.

أن حريم دار الخلافة ومحلات العامة التي كانت في شرقها كانت جميعها داخل سور كبير بناه الخليفة المستظهر سنة 448هـ ثم أصلحه وأعاد بناءه الخليفة المستضيء سنة 556هـ. وكانت تتخلل هذا السور أبواب أربعة هي باب السلطان في الشمال وباب الظفرية وباب الحلبة في الشرق، وباب البصلية الذي ينسب إلى محلة البصلية في الجنوب ويسميه ياقوت باب كلوا ذي. وكانت على هذا السور أبراج قائمة للدفاع عن بغداد، منها برج العجم الذي اشتهر أثناء الحصار المغولي لبغداد وكان يقع عند تلاقي السور الشرقي بالسور الجنوبي وكان يلي بغداد الشرقية الجنوبية في الأهمية بغداد الغربية، وكان معظم محلاتها القديمة لا تزال عامرة، وإن كانت قد ضاقت رقعتها وتلاشت بعض محلاتها.

ومن محلاتها العامرة في ذلك الوقت محلة الحربية وكانت في الشمال منفصلة عن غيرها من المحلات يحيط بها فضاء واسع من الخرائب والأتربة. وقد ذكر ياقوت أن الكثير منها كان قد تخرب في أيامه وأنها أصبحت حول باب حرب فقط. كما ذكر أنه كان يحيط بها سورها الخاص وكان لها مسجدها الجامع وأسواقها الكثيرة العامرة. وإلى الجنوب من محلة الحربية كانت توجد محلة باب البصرة وكان بها جامع المنصور لا بحالته الأولى التي كان عليها حين بناء المنصور بل بعد أن لحقت به تغيرات كثيرة؛ إذ هدمه الرشيد وبناه من الآجر كما أن الخليفة المعتضد وسعه بإضافة جزء من قصر الذهب إليه. وكانت محلة باب البصرة هذه مركزاً لأهل السنة. وعلى بعد نصف ميل من محلة باب البصرة كانت توجد محلة الكرخ. وكانت مركز الشيعة كما أنها كانت قد تخلصت عما كانت عليه فيما مضى. وكانت – حين كتب ياقوت كتابه – أهم محلات بغداد الغربية محلة القرية التي كانت محتفظة بمسجدها الجامع وأسوارها، وكانت بجانب هذه المحلات الكبيرة محلات أخرى أقل منها أهمية مثل باب المحول التي كانت توجد إلى الجنوب الغربي من الكرخ وأصبحت في أيام

ياقوت منفردة كالقرية المنفصلة ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها.

ومحلات دار القز والناصـــرية والعتابية وكانت توجد إلى الجنوب الغربي من محلة الحربية وسـط خرائب واسـعة. ومحلة الكاظمية وكانت توجد في أقصـى الشـمال من بغداد العربية حول قبر الإمام موسى الكاظم.

وكانت بغداد الغربية قبل حصار هولاكو لها تتصل ببغداد الشرقية الجنوبية بجسرين. وقد ذكر صاحب الفخري أن الخليفة الظاهر أعاد في سنة 622هـ جسراً كان فيضان دجلة قد أزاله، كما ذكر ابن العبري أن الظاهر بن الناصـر عقد لبغداد جسـراً ثانياً عظيماً جديداً وأنفق عليه مالاً كثيراً فصـار في بغداد على دجلتها جسران، وسواء أكان الظاهر قد عقد جسراً جديداً على ما ذكره ابن العبري أو أنه أعاد جسـراً قديماً كان قد أزاله فيضـان دجلة على ما ذكره صـاحب الفخري، فإن بغداد الغربية والشرقية كانت تتصلان بجسرين. ولم تكن بغداد الشرقية القديمة أو بغداد الرصافة ذات أهمية كبيرة في ذلك الوقت، ولم يكن باقياً منها إلا المحلة التي كانت قد نشـأت حول قبر أبي حنيفة النعمان بن ثابت، كما كان إلى الجنوب منها مسجد الرصافة وحوله قبور الخلفاء العباسيين. كما كانت إلى الشرق منها محلة دار الروم التي كان يقيم بها النصارى الذي يعتنقون المذهب النسطوري.

منظر – 21 –

حكم المستعصم ببغداد

أ- أخلاقه وصفاته:

تولى المستعصم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 640هـ، وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية أشـهر وأياماً. وقد ذكر المؤرخون أنه كان تقياً ورعاً متمسـكاً بمذهب أهل السـنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده، كما ذكروا أمثلة تبين رقته ولطف حسـه، منها عدم سـيره على طريقة من سـبقه من الخلفاء في حبس وغير ذلك، وتمن عليه ذلك بأغلى الأثمان وأرسـله إليه شـيئاً نزراً، وألزمه أن يكتب بخطة بقبض وديعته وأنه ما بقي يسـتحق عند الخليفة شـيئاً، فكتب خطة بذلك كرهاً

وسار عن بغداد.

وقد انتقد صاحب فوات الوفيات (ابن خلكان) الخليفة المستنصر فقال ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكفاه عاراً وشناراً. والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله، فقد كان من أجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك.

كما أن السيوطي في تأريخ الخلفاء رماه بالضعف وحقره كل التحقير، فقال عند كلامه على الخليفة المستنصر وكان له (أي المستنصر) أخي قال له الخفاجي فيه شهامة زائدة وكان يقول لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم. فلما مات المستنصر لم ير أولادهم مدة خلافاتهم، ومنها أنه دخل خزانة الكتب ووجد خويدماً نائماً فانسحب وأمر بإيقاظه برفق وهو بعيد حتى لا يذعر، ولم في الوقت نفسه لم يضنوا بإظهار صفاته السيئة التي لا تؤهله للحكم والتي تنذر بفشله المريع في إدارة شؤون البلاد، ومما ذكروه في هذا الصدد أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة كثير الغفلة قليل البطش، محباً للهو يقضي أكثر أوقاته في سماع الأغاني والتفرج على المساخر. هذا إلى أنه كان بخيلاً لدرجة الشح، يدل على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك على أثر نزاع بينه وبين الناصر يوسف صاحب حلب ترك بلده وذهب إلى الخليفة المستعصم ليستعين به في مصيبته فأودع لديه وديعة من الجواهر تبلغ قيمتها ما ينيف على مائة ألف دينار على أمل استردادها عند تحسن الأحوال، ولما تحسن حاله وطلبها من الخليفة أخذ يماطله، ولما ألح عليه أرسل من حاسبه على ما وصله في ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب والعليف والتبن الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفاً منه وأقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً من هلاك المسلمين في مدته وتغلب التتار.

ولم ينس ابن طباطبا أن ينال منه كما نال منه غيره، بل وحاول أن يكون أوسع منهم خطى في هذا السبيل فانتقض من عمله ما يشتم منه البعض فائدة ما وذلك في قوله وكان يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة. ولكنهم جميعا كانوا سطحين في نقدهم، ولم يهتم صاحب فواق الوفيات بغير الناحية الخلقية التي يتجه إليها مؤرخو العرب دائماً في كلامهم.

ب- الحالة الداخلية في عهده:

ازدادت حالة العراق الداخلية في عهد المستعصم سوءاً بسبب ضعف الخليفة وما اجتمع فيه من الصفات السيئة التي جرت عليه وعلى بغداد كثيراً من الويلات وانتهت بقتله والقضاء على نفوذ أسرته. فقد كانت قلة معرفة المستعصم بتدبير الملك وانصرافه عن إدارة شؤون البلاد وضعف إرادته سبباً في استخفاف أعوانه به وطمعهم فيه وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه، ثم أدى ذلك إلى تنازعهم فيما بينهم وانصرافهم عن شؤون الحكم، ومن هنا كان استهتار العامة بالحكومة وكثرة الفتن وتفشي القلاقل ببغداد. كما أن نجله كان سبباً في إضعاف الجيش.

أما فيما يخص النزاع بين الرؤساء فيتضح عند موت الخليفة المستنصر سنة 640هـ، إذ اتفق الدفتر دار أيبك وكان رجلاً كبير المطامع مع الشرابي على اختيار ابنه أبي أحمد بدلاً منه، وذلك لما يعرفه فيه من الضعف والانصراف إلى اللهو، وحتى تتهيأ له الفرصة لتوسيع سلطته والاستئثار بتصريف الأمور. وقد تمكن من تنفيذ رغبته هذه، وتولى أبو أحمد الخلافة باسم المستعصم، كما أبعد عمه الخفاجي عنها وكان رجلاً قوي الشكيمة. وقد سارت الأمور كما يشتهي الدفتر دار سنتين استوزر فيهما المستعصم نصير الدين أحمد بن الناقد وزير أبيه، فلما استوزر بعد ذلك مؤيد الدين محمد بن العلقمي سنة 643هـ تغيرت الحال لأنه ترك لهذا الوزير الأمور كلها يديرها كما يشاء. كما أن هذا كان كبير المطامع فتدخل في كل صغيرة وكبيرة وتعرضت بذلك سلطة الدفتر دار للضياع.

غضب الدفتر دار لسلطته المهددة وبدأ التنافس يشتد بينه وبين الوزير مؤيد الدين محمد بن العلمي. ولما كان الخليفة يحب وزيره فقد رأى الدفتر دار أن خير طريقة لإبعاد الوزير هي الإرهاب، وقد سلك لهذا الغرض طريقاً غير شريف فجمع حوله كثيراً من العيارين وأخذ يهدد الأمن، ولما أعيته الحيل أخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة وإقامة آخر مكانه. أما الوزير فقد كان يقظاً لم تفته أعمال الدفتر دار وحاول أن يقضي عليها. فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضي عليها، فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضي على مدبريها، وهكذا صرنا نرى الاثنين يواجه كل منهما الآخر.

وقد كان النجاح حليف الدفتر دار لأن الخليفة خاف من مؤامرته ودخل الرعب إلى قلبه حين رأى أتباعه الكثيرين من العيادين، ولذلك استدعاه إليه وأخبره بما نقله إليه الوزير وأكد له أن ثقته منوطة به، وأنه لا يسمع ما يقال عنه. ولم يفعل ذلك فحسب بل عندما رأى الدفتر دار بعد ذلك يعاود

خطته الأولى ويجمع أعوانه ويستعد لمهاجمته كتب بيده إقراراً ذكر فيه أنه يعتقد أن كل ما قيل عنه من قبيل المكائد والأكاذيب وأن ثقته فيه تامة كما أعطاه أماناً تاماً ثم أحضره إليه وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة وتخلى عن الوزير ابن العلقمي.

أن الخلاف بين الوزير والدفتر دار جر البلاء العظيم على بغداد، وذلك لأن جر البلاء العظيم على بغداد، وذلك لأن الدفتر دار عندما كان في أول بعيداً عن الخليفة كان يجمع حوله العيارين الذين يعيشون فيها فساداً والذين نشروا الفوضى في ربوعها حتى من أهلها حكومة العباسيين. كما أنه بعد أن أصبح الأمر له وقربه الخليفة إليه واستراح أهل بغداد من شر العيارين الذين كانوا يديرون المؤامرات ويزعزعون الأمن خنق الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي لفقد سلطته وانتصار منافسه عليه وأصبح يتحين الفرص لاسترداد سلطته أو الثأر لنفسه. فلما هاجم المغول لم يخف إلى الدفاع عنها.

ضعف الجيش:

لم يكن الجيش العباسي في أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين قوياً بمعنى الكلمة. وقد رأيان كيف أن الخلافة في أيام الخليفة الناصر لم تعتمد عليه في القضاء على سلاجقة فارس، كما أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الجيوش الخوارزمية في أيام الناصر والمستنصر. ولكنه كان على كل حال قوة ثانوية وانتصر انتصارات لا بأس بها فقضى على بعض الخارجين في الداخل، كما انتصر في خوزستان على جيوش خوازرمية صغيرة وصد غارات مغولية متعددة.

وفي أوائل حكم الخليفة المستعصم ظل الجيش العباسي على حاله هذه وانتصر سنة 643هـ على المغول عند بعقوبا من أعمال بغداد. ولكنه بعد ذلك أخذ في الضعف شيئاً فشيئاً. ويرجع هذا الضعف إلى أسباب متعددة منها أن المستعصم كان بخيلاً جداً محباً لجمع المال فلم ينفق على الجيش اللازم. وقد وبخه على عمله هذا عدوه هولاكو بعد أن وقع بيده. فقد ذكروا أنه عندما استحوذ على ما كان لديه من الكنوز؛ أمر بأن يقدم للخليفة من هذه الكنوز طعاماً، لما قال له الخليفة إن الكنوز لا تزيل جوعاً رد عليه بقوله إذا كانت الكنوز لا تسد الرمق، وإذا كانت لا تحفظ الحياة، فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو إلى جنودي ليسموك.

أضف إلى ذلك أن مؤيد الدين ابن العلقمي بعد أن رأى نفوذه قد ولى وأن الخليفة مال إلى أيبك

الدفتر دار الصـــغير دونه، وأن هولاكو مقبل على بغداد بجيشـــه المظفر، أخذ يفكر في عمل شـــيء يستدر به عطف الفاتح فأمر بتسريح جيش الخلافة. وسواء أكان ذلك في ثم بعد أن أقنع ابن العلقمي الخليفة بأن الأمراء المســلمين التابعين له كثيرون وإنهم إذا ما حاق الخطر بالبلاد مســتعدون للدفاع عنها بجيوشهم، أم بعد أن أقنعه بأن الجيش يتكلف كثيراً من المال وأن الأفضل أن يسترضي المغول بالمال المتوافر من تسريحه.

فإن جيش الخلافة بعد أن كان في أواخر أيام المستنصر وأول أيام المستعصم يبلغ فإنه ألف فارس، صار دون العشرين ألفاً.

اضطراب الأمن في بغداد:

جعلت المنازعات بين الأحناف والحنابلة الذين كانوا مصدر اضطراب لبغداد، وبين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون ضاحية الكرخ الغربية، ومعظم المعارك بين الرعاع والطبقات الغنية – حياة المستعصم عبئاً ثقيلاً.

أما المعارك بين أهل السنة والشيعة، فقد كانت لا تنقطع قبل أيام المستعصم لما بين الفريقين من حزازات واحن كانت تنفجر لأوهن الأسباب، غير أنها كثرت كثرة مزعجة في أيام المستعصم.

وقد تكون الفتنة التي وقعت بين الفريقين سنة 655هـ من أهم هذه المعارك؛ لأنها امتازت عما عداها بتدخل عسكر الخليفة فيها وانتصاره لأهل السنة. وقد ذكروا أن أبا بكر ابن الخليفة وركن الدين الدويدار أمرا العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا أعراض النساء وركبوا منهن الفواحش وقتلوا كثيراً من الرجال. أضف إلى ذلك أن هذه الفتنة كانت السبب المباشر الذي جعل الشيعة يقفون موقف العداء للعباسيين عندما هاجم المغول بغداد.

ولم تكن المنازعات الطائفية هي وحدها السبب في اضطراب الأمن في بغداد، بل إن المنافسة بين الرؤساء كانت في وقت من الأوقات من أكبر العوامل التي أدت إلى هذا الاضطراب، ذلك حين كان أعوان الدفتر دار الصـغير من العيارين يهاجمون الأبرياء ويقبضـون عليهم ويملأون جو بغداد بفضـائهم وحشـة ورهبة، وقد بلغ من أمرهم أن الخليفة المسـتعصـم فزع منهم وأمر فخر الدين الدامغاني رئيس الإدارة باتخاذ ما يلزم للقضاء عليهم. ولم يكن إرضا الدفتر دار بتقريبه إلى الخليفة قاضـياً على مشـاغباتهم مرة واحدة بل لا بد أنهم وقد تشـبعوا بروح الفوضـى مدة من الزمن كانوا

يهددون الأمن بين حين وآخر.

الحالة الخارجية:

ظلت الخلافة في عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وبما كان لها في نفوس المسلمين من احترام وقدسية. غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الإسلامي بعد زوال دولة السلاجقة في فارس والدولة الخوارزمية، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر في ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم والأيوبيين، ثم كان ما بينه وبين الممالك الذين خلفوهم على عرش مصر من علاقات.

العالم الإسلامي:

طرأ على العالم الإسلامي في تلك الفترة كثير من الأحداث، وجرت به كثير من التغيرات أدت جميعها إلى إضعافه وفل شوكته، وإننا لا نكاد نعثر على دولة من بين دولة قوية الجانب نافذة السلطان بل إننا لا نكاد نجد واحدة من بين هذه الدول لا يتغلغل فيها النفوذ المغولي ولا يخفيها شبح المغول.

مصر:

كان الحكم في مصـــر في ذلك الوقت للأيوبيين أولاً ثم بعد ذلك للماليك، أي أن نظامه لم يكن مستقراً. وقد حكم من الأيوبيين نجم الدين أيوب من سنة 637هـ حتى 647هـ وكان قوي الشكيمة تمكن من الاحتفاظ بمركزه في مصـــر والشـــام، على الرغم من أن الفرنجة هاجموا مصـــر في آخر أيامه. وبعد موته استدعى المماليك البحرية – الذين كان الصالح نجم الدين قد استكثر منهم في جيشه – ابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا، ليخلف أباه وليقف أمام الفرنجة.

على أن حكم الملك المعظم توران شـــاه لم يطل، لأنه بعد أن انتصـــر على الفرنجة منه خيفة وقتلوه سـنة 648هـــ ثم ولوا شـجرة الدر حكم البلاد – وكانت أرملة الصـالح أيوب – كما جعلوا عزالدين أيبك التركماني مقدم العسكر، وبذلك انتهى عهد الأيوبيين في مصر.

بدأ عهد المماليك في مصـــر عند قتل الملك المعظم، على أن الأمور لم تسـتقر لهم فيها إلا بعد مدة طويلة، لأن المدة من سنة 648هـ حتى 656هـ كانت تسودها الاضطرابات والفتن، فقد تزوج أيبك التركماني من شجرة الدر في 19 – ربيع الآخر سنة 648هـــ ثم خلعت شجرة الدر من الملك بعد أن حكمت نحو ثمانين يوماً. وأصـــبح عزالدين أيبك التركماني في الملك ولقب بالملك المعز في آخر شـهر ربيع الآخر. وبعد ذلك أشـرك المماليك مع الملك المعز أحد أفراد أسـرة بني أيوب وهو الملك الأشـرف موسـى ابن الملك الناصـر يوسـف حتى يجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله وذلك في الثالث من جمادى الأولى سنة 648هـ. كما أن المماليك في اليوم السادس من جمادى الأولى نادوا في القاهرة بأن البلاد للخليفة المسـتعصـم بالله العباسـي وأن الملك المعز نائبه بها. وبعد ذلك صـار الأمر للملك المعز والأشـرف موسـى من الخطبة وانفرد الملك المعز باسـم السـلطنة. وفي سنة 655هـــ قتل الملك المعز بتدبير شجرة الدر وتولى بعده ابنه المنصور نور الدين علي وعمره خمس عشرة سنة تقريباً وظل في الملك سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام حتى قبض عليه الأمير سيف الدين قطز يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة سنة 657هـ.

أن هذه الفترة كانت فترة مضـطربة لا يتوافر فيها شـيء من الاسـتقرار وتتوالى فيها الحوادث سراعاً.

بلاد الشام:

تمكن الأيوبيين في هذه الفترة من الاحتفاظ بنفوذهم في الشـام، ذلك أن الناصـر صـلاح الدين يوسف الذي أصبح صاحب حلب منذ سنة 634هـ بعد أن قتل المماليك البحرية الملك المعظم توران شاه في مصر سنة 648هـ استولى على دمشق في نفس السنة، ثم حاول بعد ذلك عدة مرات أن يستولي على مصر، ولكن جيوش المماليك صدته. على ان قوة الناصر يوسف لم تكن كبيرة كما أنه كان يهاب المغول. وكان قد وصله من قبل القان ملك التتر طمغا (براءة) صورة أمان، فصار يحملها في حياصته (حزامه) وسيّر إلى القان هدايا كثيرة. كما أنه أرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو سنة 656هـ ومعه الهدايا وطلب منه نجدة المماليك.

آسيا الصغرى:

لقد هزم المغول غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة سنة 640هـ واضطروه إلى دفع جزية سنوية، وقد مات غياث الدين سنة 643هـ، وخلفه على العرش ابنه الأكبر عزالدين كيكاوس الثاني، وبدأت بذلك فترة كلها منازعات واضطرابات زادت في ضعف دولة الروم السلاجقة وخضوعها للمغول. ذلك أن غياث الدين كان له ولدان آخران غير عزالدين أحدهما علاء الدين والثاني ركن الدين لم يرضيا بانفراد عزالدين بالسلطة دونهما. وكان أول الخارجين على عزالدين أخوه ركن الدين الذي سار إلى الخان المغولي كيوك وطلب معونته، وكان من أثر ذلك أن يستقر بذلك وتجدد النزاع بين الأخوين وانتصر عزالدين على ركن الدين وأسره وحبسه.

وقد كان من المصادفات أن وصل في ذلك الوقت القائد المغولي بيجو نويان إلى آسيا الصغرى بأمر الخان مانجو ليقوم بأعما الفتح والتوسع. فطلب من عزالدين أن يقدم له ولجنوده مشتى (سنة 654هـ) ولما لم يستجب عزالدين للقائد المغولي قامت الحرب بينهما وانتهت بهزيمة عزالدين وفراره إلى الإمبراطور البيزنطي آلا شكري في نيقية، فأخرج بيجو نويان ركن الدين من سجنه وولاه السلطنة في نفس هذه السنة (654هـ). وقد تبع ذلك رحيل المغول عن البلاد ورجوع عزالدين إلى قونية وقيام النزاع بين الأخوين مدة خربت فيها بلاد سلطنة الروم. ولم ينته إلا في سنة 656هـ. حين اتفق الأخوان على جعل نهر قزل أرمق حداً فاصلاً بين أملاكها. على أن عزالدين وأخاه أرادا أن يعطيا هذا الاتفاق صفة عملية، فذهب إلى هولاكو وهو بهمذان بعد أن ترك بغداد وحصلا على موافقته.

بلاد الجزيرة:

لم يكن في بلاد الجزيرة في ذلك الوقت (640-656هـ) قوة إسلامية كبيرة فقد زال الفرع الأيوبي الذي كان فيها سنة 643هـ حين قضى المغول على مظفر الدين غازي، كما أن قوة مظفر الدين كوكبري صاحب أربل انتهت بموته سنة 630هـ وأصبحت أربل من بعده خاضعة لنواب الخليفة العباسي. ولم يبق هناك إلا أتابكية الموصل التي كانت قد آلت إلى بدر الدين لؤلؤ خادم أسرة زنكي ووزير عدة أفراد منها بعد موت ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين ووصول التقليد بولايته إياها من الخليفة سنة 631هـ، وظل بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل طوال خلافة المستعصم لا يشاركه في ذلك إنسان بل إنه ملك جزيرة ابن عمر التي كانت تقع على دجلة شمالي الموصل من صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من سلالة أتابك زنكي وأمر بإغراقه. على أن ذلك ليس معناه أن قوة بدر الدين لؤلؤ بلغت الذروة، إذ أنه كان يخاف المغول ويهابهم، حتى إنه رسل ابنه إسماعيل بالهدايا إلى هولاكو وهو بهمذان على أثر انتهائه من فتح بغداد ثم يذهب بنفسه بعد ذلك ليقدم له الخضوع.

الإسماعيلية:

لم يكن الإسماعيلية أحسن حالاً من غيرهم من المسلمين، ذلك أنه بعد موت رئيسهم جلال الدين حسن سنة 618هـ ترك خلفه علاء الدين محمد (618-653هـ). سياسة الرجوع إلى أحكام الإسلام ومصادقة المسلمين وسار تبعاً لعقائد الإسماعيلية التبي تبيح التمتع بالملذات والبعد عن أحكام الإسلام، هذا إلا أنه أصيب بمرض عقلي، وأصبحت أوامره ونواهيه بعيدة عن جادة الصواب واضطربت شؤون طائفته واعتلت إدارة حكومته حتى كثر اللصوص في أملاكه. وبعد موته سنة 653هـ خلفه ابنه ركن الدين خوارزم شاه الذي يقال إنه حرض على قتل أبيه فسار إلى الاستبداد وانتهى أمره بقضاء المغول عليه وعلى طائفته سنة 655هـ.

علاقة الدولة الإسلامية بالخلافة العباسية في أيام المستعصم:

تكاد العلاقات بين الخلافة العباسية في أيام المستعصم (640-656هـ) وبين العالم الإسلامي تنحصر فيما كان بينه وبين أمراء بني أيوب في مصر والشام، ثم بينه وبين المماليك في مصر بعد زوال سلطان الأيوبيين منها بقتل الملك الأعظم توران شاه سنة 648هـ. وليس العيب في هذا راجعاً

إلى الخليفة المستعصم، لأنه لا يكون من المستبعد أن يكون هذا الخليفة قد فكر في السير على طريقة الخليفة الناصر (575-622هـ) ومالت نفسه إلى نشر نفوذ الخلافة على العالم الإسلامي كما كانت الأمور في دولة الروم السلاجقة تتحرك بالأصابع المغولية وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير في طريق غير طريق المغول.

ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد تعلق – حين رأى المغول يغيرون على بلاده مرة بعد أخرى، ويصبحون المحركين للأمور في دولة الروم السلاجقة – بآخر خيط من خيوط النجاة، وأراد أن يحافظ على الحكومات الإسلامية التي كانت في مصر والشام، حتى تمد له يد المساعدة حين يشتد به الخطر المغولي. كما لا يبعد أيضاً أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله نرى الخليفة يقوم بمحاولات عدة للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب عما لملك المعز أيبك في مصر من جهة أخرى. فقد أرسل الخليفة المستعصم سنة 646هـ الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبي سعد البادراني لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف – وكان في ذلك الوقت صاحب حلب فقط – وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على أثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها واستردادها من الملك الناصر، ونجح الرسول في مهمته وتقرر الصلح، كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة 650هـ إلى مصر للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر يوسف، وكان في ذلك الوقت قد أصبح صاحب دمشق وحلب معاً على أثر ما كان من سير الملك الناصر سنة 648هـ إلى مصر ومعه كثير من أمراء بني أيوب بغية الاستيلاء عليها وملاقاة الملك المعزلة ثم انتصاره عليه واضطراره إلى العودة إلى بلاد الشام. وقد نجح الرسول أيضاً في تقرير الصلح بين الملكين سنة 651هـ. وأرسل الخليفة الرسول نفسه مرة ثالثة سنة 654هـ. لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسيير الناصر العساكر سنة 653هـ ومعهم بعض المماليك البحرية الذين كانوا قد تركوا مصر عندما قتل المعز الأمير أقطاي خوفاً من ازدياد نفوذه سنة 652هـ، ونجح الرسول أيضاً كعادته في عقد الصلح.

ويرجع نجاح الخليفة المستعصم في محاولته التوفيق بين مصر والشام في ذلك الوقت إلى أن الأيوبيين سواء في مصر أو في الشام كانوا يسيرون على طريقة من سبقهم من حيث احترام الخليفة العباسي وتلقي الخلع منه. وهكذا كان يفعل المماليك حين أصبح لهم الأمر في مصر. فقد بعث الخليفة المستعصم سنة 642هـ جمال الدين عبد الرحمن بن يحيى الدين ابن الجوزي إلى الملك الصالح نجم

الدين أيوب ومعه الخلع التي كانت تتكون من عمامة سوداء وفرجية مذهبية وثوبين من ذهب وسيف مذهب وطوق ذهب وعلمين من حرير وحصان فلبسها الملك نجم الدين أيوب.

كذلك بعث الخليفة المستعصم ابن الجوزي مرة أخرى إلى الملك الصالح سنة 643هـ ومعه التقليد والتشريف الأسود، وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركوب بحلية ذهب. ونصب المنبر وصعد عليه الرسول وقرأ التقليد في الدهليز السلطاني والسلطان قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتي، ولم ينس الصالح أيوب ذلك للخليفة المستعصم، فلما حضرته الوفاة سنة 647هـ لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيها رأيه.

ولم يجد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والإخلاص لها في ذلك العهد، فلما قتلوا الملك المعظم توران شاه سنة 648هـ وتركوا جثته في المنصورة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة فقبلوا شفاعته ودفنوه. هذا إلى أنهم عندما وضعوا على عرش مصر شجرة الدر بعد قتل الملك المعظم توران شاه ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم، وأرسل إليهم كتاباً يذكر عليهم فيه تعيين امرأة ويقول إن كانت الرجال عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.

تقبلوا نصيحته وعزلوا شجرة الدر عن الحكم وعينوا عزالدين أيبك التركماني في الملك ولقبوه الملك المعز، وذلك في أواخر ربيع الآخر سنة 648هـ.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد، بل إنهم في يوم الأحد السادس من جمادى الأولى نادوا في القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم العباسي وأن المعز أيبك نائبه بها. وفي سنة 654هـ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادراني رسول الخليفة تجديد الصلح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام، أرسل الملك المعز بصحبته الأمير شمس الدير سنقر الأقرع رسولاً إلى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر.

على أن الخليفة المستعصم إذا كان قد نجح في وضع نفسه في موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح أيوب ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز أيبك، وإذا كان قد نجح أيضاً في الاحتفاظ للخلافة بالاحترام في مصر والشام وجعل حكامها يلتمسون خلع الخلافة

وتقاليدها، فإن نجاحه لم يكن عظيماً لأن الملك الناصر لم يكن شديد القوى كما أن المماليك لم يكونوا قد استقروا بعد في الحكم.

بغداد

النار الأولى

حينما أشعل الخليفة المنصور بذور القطن على الرماد ليرى هيأة بغداد قبل بنائها.. كانت النار الأولى.

وحينما جاء جنود بوش وحرقوا بغداد بنيران أسلحتهم كانت النار الأخيرة. وما بين النارين كانت نيران هولاكو.

ضاقت نفس أبي جعفر المنصور بالهاشمية التي انتقل إليها من الأنبار والتي ابتناها أخوه أبو العباس وأقام بها في نواحي الكوفة بعد أن شغب عليه الراوندية، وهم قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هم المنصور، وأن جبرائيل هو الهيثم ابن معاوية، فلما ظهروا أتوا قصر المنصور وقالوا: هذا قصر ربنا.

- المنصور يأخذ رؤساءهم ويحبس منهم مائتين.

- أصحاب الراوندية يأخذون نعشاً خالياً حملوه ومشوا به حتى إذا صاروا على باب السجن رموا النعش وحملوا على الناس ودخلوا السجن وأخرجوا أصحابهم وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل. فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد.

- المنصور يخرج ماشياً ولم يكن في قصره دابة يركبها، ومنها قرر المنصور أن تربط دابة معه في القصر.

- المنصور يأمر بداية يركبها وهو يريدهم فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه.

- معن بن زائدة الشيباني – وكان مستتراً من المنصور بقتاله مع ابن هبيرة والمنصور شديد الطلب له، وقد بذل فيه مالاً كثيراً، فلما كان هذا اليوم حضر عند المنصور متلثماً وترجل وقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسناً، وكان المنصور راكباً على بلغة ولجامها بيد الربيع حاجبه، فأتى معن وقال:

تنح فأنا أحق بهذا اللجام منك في هذا الوقت وأعظم غناء.

- المنصور يقول: صدق فادفعه إليه، فلم يزل يقاتل حتى تكشفت الحال وظفر بالروندية.

- المنصور يسأله: من أنت؟

معن يجيبه: طُلْبتُكَ يا أمير المؤمنين معن بن زائدة.

المنصور يقول: آمنك الله على نفسك، ومالك وأهلك، مثلك يصطنع.

- أبو نصـــر مالك بن هيثم يقف على باب المنصـــور ويقول: أنا اليوم بواب. ونودي في أهل السوق فرموهم وقاتلوهم، وفتح باب المدينة فدخل الناس.

خازم بن خزيمة حمل عليهم حتى ألجأهم إلى الحائط.

- الناس حملوا عليه فكشفوه مرتين.

- حازم يقول للهيثم بن شعبة: إذا كروا علينا فاستبقهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فاقتلهم.

الناس يحملون على خازم فاطرد لهم وصار الهيثم من ورائهم فقتلوا.

- عثمان بن نهيك يجيء فيكلمهم فرموه بســهم عند رجوعه فوقع بين كتفيه فمرض أياماً ومات منها.

- المنصور يصلي على ابن نهيك.

- المنصور يحل عيسى بن نهيك على الحرس، فكان على الحرس حتى مات.

فجعل على الحرس أبا العباس الطوسي وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية بالكوفة.

المنصـور بعد أن صـلى الظهر دعا بالطعام وأحضـر معناً ورفع منزلته وقال لعمه عيسـى بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أبا العباس أسمعت بأشد رجل؟

قال نعم. قال: لو رأيت اليوم – معناً لعلمت أنه منهم، فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وإني لوجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاسـتهانة بهم وشـدة الأقدام عليهم رأيت ما لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني ما رأيت مني.

وكره المنصـور لذلك سـكناها ولجوار أهل الكوفة أيضـاً، لأنه كان لا يأمن أهلها على نفسـه، وكانوا قد أفسدوا جنده.

ركب بغلته وخرج هو بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه هو وجنده.

انحدر بالركب إلى جرجان وهي بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

ثم أصـعد إلى الموصـل وسـار نحو الجبل في طلب منزل يبني به سـطر – جندي من الذين يرافقون المنصور يتخلف في المدائن لرمد لحقه.

الطبيب الذي يعالجه يسأله عن سبب حركة المنصور.

الجندي يخبره الخبر.

الطبيب يقول للجندي:

إنا نجد في كتاب عندنا أن رجلاً يدعى (مقلاصـاً) يبني مدينة بين دجلة والصـراة تدعى (الزوراء)، فإذا أسـسـها وبنى بعضـها، أتاه فتق من الحجاز، فقطع بناءها وأصـلح ذلك الفتق، ثم أتاه فتق من البصـرة أعظم منه، فلم يلبث الفتقان أن يلتئما ثم يعود إلى بنائها، فيتمه ثم يعمر عمراً طويلاً، ويبقى الملك في عقبه.

الجندي بعد شفائه من رمده، يقدم إلى عسكر المنصور وهو بنواحي الجبل فيخبره الخبر.

المنصور يرجع ويقول:

إني أنا كنت أدعى مقلاصاً وأنا صبي، ثم زال عني.

المنصور يسير حتى ينزل الدير جوار قصره المعروف بالخلد.

المنصور يستدعي صاحب الدير والبطريق صاحب رحا البطريق، وصاحب بغداد، وصاحب المخرّم وصاحب بستان النفس وصاحب العتيقة ويسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام فيخبره كل واحد منهم بما عنده.

الاختيار يقع على صاحب بغداد، المنصور يحضره ويشاوره.

صاحب بغداد يقول:

يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة، وما تختار منها، وإني أرى أن تنزل أربعة طساسيج.

في الجانب الغربي طسوجان وهما بـ (قطربُل) بين بغداد وعكبربا وبادوريا (هي طسوج كورة الأسنان بالجانب الغربي من بغداد).

وفي الجانب الشـــرقي طســـوجان وهما نهر بوق، وكلوا ذي فيكون بين نخل وقرب الماء وإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كل في طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الأُخر العمارات. وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من الشام، والرقة، والغرب في طوائف مصـــر، وتجيئك الميرة من الصـــين، والهند، والبصـــرة، وواســـط، وديار بكر، والروم، والموصـــل وغيرها في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تامرا حتى يتصل بالزاب، فأنت بين أنهار لا يصـل إليك عدوك إلا على جسـر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسـر وأخربت القنطرة، لم يصـل إليك.

ودجلة والفرات والصـــراة خنادق هذه المدينة، وأنت متوســـط للبصـــرة، والكوفة، وواســـط، والموصل، والسواد، وأنت قريب من البر، والبحر، والجبل.

المنصور يزداد عزماً على النزول في ذلك الموضع.

- المنصور يبتدأ ببناء بغداد في ذلك الموضع الذي دله عليه الرهبان.

- المنصور بعد أن عزم على بناء بغداد، شاور أصحابه وكان فيهم خالد بن برمك، فأشار أيضاً بذلك وهو خطها، فاستشاره في نقض المدائن وإيوان كسرى ونقل نقضها إلى بغداد فقال: لا أرى ذلك لأنه علم من أعلام الإســـلام يســـتدل به الناظر على أنه لم يكن ليزال مثل أصـــحابه عنه بأمر الدنيا، وإنما هو على أمر دين، ومع هذا ففيه مصلى علي بن أبي طالب.

المنصور يقول لخالد: لا أبيت يا خالد إلا بالميل إلى أصحابك العجم.

المنصـور يأمر بنقض القصـر الأبيض فنقضـت ناحية منه وحُمِل نقضـه فنظر مكان مقدار ما

يلزمهم له أكثر من ثمن الحديد، فدعا خالد بن برمك فأعلمه ذلك.

خالد بن برمك يقول للمنصـــور: يا أمير المؤمنين قد كنت أرى أن لا تفعل، فأما إذ فعلت فإني أرى أن تهدم لئلا يقال: إنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك. فأعرض عنه المنصـــور وترك هدمه، ونقل أبواب مدينة واســط فجعلها على بغداد، وباباً جيء به من الشــام، وباباً آخر جيء به من الكوفة كان عمله خالد بن عبد الله القسري.

وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السـلطان من بعض. وعمل لها سـورين السـور الداخلي أعلى من الخارج، وبنى قصـره في وسـطها والمسـجد الجامع بجانب القصـر، وكان الحجاج بن أرطأة هو الذي خط المسـجد، وقبلته غير مسـتقيمة يحتاج المصـلي أن ينحرف إلى باب البصرة لأنه وضع بعد القصر. وكان القصر غير مستقيم على القبلة، وكان اللبن الذي يبنى له ذراع في ذراع ووزن بعضها لما نقض، فكان وزن لبنة منه مائة رطل وستة عشر رطلاً.

وكانت مقاصـير جماعة من قواد المنصـور وكتابه تشـرعُ أبوابها إلى رحبة الجامع، فطلب إليه عمه عيســى بن علي أن يأذن له في الركوب من باب الرحبة إلى القصــر لضــعفه فلم يأذن له قال: فاحســبني رواية فأمر الناس بإخراج أبوابهم من الرحبة إلى فصــلان الطاقات. وكانت الأســواق في المدينة، فجاء رسول لملك الروم: فأمر الربيع فطاف به في المدينة، فقال كيف رأيت؟ قال: رأيت بناءً حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوقة ولأن الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها، فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ.

وقيل: أن المنصـــور كان يتبع من خرج مع إبراهيم بن عبد الله، وكان أبو زكريا يحيى بن عبد الله محتسب بغداد له مع إبراهيم ميل، فجمع جماعة من السفلة فشغبوا على المنصور، فأسكتهم وأخذ أبا زكريا فقتله، وأخرج الأســواق، وأمر أن يجعل في كل ربع يقال يبيع البقل والخل وجعل الطريق أربيعين ذراعاً.

وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسـجد والقصـر والأسـواق والفصـلان والخنادق وأبوابها، أربعة آلاف وثمانمائة وثلاثين درهماً. وكان الأســتاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط فضــة والروز كاري بحبتين، وحاســب القواد عند الفراغ منها فألزم كلاً منهم بما بقي عنده فأخذه حتى أن خالد بن الصلت بقي عليه خمسة عشر درهماً فحبسه وأخذها منه.

- المنصور يكتب إلى الشام والجبل، والكوفة، وواسط والبصرة في معنى إنفاذ الصناع والفعلة، ويأمر باختيار قوم من ذوي الفضـــل، والعدالة، والفقه، وباختيار قوم من ذي الأمانة، والمعرفة بالهندسة.

- الذين أحضروا إلى الخليفة المنصور الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة.

- المنصور يأمر ببدء البناء فخطت المدينة وحُفِر الأساس وضُرب اللبن وطُبخ الآجر.

- المنصور يأمر بخط المدينة بالرماد.

- المنصور يدخل المدينة من أبوابها وفصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد.

- المنصور يأمر بجع حب القطن على الرماد وإشعاله بالنار.

- المنصور ينظر إليها وهي تشتعل ففهمها وعرف رسمها.

- المنصور يأمر بحفر الأساس على ذلك الرسم.

- المنصور يوكل التنفيذ بأربعة من قواده، كل قائد بربع ووكل أبا حنيفة بعدِّ الآجر واللبن.

- المنصور قبل ذلك قد أراد أبا حنيفة أن يتولى القضاء والمظالم، فلم يجب.

- المنصور يحلف على أبي حنيفة أنه لا يقلع عنه أو يعمل له.

- أبو حنيفة يجيبه إلى أن ينظر في عمارة بغداد ويعد اللبن والآجر بالقصب، وهو أول من فعل ذلك.

- المنصور يجعل عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعاً، ومن أعلاه عشرين ذراعاً، ويجعل القصب والخشب في البناء ويضع بيده أول لبنة قائلاً: بسم الله والحمد لله والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ويتابع: ابنوا على بركة الله.

- بناء السور يرتفع مقدار قامة.

محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان معارضاً للمنصور يظهر في الكوفة.

المنصـــور يقطع البناء ويقيم بالكوفة حتى يفرغ من أمر محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم

ويستخلف حين يشخص إلى الكوفة على إصلاح ما أعد أسلم مولاه.

- المنصـــور يســـتعمل على المدينة رياح بن عثمان المري ويعزل محمد بن خالد ابن عبد الله القسـري عنها، وكان سـبب عزله وعزل زياد قبله أن المنصـور أهمه أمر محمد، وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وتخلفهما عن الحضـور عنده مع من حضـره من بني هاشـم عام حج أيام السفاح سنة ست وثلاثين.

- محمد بن عبد الله يزعم أن المنصـور ممن بايعه ليلة تشـاور بنو هاشـم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطراب أمر مروان بن محمد.

- المنصور لما حج سنة ست وثلاثين سأل عن محمد وأخيه إبراهيم.

- زياد بن عبيد الله الحرثي يســـأله بما يهمك من أمرهما؟ أنا آتيك بهما وكان معه بمكة. فرده المنصور إلى المدينة.

- المنصور حين استخلف لم يكن همه إلا أمر محمد والمساءلة عنه وما يريد.

- المنصور يدعو بني هاشم رجلاً رجلاً يساله سراً عنه.

- كلهم يقول: قد علم أنك عرفته يطلب هذا الأمر فهو يخافك على نفســـه وهو لا يريد لك خلافاً وما أشـبه هذا الكلام إلا الحسـن بن زيد بن الحسـن بن علي بن أبي طالب فإنه أخبره خبره وقال له: والله ما آمن وثوبه عليك فإنه لا ينام عنك فأيقظ بكلامه من لا ينام، فكان موسى بن عبد الله بن الحسن يقول بعد ذلك: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا.

- المنصور يلح على عبد الله بن الحسن في إحضار ابنه محمد سنة حج.

- عبد الله يقول لسليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أخي بيننا من الصهر والرحم ما تعلم، فما ترى؟

- ســـليمان يقول: والله لكأنني أنظر إلى أخي عبد الله بن علي حين حالت المنية بينه وبيننا وهو يشـــير إلينا، هذا الذي فعلتم بي، فلو كان عافياً عفا عن عمه، فقبل عبد الله رأي ســـليمان وعلم أنه قد صدقه ولم يظهر ابنه.

- المنصــور يشــتري رقيقاً من رقيق الأعراب، ويعطي الرجل منهم البعير، والرجل البعيرين، والرجل الذود ويفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة.

- كان الرجل منهم يرد الماء كالمار وكالظال يسألون عنه.

- المنصـــور يبعث عيناً آخر يكتب معه كتاباً على ألســـن الشـــيعة إلى محمد يذكرون طاعتهم ومسارعتهم ويبعث معه بمال وألطاف.

- الرجل (العين) يقدم إلى المدينة ويدخل على عبد الله بن الحســن بن الحســن فســأله عن ابنه محمد، فذكر له فكتم له خبره، فتردد الرجل إليه وألح في المســاءلة فذكر أنه في جبل جيهنة فقال له: أمرر بعلي ابن الرجل الصــالح الذي يدعى الأعز وهو بذي الإبر فهو يرشــدك فأتاه فأرشــده، وكان للمنصــور كاتب على ســره يتشــيع فكتب إلى عبد الله بن الحســن يخبره بذلك العين. فلما قدم الكتاب ارتاعوا له وبعثوا أبا هبار إلى محمد وإلى علي بن الحسن يحذرهما الرجل.

- أبو هبار يخرج وينزل بعلي بن الحســن ويخبره، ويســير إلى محمد بن عبد الله في موضــعه الذي هو به فإذا هو جالس في كهف ومعه جماعة من أصـــحابه، وذلك العين معهم أعلاهم صـــوتاً وأكثرهم انبساطاً.

- العين لما رأى أبا هبار خافه.

- أبو هبار يقول لمحمد إلي حاجة، فقام محمد معه وأخبره الخبر.

- محمد يقول لأبي هبار ما الرأي؟

- أبو هبار: أرى إحدى ثلاث.

- محمد: وما هي؟

- أبو هبار: تدعيني أقتل هذا الرجل.

- محمد يرد عليه: ما أنا معارف دماً إلا كرهاً.

- أبو هبار: أثقله حديداً وتنقله معك حيث تنقلب.

- محمد: وهل لنا قرار مع الخوف والإعجال؟

- أبو هبار: نشده ونودعه عند بعض أهلك من جهينة.

- محمد: هذه إذاً.

- محمد وأبو هبار يرجعان، فيسأل محمد أصحابه: أين الرجل.

أصـــحابه: تركناه مهملاً وتوارى بهذا الطريق يتوضـــأ فطلبوه فلم يجدوه، فكأن الأرض التأمت عليه وسعى على قدميه حتى اتصل بالطريق، فمر به الأعراب معهم حمولة إلى المدينة فقال لبعضهم: فرغ هذه الغرارة فأدخلينها أكن عدلاً لصـاحبتها كذا وكذا ففعل وحمله حتى أقدمه المدينة، ثم قدم على المنصور وأخبره خبره كله ونسي اسم أبي هبار وكنيته وقال: وبار.

- أبو جعفر يكتب في طلب وبار المري فحمل إليه رجل اسمه وبر فسأله عن قصة محمد فخلف له إنه ألا يعرف من ذلك شيئاً فأمر وضرب سبعمائة سوط وحبس حتى مات المنصور.

- المنصـور يطلب حضـور عقبة بن سلم الأزدي فلما حضـر قال له: أريدك لأمر أنابه معني لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكونه وإن كفيتنيه رفعتك.

- عقبة بن سلم الأزدي: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فيّ.

- المنصور لـ (عقبة): اخفِ شخصك وأستر أمرك وأتني يوم كذا وكذا في وقت كذا.

- عقبة يأتيه في ذلك الوقت فيقول له المنصـــور: إن بني عمنا هؤلاء قد أبو إلا كيداً لملكنا واغتيالاً له، ولهم شـيعة بخراسـان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسـلون إليهم بصـدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم فاخرج بكســـى وألطاف وعين حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية، ثم تعلم حالهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر فأشخص حتى تلقى عبد الله بن الحسن متخشعاً ومتقشفاً، فإن جبهك – وهو فاعل – فاصبر وعاوده حتى يأنس بك ويلين لك ناحيته فإذا أظهر لك ما قبله فأعجل عليّ.

- عقبة يشخص حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب.

- عبد الله ينكر عقبة وينهره، ويقول: ما أعرف هؤلاء القوم.

- عقبة لم يزل يتردد إلى عبد الله.

- عبد الله يقبل كتاب عقبة وألطافه ويأنس به.

- عقبة يسأل عبد الله الجواب.

- عبد الله يقول: أما الكتاب، فإني لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم فأقرئهم السلام وأعلمهم إنني خارج لوقت كذا وكذا.

- عقبة يرجع إلى المنصور ويعلمه بخبر عبد الله.

- المنصور ينشئ الحج ويقول لعقبة: إذا لقيني بنو الحسن فيهم عبد الله بن الحسن فأنا مكرمه ورافع محلته وداع بالغداء، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتك فامثل بين يديه قائماً فإنه سيصرف عنك بصره فاستدر حتى ترمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك، ثم حسبك وإياك أن يراك ما دام يأكل.

- المنصور يخرج إلى الحج.

- بنو الحسن يلقون المنصور.

- المنصور يجلس عبد الله إلى جانبه ثم يدعو بالغداء فأصابوا منه ثم رفع.

- المنصور يُقبل على عبد الله بن الحسن فيقول له: قد علمت ما أعطيتني من العهود والمواثيق أن لا تبغيني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً.

- عبد الله يقول للمنصور: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

- المنصور يلحظ عقبة بن مسلم فاستدار حتى وقف بين يدي عبد الله فأعرض عنه فاستدار حتى قام وراء ظهره فغمزه بإصبعه فرفع رأسه فملأ عينه منه فوثب حتى قعد بين يدي المنصور فقال: أقلني يا أمير المؤمنين، أقالك الله.

- المنصور: لا أقالني الله إن أقلتك ثم أمر بحبسه. وكان محمد قدم قبل ذلك البصرة فنزل في بني راسب يدعو إلى نفسه، وقيل: نزل على عبد الله بن شيبان أحد بني مرة بن عبيد ثم خرج منها فبلغ المنصور مقدمه البصرة فسار إليها مجداً، فنزل عند الجسر الأكبر فلقيه عمرو بن عبيد فقال له:

يا أبا عثمان هل بالبصـرة أحد تخافه على أمرنا، قال: لا، قال: فاقتصـر على قولك وانصـرف، قال: نعم. وكان محمد قد ســار عنها قبل مقدم المنصــور. فرجع المنصــور واشــتد الخوف على محمد، وإبراهيم ابني عبد الله فخرجا حتى أتيا عدن، ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة.

- المنصور يحج فيقسم أموالاً عظيمة في آل أبي طالب.

- محمد وإبراهيم لم يظهرا.

- المنصور يسأل إياهما عبد الله عنهما.

- عبد الله يجيبه: لا علم لي بهما.

- المنصـور وعبد الله يتغالظان فأمصـه أبو جعفر المنصـور حتى قال له: أمصـص كذا وكذا من أمك.

- عبد الله يقول للمنصــور: بأي أمهاتي تمصــني؟ أبفاطمة بنت رســول الله ﷺ؟ أم بفاطمة بنت الحسين بن علي؟ أم بأم إسحاق بنت طلحة؟ أم بخديجة بنت خويلد؟

- المنصــور يرد عليه: لا بواحدة منهن ولكن بالحرباء بنت قســامة بن زهير – وهي امرأة من طيء.

- المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين دعني أضرب عنق ابن الفاعلة.

- زياد بن عبيد الله يقوم ويلقي عليه رداءه ويقول هبه لي يا أمير المؤمنين فأســتخرج لك أبنيه فتخلصـه منه.

- محمد وإبراهيم ابنا عبد الله تغيبا عند حج المنصور سنة 140هـ عن المدينة.

- والمنصور يحج بعدها فاجتمع أصحاب محمد وإبراهيم وأرادوا اغتيال المنصور.

- الأشتر عبد الله بن محمد يقول للمجتمعين: أنا أكفيكموه.

- محمد يقول: لا والله لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه لينقص ما كانوا أجمعوا عليه.

- يدخل أحد قواد المنصور من أهل خراسان اسمه خالد بن حسان ويدعى أبا العساكر على ألف

رجل.

- الخبر يصل المنصور فيطلب أبا العساكر فلم يظفر به، فظفر بأصحابه فقتلهم.

- القائد أبو العساكر يلحق بمحمد بن عبد الله بن محمد.

- المنصور يحث زياد بن عبيد الله على طلب محمد وإبراهيم.

- زياد بن عبيد الله يضمن ذلك للمنصور ويعده به.

- محمد يقوم إلى المدينة فيبلغ مقدمه زياد بن عبيد الله.

- زياد بن عبيد الله يتلطف بمحمد ويعطيه الأمان على أن يُظهر وجهه للناس.

- محمد يعد زياداً بذلك.

- زياد يركب مع المساء ويعد محمداً سوق الظهر.

- محمد يركب فيتصايح الناس: يا أهل المدينة: المهدي، المهدي.

- محمد وزياد يقفان فيقول زياد: أيها الناس هذا محمد بن عبد الله بن الحسن ويقول لمحمد: الحق بأي بلاد شئت.

- محمد يتوارى.

- المنصور يسمع خبر ما جرى.

- المنصور يبلغ أبا الأزهر إلى المدينة ويأمره أن يستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطلب وأن يقبض على زياد وأصحابه ويسير بهم.

- أبو الأزهر يقدم إلى المدينة فيفعل ما أمره به المنصور ويأخذ زياداً وأصحابه ويسير بهم نحو المنصور.

- زياد يخلف في بيت مال المدينة ثمانين ألف دينار.

- المنصور يسجنهم، ثم يمنَّ عليهم بعد ذلك.

- المنصور يستعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري ويأمره بطلب محمد بن عبد الله ويبسط يده في النفقة في طلبه.

- محمد بن خالد القسري يقدم إلى المدينة في رجب سنة إحدى وأربعين فيأخذ المال ويرفع في محاسبته أموالاً كثيرة أنفقها في طلب محمد.

أبو جعفر يستبطئ القسري ويتهمه.

- أبو جعفر يأمر القسري بكشف المدينة وأعراضها.

- القسري يطوف ببيوت الناس فلم يجد محمداً.

- المنصور لما رأى ما قد أخرج من الأموال ولم يظفر بمحمد استشار أبا العلاء وهو رجل من قيس عيلان في أمر محمد بن عبد الله وأخيه.

- أبو العلاء يقول للمنصور: أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فإنهم يطلبونهما بزحل ويخرجونهما إليك.

- المنصور يقول لأبي العلاء: قاتلك الله، ما أجود ما رأيت، والله ما خفي عليَّ هذا ولكني أعاهد الله لا أنتقم من بني عمي وأهل بيتي بعدوي وعدوهم، ولكني أبعث عليهم صعلوكاً من العرب يفعل بهم ما قلت.

- المنصور يستشير يزيد بن يزيد السلمي ويقول له: دلني على فتى مقل من قيس أغنيه وأشرفه وأمكنه من سيد اليمن – يعني ابن القسري.

- يزيد السلمي يقول: هو رياح بن عثمان بن حيان المري.

- المنصور يسير رياحاً أميراً على المدينة.

- رياح يضمن للمنصور أن يخرج محمداً وإبراهيم ابني عبد الله.

- رياح يسير إلى المدينة حتى إذا دخلها دخل دار مروان وهي التي كان ينزلها الأمراء ويقول لحاجب يقال له، أبو البختري: أهذه دار مروان؟

- الحاجب يجيبه: نعم.

- رياح يقول معقباً على الحاجب: أما إنها محلال مضعان ونحن أولى من يضعن منها.

رياح يقول لحاجبه بعد أن تفرق الناس عنه: يا أبا البختري خذ بيدي ندخل على هذا الشـــيخ – يعني عبد الله بن الحسن، فدخلا عليه فقال رياح: أيها الشيخ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة، ولا ليد ســلفت إليه، والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد وابن القســري، والله لأزهقن نفســك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم.

عبد الله بن الحسن يقول لرياح: نعم أما والله إنك لأزيرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة.

أبو البختري يقول: فانصـــرف والله رياح آخذاً بيدي أجد برد يده، وأن رجليه ليخطان الأرض مما كلمه.

- رياح يقول للمنصور: إن هذا ما أطلع على الغيب.

- المنصور: إيهاً ويلك فو الله ما قال إلا ما سمع فذبح كما تذبح الشاة.

- المنصـور يدعو القسـري ويسـأله عن الأموال ويضـربه ويسـجنه ويأخذ كاتبه زراعاً ويعاقبه ويكثر ويطلب إليه أن يذكر ما أخذ محمد بن خالد من الأموال وهو لا يجيبه، فلما طال عليه العذاب أجابه إلى ذلك، فقال له رياح: احضـــر الرفيعة وقت اجتماع الناس ففعل ذلك. فلما اجتمع الناس أحضـــره فقال: أيها الناس إن الأمير أمرني أن أرفع علياً ابن خالد وقد كتب كتاباً خان فيه، وإنا لنشهدكم أن كل ما فيه باطل، فأمر رياح فضرب مائة سوط ورد إلى السجن.

- رياح يجد في طلب محمد فيخبُر أنه في شـعب من شـعاب رضـوي جبل جهينة – وهو من عمل ينبع – فأمر عامله في طلب محمد، فهرب منه راجلاً فأفلت وله ابن صـغير ولد في خوفه وهو مع جارية له فسقط من الجبل فقطع فقال محمد:

منخرق السربال يشكو الوجى تنكبـــهُ أطرافُ مروٍ جذاد

قد كـــان في الموتِ له راحةً والموت حتمٌ في رقاب العباد

شرّدهُ الخـــوفُ فأزرى به كذلك مــن يكره حرَّ الجلاد

وبينا رياح يسير في الحرة إذ لقي محمداً فعدل محمد إلى بئر هناك فجعل يستقي، فقال رياح: قاتله الله إعرابياً ما أحسن ذراعه.

حبس أولاد الحسن:

يروى أن المنصور حبسهم، وقيل إن رياحاً هو الذي حبسهم.

- علي بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي يقول: حضرنا باب رياح في المقصورة، فقال الآن: من كان ههنا من بني الحسن فليدخل، فدخلوا من باب المقصورة، وخرجوا من باب مروان، ثم قال: من ههنا من بني الحسن فليدخل فدخلوا من باب المقصورة.

- الحدادون من بني مروان يدخلون.

- رياح دعا بالقيود فقيدهم وحبسهم.

- المحبوسون كانوا: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، إبراهيم ابن الحسن ابن الحسن، جعفر بن الحسن بن الحسن، سليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن، محمد وإسماعيل وإسحاق أبناء إبراهيم بن الحسن بن الحسن، عباس ابن الحسن بن الحسن بن علي، موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن.

- المحبوسون لم يكن فيهم علي بن الحسن بن الحسن بن عابد العابد.

- فلما كان الغد بعد الصبح أقبل رجل متلفف فقال رياح: مربحاً بك ما حاجتك؟

- الرجل يجيب رياحاً فيقول: جئتك لتحسبني مع قومي فإذا هو علي بن الحسن بن الحسن.

- رياح يحبس علياً مع قومه.

- محمد بن الحسن كان قد أرسل ابنه علياً إلى مصر يدعو إليه.

- عامل مصر يصله خبر علي فيقبض عليه ويرسله إلى المنصور.

- علي يعترف للمنصور وسمى أصحاب أبيه.

وكان فيمن سمّى عبد الرحمن بن أبي الوالي وأبو جبير.

- المنصور ضرب بن أبي الوالي وأبا جبير وحبسهما.

- المنصور يحبس علياً ويبقى محبوساً إلى أن مات.

- المنصور يكتب إلى رياح أن يحبس مع المحبوسين محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان – المعروف بالديباج – وكان أخا عبد بن الحسن بن الحسن لأن أمها جميعاً فاطمة بنت الحسين بن علي فأخذه معهم.

- المنصور حبس عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وحده وترك باقي أولاد الحسن فلم يزل محبوساً، فبقي الحسن بن الحسن بن الحسن قد نصل خضابه حزناً على أخيه عبد الله.

- الحسن بن الحسن بن الحسن يمر على إبراهيم بن الحسن وهو يعلف إبلاً له فيقول له: أتعلف إبلك وعبد الله محبوس؟ يا غلام أطلق عقلها.

- الغلام يطلقها ويصيح في أدبارها فلم يوجد منها بعير.

- عبد العزيز بن سعيد يقول للمنصور بعد أن طال حبس عبد الله بن الحسن: أتطمع في خروج محمد، وإبراهيم وبنو الحسن مخلون؟ والله للواحد منهم أهيب في صدرو الناس من الأسد فكان ذلك سبب حبس الباقين.

- المنصور يرسل محمد بن عمران بن إبراهيم ابن محمد بن طلحة، ومالك بن أنس إلى بني الحسن وهم في الحبس يسألهم أن يدفعوا إليه محمداً، وإبراهيم ابني عبد الله فدخلا عليهم – وعبد الله قائم يصلي – فأبلغاهم الرسالة.

- الحسن بن الحسن أخو عبد الله يقول: هذا عمل ابني المشؤومة أما والله ما هذا عن رأينا ولا عن ملامنا ولنا فيه حكم، فقال له أخوه إبراهيم: علام تؤذي أخاك في ابنيه، وتؤذي ابن أخيك في أمه؟

- عبد الله بعد أن فرغ من صلاته يبلغاه الرسالة.

- عبد الله يقول: لا والله لا أرد عليكما حرفاً، إن أحب أن يأذن لي فألقاه فليفعل.

- الرسولان ينطلقان إلى المنصور ويبلغاه.

- المنصور يقول: أيسخر بي! لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه. وكان عبد الله لا

يحدث أحداً قط إلا قلبه عن رأيه.

- المنصور يسير لوجهه بعد حج له ويرجع دون أن يدخل المدينة ويمضي إلى الربذة.

- رياح يخرج إلى المنصـــور في الربذة فيرده المنصـــور إلى المدينة ويأمره بأشـــخاص بني الحسن إليه ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بني الحسن لأمهم.

- رياح يرجع ويأخذهم ويسـير بهم إلى الربذة والقيود والسـلاسـل في أرجلهم وأعناقهم وجعلهم في محامل بغير وطاء.

- رياح يخرج بالمحبوسين من المدينة.

- جعفر بن محمد يقف من وراء ســـتر يراهم ولا يرونه وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله ويقول: والله لا يحفظ الله حرميه بعد هؤلاء.

- في المسـير إلى الربذة. محمد وإبراهيم ابنا عبد الله يأتيان كهيئة الأعراب فيتسـاران مع أبيهما ويستأذنان بالخروج.

- عبد الله (أبوهما) يخاطبهما: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك، وإن منعكما أبو جعفر المنصـور أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.

- ركب المحبوسين يصل إلى الربذة.

- محمد بن عبد الله العثماني يدخُل على المنصـــور وعليه قميص وإزار رقيق، فلما وقف بين يديه قال المنصور: إيهاً يا ديوث.

- محمد يرد على المنصور: سبحان الله، لقد عرفتني بغير ذلك صغيراً وكبيراً.

- المنصـــور: فممن حملت ابنتك رقية؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبد الله بن الحســـن – وقد أعطيتني الإيمان أن لا تغشني ولا تمالئ عليّ عدواً، أنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب، وأنت بين أن تكون حانثاً أو ديوثاً، وأيم الله إني لأهم برجمها.

- محمد يقول: أما إيماني فهي عليّ إن كنت دخلت لك في أمر غش علمته، وأما ما رميت به هذه الجارية فإن الله قد أكرمها بولادة رســول الله ﷺ إياها، ولكني ظننت حين ظهر حملها أن زوجها

ألم بها على حين غفلة.

- المنصور يغتاظ من كلام محمد ويأمر بشق ثيابه عن إزاره فكشفت عورته ويأمر به فضرب خمسين ومائة سوط فبلغت منه كل مبلغ، والمنصور يفتري عليه لا يكني.

- سوط يصيب وجه محمد فيقول للجلاد: ويحك أكفف عن وجهي فإن له حرمة رسول الله ﷺ فأغرى قوله المنصور فقال للجلاد: الرأس الرأس.

- الجلاد يضرب على رأس محمد نحواً من ثلاثين سوطاً، وأصاب إحدى عينيه سوط فسالت، ثم أخرج وكأنه زنجي من الضرب – وكان من أحسن الناس وكان يسمى الديباج لحسنه.

- لما أخرج محمد وثب إليه مولى له فقال: ألا أطرح ركاني عليك (أسترك بردائي)؟

- محمد: بلى، جزيت خيراً والله إن لشفوف إزاري أشد عليّ من الضرب.

- وكان محمد قد أخذ يسبب أن رياحاً قال للمنصور: يا أمير المؤمنين أما أهل خراسان فيشعتك، وأما أهل العراق فشيعة آل أبي طالب. وأما أهل الشام فوالله ما علي عندهم إلا كافر، ولكن محمد بن عبد الله العثماني لو دعا أهل الشام ما تخلف عنه منهم أحد. فوقعت في نفس المنصور فأمر به فأخذ معهم وكان حسن الرأي فيه قبل ذلك.

- أبو عون يكتب إلى المنصور أن أهل خراسان قد تغاشوا عني وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله.

- المنصور يأمر بمحمد بن عبد الله بن عمرو العثماني فيقتل.

- المنصور يرسل رأس محمد إلى خراسان ويرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله وأن أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

- عبد الله بن الحسن يقول بعد مقتل أخيه محمد: (إنا لله وإنا إليه راجعون إن كنا لنأمن به في سلطانهم ثم قتل بنا في سلطاننا.

- المنصور يأمر بأخذ المحبوسين يوسيرهم من الربذة.

- المنصور يمر بهم على بغلة شقراء فناداه عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا

بأسرائكم يوم بدر فأخسأه أبو جعفر وثقل عليه ومضى.

- المحبوســون لما قدموا إلى الكوفة، قال عبد الله لمن معه: أما ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذه الطاغية؟

فلقيه الحسـن وعلي ابنا أخيه مشـتملين على سـيفين فقالا له: قد جئناك يا ابن رسـول الله فمرنا بالذي تريد.

- عبد الله يجيبهما: قد قضيتما ما عليكما ولن تغنيا في هؤلاء شيئاً فانصرفا.

- المنصور يودع المحبوسين بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة.

- المنصور يستدعي محمد بن إبراهيم بن الحسن.

- وكان أحسن الناس صورة – فيقول له: أأنت الديباج الأصفر؟

- محمد: نعم.

- المنصور يقول له متوعداً: لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً.

- المنصــور يأمر به، وتبنى عليه أسـطوانة وهي حي فمات بها. ومما رثي به قول عبد الله بن مصعب بن ثابت:

يا صاحبيَّ دعا الملامـــــة واعلما ... أن لستُ في هــذا ألم بألومَ منكما

وَقِفـــــــا بقبر للنبي فسلِّما ... لا بـــــأسَ أن تقفا به وَتُسلِّما

قبرٌ تضمَّـــــن خيرُ أهل زمانه ... حسبـــاً وطيبَ سجيةٍ وتكرُّما

رجـــلٌ نفى بالعدلِ جوْر بلادنا ... وعفـــا عظيمات الأمور وأنعما

لم يتجنبْ قصـــــدَ السبيل ولم يجر ... عنه ولم يفتـــــح بفاحشةٍ فما

لو أعظـــــمَ الحدثانُ شيئاً قبله ... بعـــــد النبيّ به لكنت المُعظما

أو كـــــان أمتعَ بالسلامة قبله ... أحـــداً لكان قصاره أن يسلّما

ضحـــــــوا بإبراهيم خيرَ صحيةٍ فتصـــــــــرمت أيامهُ فتصرما

بطلاً يخوض بنفســـه غمراتـــــه لا طـــائشاً رَعَشاً ولا مستسلما

حتى مضـــــتْ فيه السيوفُ وربما كانـــــت حتـوفُهمُ السيوفُ

وربما أضحى بنو حَسَن أبيح حريمهم فينا وأصبح نهبهم منقسمـــــا

ونساؤهم في دورهـــــن نوائـــحٌ سجـــــعَ الحمام إذا الحمامُ ترنما

يتوسلـــــــــــون بقتله ويرونه شـــــرفاً لهم عند الإمام ومغنما

والله لو شهـــــــــد النبي محمد صلـــــى الإله على النبي وسلما

إشراع أمتـــــــــــه الأسنة لابنه حتى تقطـــــر من ظُباتهمُ دما

حقـــــــاً لأيقن أنهم قد ضيعوا تلـك القرابة واستحلوا المحرما

وكان إبراهيم بن الحســن أول من مات من المحبوســين، ثم عبد الله بن الحســن الذي وضــع المنصور عليه من قال له: إن ابنه محمد قد خرج فقتل، فانصدع قلبه فمات فدفن قريباً من قبر محمد. ثم مات علي بن الحسن.

- المنصور يأمر بالمحبوسين فيقتلوا جميعاً بعد أن سقوا السم.

- لم ينج من المحبوسين إلا سليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن بن علي، وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن الحسن بن الحسن وجعفر بن الحسن. وانقضى أمرهم.

- المنصـــور يرجع إلى بغداد ويبدأ بإتمام البناء، وكان قد أعد جميع ما يحتاج إليه من بناء المدينة من خشب وساج وغير ذلك ويتم البناء ويقطع فيها القطائع لأصحابه.

وفي سنة 151 بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي لأن المهدي عسكر فيه عند شخوصه من الري.

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة. وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله

ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفي صدر الإيوان مجلس (عشرون في عشرين) وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوق القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه بيده رمح.

منظر 22

ودب دبيب الحياة في دروب بغداد وأزقتها وبدأ الناس حياتهم فيها متنعمين بطيب هوائها وصفاء مائها ورخاء ظلال بساتينها. وكان دجلة يجري على جنباتها في دلال العروس وكبريائها.

دب دبيب الحياة في بغداد بعد أن أتم المنصور بناءها واستقدم إليها العلماء من كل بلد وإقليم، فأمها الناس أفواجاً، ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية، وأربى سكانها على مليونين. وقد قيل أنه لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدل صيفها وشتائها وسحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدد سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواجع موردة المشارع.

ويتتابع ازدهار المدينة فتبنى القصور وتتخذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات، وتتجدد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع.

ولم يقتصر رقي الحياة البغدادية على الآثار العمرانية بل تعداه إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فكان الوالي في أول ولايته يأمر بإطلاق من كان في السجون كما فعل المهدي عندما أطلق من كان محبوساً في سجن المنور إلا من كان مطلوباً بدم أو قتل أو معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد، وقد أطلق من كان جرمه سياسياً.

وأقام خلفاء كالمهدي البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن بغالاً وإبلاً ولم يقم هناك بريد قبل ذلك.

كما جلس للمظالم وتدخل القصص إليه، ولما ارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها اتخذ بيتاً له شباك من حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده أولاً فأولاً

فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وبتتابع الأيام وصلت الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضـــارة الدولة وغيرها من الحواضـــر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان في عهد الرشـــيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة في الداخل والخارج.

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حضـارة عرفت لعهدها، بنيت فيها القصـور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها في أحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها. وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربي.

كان في الجانب الشرقي قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات.

وبالجانب الغربي قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظر اتساعاً وجمالاً. وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة.

واســتجر العمران فيها لما جاؤوها من الثنايا وصـــار ســكانها نحو ألفي نســمة حتى ازدحمت بساكنيها، وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين، ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبيل مطمئنة.

وتعاظمت ثروة الدولة، فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإســـلامية بعد أن تقضـــي جميع حاجاتها، وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصـرف منه في مرتبات الوزراء المسـاعدين له، والباقي يتصـرف فيه حسـبما يرى وهو شيء جسيم.

وكان الرشـــيد أســـمح خلفاء بني العباس بالمال يعطي منه عطاء من لا يخشـــى فقراً للقصـــاد والشعراء والكتاب والمنتجعين. وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأســفار بذكر عطاياهم التي قد يتردد الإنســان في صـــحتها، وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة وتقضـــي الحاجات وتكثر المدينة، وعلى تلك الســـنة زادات ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشـتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصـراً أنفق على بنائه عشـرين ألف ألف درهم.

وتغالى الناس في حاجاتهم، وتأنقوا في معيشـــتهم حتى صـــارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثرائها وبذخ أهلها وانغماسهم في الملذات وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وقد صارت بغداد قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون، فهي المدرســـة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها، فقد كان كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم، وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وكان جميع هؤلاء العلماء يعيشون عيشاً رغيداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات. فقد احتشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة، فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدينة كالفرس وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية.

وقد أجريت أول أرصاد عملية في الإسلام في بغداد المأمون مثلما نشأ بين جنباتها علم التنجيم الذي كان الغرض منه إعلام المرء بمجريات حياته على أساس مواقع الكواكب والأبراج في لحظة ميلاده أو حمله.

وكان في بلاط الخلفاء العباسيين ببغداد عدد من المنجمين ذوي الخبرة.

وزهت حركة الترجمة في الحضارة العربية الإسلامية أبو جعفر عناية خاصة بترجمة كتب الطب والنجوم. وأُنشئت لها دار الحكمة لتتلاقى روافد الثقافات اليونانية والفارسية والهندسية بالثقافة العربية واستقدم العلماء من أقطار الدنيا إليها لتكون حاضنة الثقافات ولتشع بألقها على ربوع الدنيا.

الحرمية:

من كورة تدعى (البذيمر) فيها نهر الرس العظيم خرج بابك الذي امتدت فتنته زمناً طويلاً ببغداد

في عهد المأمون والمعتصم (سنة 221 في عهد المأمون ومنتهاه 231 في عهد المعتصم).

بلاد فارس تمتاز بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها، من تلك الطوائف فرقة تسمى (الحرمية)، ومنتسبوها فريقان: الأولون الحرمية الذين يسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم الذي أمرهم بتناول اللذات، والائعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس، ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم، فإذا ضيّفوا إنساناً لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان. وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي يظهر أيام قباذ بن فيروز الذي قتله أنو شروان وقتل أصحابه.

ومنهم الحرمية البابكية الذين ينسبون إلى صاحبهم بابك الحرمي وكان يقول لمن استغواه إنه إله.

وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية التي ذكرها سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرم ملة دينية يدينون بما يريدون ويشتهون، وإن لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذات المحارم وفعل ما يتلذذون به، فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس الذي خرجوا في أيام قباذ أباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات قتلهم أنو شروان بن قباذ، ولهذه المبابهة قيل لهم خرم ملة دينية كما قيل للمزدكية وخرمة قرية بفارس منها خرج بابك الخرمي، وتخرم دان بدين الخرمية أصحاب التناسخ والإباحة.

نشأ بابك بقرية تدعى بلال آباد ثم اتصل بجاوي ويدان ابن سهرك ملك جبال البذور رئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهماً وشهامة وخبثاً ففر به إليه.

ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم إن جاويدان قال لي إني أمّرت في ليلتي وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي، وقد رأيت أن أملّكه على أصحابي، فإذا مت فأعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

أخذ بابك ومن معه في العبث والفساد وإخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان سنة

201هـ والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد، فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر، فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك، فنكب ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سنة 204 بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه. هكذا كان، كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه.

وقد جاء في حوادث سنة 228 دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذف في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان ذلك أول ولاية المعتصم، فوجه إليهم الجنود، وكان آخر عسكر وجه إليهم، وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أمورهم.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا جزامة وصرامة وجلد واكتفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركياً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشر وسني المعروف بـ (الأفشين) (والأفشين لقب لملوك أشرو سنة وهو حيدر بن كلوس وهو تركي من أشرو سنة وهي كورة من بلاد ما بين النهرين) وذلك سنة 230هـ.

وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل، ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل، ففعل أبو سعيد ما أمره وأوقع بسرية أرسلها بابك للإغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نظر البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس

كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب في دواب المرج فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينفروا، وإذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النفير تهيأ فلا يبلغ إلى صاحبه الذي نفر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر فيها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل السابلة، وأطلق الأفشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك.

وأول وقعة بينه وبين عسكر بابك كانت بأرشق أحد حصون الأفشين، حيث خرج بابك ليقنص مالاً أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الأفشين، فخرج إليه سراً والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رجاله بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل موفان ومنها توجه إلى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمرت الحروب بين الأفشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال تمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع سنة 221هـ فسار الأفشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترساً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها. وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الأفشين تدبيره، وسد عليه المسالك وأوقف عليها جنداً من جيشه، وأخيراً قبض عليه وعلى أخيه عبدا الله وعاد بهما الأفشين إلى سامرا. كما أمره المعتصم ومعهما 17 رجلاً من أهل بيته ومن البنات والكتاب 23 امرأة، وكان دخولهم سارا يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه في بغداد وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة 500 25 إنسان وغلب كثيراً من القواد وكان عنده من الأسرة الذين استنقذهم الأفشين 7600 أسير.

القرامطة:

سنة 278هـ وفيها يتحرك بسواد الكوفة قومٌ يعرفون بالقرامطة.

وكان ابتداء أمرهم، أن رجلاً قدم من ناحية خوزستان إلأى سواد الكوفة، فكان بموضع يقال له النهرين، يُظهِر الزهد والتقشف ويسف الخوص (ينسجه)، ويأكل من كسب يده، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة. فكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من آل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير. وكان يقعد إلى بقال هناك، فجاء قوم إلى البقال يطلبون منه رجلاً يحفظ عليهم ما صرموا من نخلهم فدلهم عليه، وقال لهم: إن أجابكم إلى حفظ تمركم فإنه بحيث تحبون، فكلموه في ذلك. فأجابهم على أجرة معلومة فكان يحفظ لهم ويصلي أكثر نهاره ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطل تمر فيفطر عليه، ويجمع نوى ذلك التمر ويعطيه البقال. فلما حمل التجار تمرهم حاسبوا أجيرهم عند البقال، ودفعوا إليه أجرته، وحاسب الأجير البقال على ما أخذ منه من التمر وحط ثمن النوى. فسمع أصحاب التمر محاسبته للبقال بثمن النوى، فضربوه وقالوا له: لم ترض بأكل التمر حتى بعت النوى. فقال لهم البقال: لا تفعلوا.

فقص عليهم القصة، فندموا على ضربه، واستحلوا منه، ففعل، وازداد بذلك عند أهل القرية لما وقفوا عليه من زهده.

ثم مرض فمكث على الطريق مطروحاً، وكان في القرية رجل أحمر العينين يحمل على أثوار له يسمونه كرميتة لحمرة عينيه – وهو بالنبطية أحمر العين – فكلم البقال الكرميتة في حمل المريض إلى منزله والعناية به، ففعل وأقام عنده حتى برأ. ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه فأجابوه. وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه ديناراً ويزعم أنه للإمام، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبهم، وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم. فاشتغل أهل كور تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات.

وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع فرأى تقصير الأكرة في عمارتها، فسأل عن ذلك، فأخبر بخبر الرجل فأخذه وحبسه وحلف أن يقتله لما اطلع على مذهبه وأغلق باب البيت عليه، وجعل مفتاح البيت تحت وسادته واشتغل بالشرب، فسمع بعض من في الدار من الجواري بحبسه فرقت للرجل، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح وفتحت الباب وأخرجته، ثم أعادت المفتاح إلى مكانه. فلما أصبح الهيصم

فتح الباب ليقتله فلم يجده وشاع ذلك في الناس فافتتن أهل تلك الناحية وقالوا: رفع.

ثم ظهر في ناحية أخرى، ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم، وسألوه عن قصته فقال: لا يمكن لأحد أن ينالني بسوء فعظم في أعينهم. ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام، فلم يوقف له على خبر، وسمي باسم الرجل الذي كان في داره كرميتة صاحب الأثوار ثم خُفف فقيل: قرمط.

وقيل: إن قرمط رجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة السواد على أثوار له واسمه حمدان. ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة. ووقف الطائي أحمد بن محمد على أمرهم، فجعل على الرجل منهم في السنة ديناراً، وكان يجبي من ذلك مالاً جليلاً فقدم قوم من الكوفة، فرفعوا أمر القرمطة والطائي إلى السلطان، وأخبروه أنهم قد أحدثوا ديناً غير دين الإسلام.

وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ إلا من بايعهم فلم يلتفت إليهم، ولم يسمع قولهم.

وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم أنهم جاءوا بكتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول الفرج بن عثمان – وهو من قرية يقال لها نصرانة – داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وهو جبريل.

وذُكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك يحيى بن زكريا، وإنك روح القدس، وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها.

وأن الآذان في كل صلاة، أن يقول المؤذن: الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن عيسى رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد الحنفية رسول الله. وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية. والقبلة إلى البيت المقدس، الحج آل بيت المقدس. وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة الحمد لله بكلمه، وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، اتقوني يا أولي الألباب وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا العلم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي، وأمتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري، وكذب أخذته مهاناً في

عذابي، وأتمتت أجلي، وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعلُ عليّ جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصر على أمري ودام على جهالته، وقالوا لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين، أولئك هم الكافرون، ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربي ربُّ العزة، وتعالى عما يصف الظالمون، يقولها مرتين. فإذا سجد قال: الله أعلى الله أعلى الله أعظم الله أعظم. ومن شريعته أن يصوم يومين في السنة وهما المهرجان والنيروز. وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وإن من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه فمن يخالفه أخذ منه الجزية، ولا يأكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب.

وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج فسار قرمط إليه، وقال له: إني على مذهب ورأي، ومعي مائة ألف ضارب سيف فتناظرني فإن اتفقنا، ملت إليك بمن معي، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك، فتناظرا فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه.

وسار القرامطة بالإفساد والعبث واعتراض الحجاج. وفي سنة 332هـ أرسل محمد بن ياقوت رسولاً إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك من البلدان ويحسن إليه ويلتمس منه أن يكف عن الحجاج جميعهم وأن يرد الحج الأسود إلى موضعه بمكة.

فأجاب أبو طاهر إلى أنه لا يعترض للحجاج ولا يصيبهم بمكروه، ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلى مكة، وسأل أن تطلق له المبرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر. فسار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطي. ولكنه في سنة 333هـ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

وفي سنة 326هـ أصابهم خلل وفساد في سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو رجل كان من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره، وكان له عدو من القرامطة يدعى أبو أبو حفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد أن تقتل عدوي أبا حفص فأجابه إلى ذلك، وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبي سعيد وعاملات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون إليه فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك، فقال أبو طاهر هذا هو الذي ندعو إليه فأطاعوه ودانوا له حتى يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً يقول إنه مريض يعني إنه

قد شك في دينه ويأمر بقتله. وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله لينفرد بالملك فقال لأخوته لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله. فقال له إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار فلما رآها قال إن المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم، وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

الزنج:

سنة 255: وفي شوال خرج في فرات البصرة رجل وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الدينارى.

قال أبو جعفر: وكان اسمه فيما ذكر علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس وأمه ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة من قرى الري، وكان يقول: جدي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين، فلما قتل زيد هرب فلحق بالري فجاء إلى قرية وزرنين وأقام بها، وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس كان مولده بالطالقان وقدم العراق واشترى جارية سندية وأولدها محمداً أباه، وكان متصلاً قبل بجماعة من حاشية المنتصر، منهم غانم الشطري، وسعيد الصغير وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان وكان يمدحهم ويستميحهم بشعره منهم ومن غيرهم.

ثم إنه شخص من سامرا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين فادعى بها أنه علي عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم فجرى بين الطائفتين عصبية قتل فيها جماعة، وكان أهل البحرين قد أحلوه بمحل نبي وجبي الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه فوتر منهم جماعة فتنكروا له، فانتقل عنهم إلى الأحساء، ونزل على قوم من بني سعد بن تميم يقال لهم بنو الشماس وأقام فيهم وفي صحبته جماعة من البحرين منهم يحيى بن محمد الأزرق البحراني، وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه، وكان ينتقل بالبادية فذكر عنه أنه قال: أوتين في تلك الأيام بالبادية آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس، منها إني لقنت سوراً من القرآن فجرى بها لساني في ساعة وحفظتها في دفعة

واحدة منها سبحان والكهف وصاد، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد فأظلتني غمامة وخوطبت منها فقيل لي: أقصد البصرة.

وقيل عنه إنه قال لأهل البادية: إنه يحيى بن عمر العلوي أبو الحسن المقتول بناحية الكوفة فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة فزحف بهم إلى موضعي قال له الردم من البحرين فكانت بينهم وقعة عظيمة وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه قتلوا قتلاً كثيراً فتفرقت العرب عنه.

فلما تفرقت عنه سار فنزل البصرة في بني ضبيعة فاتبعه منهم جماعة كثيرة منهم علي بن أبان المهلبي، وكان قدومه البصرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ومحمد بن رجاء الحضاري عاملها، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلالية والسعدية وطمع في إحدى الطائفتين أن تميل إليه فأرسل إليهم يدعوهم فلم يجبه أحد من أهل البلد، وطلب ابن رجاء فهرب فحبس رجاء جماعة ممن كانوا يميلون إليه منهم ابنه وزوجته، وابنة له وجارية حامل منه. وسار يريد بغداد ومعه من أصحابه محمد بن مسلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع ومر قس القريعي. فلما سار بالبطيحة نذر بهم رجل كان يلي أمرها اسمه عمير بن عمار فحملهم إلى محمد بن أبي عون عامل واسط فخلص منه هو وأصحابه، فدخل بغداد فأقام بها حولاً فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بهاما في ضمائر وما يفعل كل واحد منهم فاستمال جماعة من أهل بغداد. ثم بعدها عاد إلى البصرة ونزل بقصر القرشي على نهر يعرف بعمود ابن النجم وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ فأقام هنالك يدعو لنفسه ويغري غلمان البصرة الذين يقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده خلق كثير يعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال ويحلف لهم بالإيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم.

ثم سار إلى القادسية فنهبها أصحابه بأمره ثم أسرى إلى الجعفرية فوضع في أهلها السيف فقتل أكثرهم وأتى منهم بأسرى، ثم نهب القرية المعروفة بالمهلبية وأحرقها وأفسد في الأرض وعاث وما زال هذا دأبه يبث أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب والقتل. وقتل صاحب الزنج سنة سبعين ومائتين وكانت أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

المنازعات الدينية:

ظهرت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة، فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا

يكبسون دور القواد والعامة، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا من يمشي مع امراة أو صبي سألوه عن الذي هو معه من هو؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاني: الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر بسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين فلم يغد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مرّ بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره، فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والشعر والقطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وإنكارهم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم.

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا إلى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا.

الثورات:

ثأر الفرس من العرب مرتين، ولكنهم نكبوا مرتين، فتكافأ الطرفان!! ثأروا من العرب بموقعة الزاب وبقتل الأمين، ولكنهم أصيبوا بقتل أبي مسلم وبنكبة البرامكة.. وزاد على ذلك، مقتل بابك وحرق الأفشين، فخضدت شوكة النفوذ الفارسي ولانت شرته. غير أن العرب لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذه الفرصة، فتقدم الترك وتداخلوا في الدولة رويداً رويداً حتى قضوا عليها.

وكانت تتخلل فترة هذا الانتقال من النفوذ الفارسي إلى النفوذ التركي، بعض أفاقات من العرب ولكنها صحوة الناعس المتعب يتقلب في سريره من جنب إلى جنب ويفتح عينيه، ثم لا يلبث أن يغمضهما ويغرق في نوم عميق، فنبّه هذا الوضع الشاذ بعض عمال الولايات أمر الطامعين في الإمارات إلى اهتبال الفرص. فكثرت الثورات والدعاوات في كل طرف. ومن وسائل الدعاوة الكبرى الشعر وهو صحافة ذلك الزمان. وتنقل الشعراء بين العلم والولايات وتركوا عاصمة الخلافة وإنها لم تبقِ وحدها المطمع الأكبر، بل نافستها الثغور وعواصم الولايات هذه المنزلة فتشكل حول كل أمير هالة من الشعراء، يمدحونه ويستفيدون من عطاياه.

أشهر الثورات ببغداد خمسة:

1- ثورة إبراهيم بن المهدي: إبراهيم بن المهدي عم المأمون. ثار بعد مقتل الأمين وتسمى بأمير المؤمنين. وبقي عامين يحكم في بغداد، ثم غُلب أمام جيوش المأمون وأُسر، ثم عفي عنه وهو أمام النطع والسيف.

2- ثورة العلويين: كان العلويون ينظرون إلى العباسيين كمغتصبين لحقوقهم في الخلافة، لأن الثورة ضد الأمويين لم تقم باسم العباسيين، ولم يساعدها الناس إلا لأنها قامت باسم آل النبي. فلما دالت دولة الأمويين اغتصب العباسيون الخلافة اغتصاباً، فثار العلويون ثورات متعددة. ولكن القسوة كانت تقضي عليهم في الحرب، والدعاوة السياسية تقضي عليهم في السلم، ومن جملة الدعاوات ما كان يثيره الشعراء تقرباً من العباسيين الحكام بالحق وبالباطل كقول أحدهم:

أنى يكون؟ وليس بذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمـام!

ومسألة الإرث هذه رددها الشعراء كثيراً. وكان العلويون يجيبون عليها آناً بالسيف وحيناً بالكلام. ولما يئسوا من مقاومة العباسيين بالسياسة والحرب، وجهوا وجهتهم شطر العلوم والأدب، فنبغوا فيها نبوغاً عظيماً جداً أكسبهم احترام الناس والعطف عليهم كمغلوبين منكسرين يائسين! على أن هؤلاء العلويين لم ينكسروا إلى الأبد، بل ثاروا في خراسان زمن المعتصم، وأسلموا قيادهم لمحمد بن القاسم اليزيدي، غير أن سوء طالع هذا القائد كسر جناحيه أمام عبد الله بن طاهر أمير خراسان، فأرسله إلى المعتصم فسجنه، فاحتال حتى فرّ من السجن يوم عيد عام 219هـ، ولم يعلم له مقر بعدها أبداً. ولما وجد العلويون أن سوء الحظ يلاحقهم في الشرق توجهوا نحو الغرب وأخذوا يبثون دعاوتهم في مصر

وإفريقية، فنجحوا بعد مدة في بناء الدولة الفاطمية.

3- ثورة مازيار: كان مازيار عاملاً للمعتصم في طبرستان، امتنع عن دفع الخراج وثار على الدولة، فقبض عليه عبد الله بن طاهر وأرسله إلى المعتصم فقتله عام 225هـ.

4- ثورة بابك: ثار هذا الزعيم الفارسي أيام المأمون عام 203هـ وأخذ يحرّض على نبذ العربية ودين العرب.

ويدعو إلى تجديد دين المجوس القديم دين الخرمية ومعنى الخرمية: اللذة والإباحية فيتزوج الرجل أمه أو أخته أو ابنته!!

وتبع بابك هذا خلق كثير واعتصموا بحبال البذ، وأخذوا يغيرون على المسلمين ويؤذونهم في حالهم وعرضهم ونسائهم.

ودامت هذه الثورة عشرين عاماً ولم يستطع العباسيون التغلب عليها إلا زمن المعتصم على يد الأفشين، إذ قبض عليه وجاء به إلى بغداد، فصلب فيها عام 223هـ، وهذه الثورة تنبهنا إلى الضغن الكامن في نفوس الفرس والحقد الناخر في قلوبهم وصدورهم على العرب حتى تبعوا بابك الإباحي وفضلوه على دين العرب دين العقل والأخلاق.

5- ثورة الأفشين: الأفشين ومعناها في اللغة الأشروسنية: الملك وهو حيدر بن كاوس. كان غلاماً تركياً عند المعتصم أيام ولايته للعهد، وقد أخلص له فاستعمله على مصر والشام. ثم لما آلت الخلافة إليه ولاه حرب بابك، فطاوله قليلاً ثم أسره، ونال به خطوة عند المعتصم. غير أن هذه المطاولة وعمل الحساد أثار في نفس المعتصم شكوكاً فعزم على القبض عليه ومحاكمته.

ولكنه تريث قليلاً ليستفيد من مواهبه الحربية فعينه قائداً عاماً للجيوش الشرقية، وجعل تحت يديه قواداً من العرب يطمئن إليهم كأبي دلف العجلي وأبي سعيد الثغري يساعدهما عبد الله بن طاهر العامل المخلص للمعتصم وقامع الثورتين ثورة مازيار وثورة العلويين. ولما قبض الأفشين على بابك، وجاء به إلى بغداد، استقبل استقبال الملوك، وأمر المعتصم الشعراء أن تدخل عليه فتمدحه.

وبعد أن سكنت الثورات الداخلية، وخضع الأعداء الخارجيون، ولم يعد المعتصم محتاجاً إلى الأفشين قبض عليه وشكل محكمة عليا لمحاكمته من أعضائها محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي

أحمد بن أبي دؤاد.

وجهت إليه التهم الآتية:

1- وجد رجلان بيتاً للأصنام في أشروسنة فحولاه إلى مسجد فضرب كل واحد منهما ألف سوط حتى تناثر لحمهما عن عظامهما دفاعاً عن المجوسية.

2- ووجد في بيته كتاب للمجوس محلى بالجواهر والذهب.

3- أهل مملكته يكتبون إليه سام (إله الآلهة) فلا يردعهم عن هذا الكفر.

4- إنه لم يثخن كعادة المسلمين.

5- أمر بإرسال الأموال سراً إلى أشروسنة لتقوية الدين المجوسي، وكان يتربص بالعرب لينتقض عليهم ويقلب الدولة الإسلامية.

6- سعيه بعبد الله بن طاهر ظلماً وكذباً ليعزله عن خراسان ويستولي عليها تمهيداً لهذا الانتفاض.

وكانت المحاكمة شكلية وأقر الأفشين بأكثر هذه التهم ودافع عنها ليعللها بشكل مقبول، ولكن لم يكن دفاعه كافياً، فأعيد إلى السجن ومنع عنه الطعام حتى مات ثم صلب وأحرق فتبارى الشعراء بعد موته بهجوه.

الفتن:

شاع بالعراق بعد ولاية الحسن بن السهل أن الفضل بن سهل قد غلب المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده، وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون، واستخفوا بالحسن بن سهل، وهاجت الفتن في الأمصار، وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بالكوفة، وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني، فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب تعداده عشرة آلاف رجل فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب. وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة فولى

أبو السرايا بدله غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولي من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كليها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المرور وذي فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في سنة 199هـ فقتله وأسر أخاه هارون وأسر عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص).

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً ووجه أحدهم لحرب أبي السرايا فعاد مهزوماً، فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين.

وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل، وكان قد وصل إلى حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد فقدمها في شعبان سنة 199هـ وتهيأ للخروج إلى الكوفة، وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر أبي هبيرة فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التي هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو قادراً على حماية الطالبين، وسار إلى القادسية في محرم سنة 200هـ ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم غادرها مساء ذلك اليوم. وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس، فلقيه هناك الحسن بن علي الباذ غيسي المعروف بالمأمون فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جرحاً شديداً فهرب مريداً منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به في الطريق هو ومن معه وجيء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبي السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر، وكان يقال زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيراً وأمن.

وكان للطالبين فتن لها أسوأ أثر بمكة والمدينة واليمن وقد انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة

من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره، ولم يكن مما يروق في عين الفضل، فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هوا لذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع، ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال، فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه.

ولما بلغ هرثمة مرو خشي أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون، فلما سمعها سأل فقالوا: هرثمة جاء يبرق ويرعد، وظن هرثمة أن قوله المقبول، فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه وأشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجيء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه، وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه، وقالوا إنه مات هكذا فذهب من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون. ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم، فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعوا للمأمون وقالوا: لا نرضى بالمجوسي الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان، فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فإن فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذىً شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا على أخذه لا سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه، وكانوا يجبون المارة في الطريق والسفن وعلى الظهر ويحفزون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم! رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء، كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا إن في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه

وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك وشدّ على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان، وكان لا يلي من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعد آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلّق مصحفاً في عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهانهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع من بني هاشم ومن دونهم وجعل له ديواناً يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد وأسواقها وأرياضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجي المارة. وقال لا خفارة في الإسلام – والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول: بستانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء لي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى.

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في القبض على أيدي المفسدين.

ولا يعيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهاه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال: إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافه منصور المهدي الذي أقامه العراقيون أميراً.

فتنة بغداد: أ

وفيها شغب الجند والشاكرية ببغداد. وكان سبب ذلك أن الخبر لما اتصل بهم وبسامرا وما قرب منها بقتل عمرو بن عبيد الله، وعلي بن يحيى وكانا من شجعان الإسلام شديداً بأسهما عظيماً عناؤهما عن المسلمين في الثغور، شق ذلك عليهم مع قرب مقتل أحدهما من الآخر وما لحقهم من استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة ولا نظر للمسلمين، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير، وانضم إليها الأبناء، والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق، ففتحوا السجون وأخرجوا من فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر وانتبهوا دار بشر، وإبراهيم ابني هارون كاتبي محمد بن عبد الله، ثم أخرج أهل اليسار من بغداد وسامرا أموالاً كثيرة ففرقوها فيمن نهض إلى الثغور، وأقبلت العامة من نواحي الجبال وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم فلم يأمر الخليفة في ذلك بشيء ولا يوجه عسكره.

فتنة بغداد: ب

سنة 278هـ وفيها كانت الحرب ببغداد بين أصحاب وصيف الخادم، والبربر، وأصحاب موسى ابن أخت مفلح أربعة أيام من المحرم ثم اصطلحوا، وقد قتل منهم جماعة. ثم وقع في الجانب الشرقي وقعة بين النصريين وأصحاب يونس قتل فيها رجل ثم انصرفوا.

فتنة بغداد: ج

سنة 361هـ: في هذه السنة وقعت فتنة عظيمة، وأظهروا العصبية الزائدة، وتخزب الناس، وظهر العيارون وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس. وكان سبب ذلك استنفار العامة للغزاة، فاجتمعوا وكثروا فتولد بينهم من أصناف البنوية والفتيان والسنية والشيعة والعيارين فنهبت الأموال وقتل الرجال، وأحرقت الدور. وفي جملة ما احترق محلة الكرخ، وكانت معدن التجار الشيعة، وجرى بسبب ذلك فتنة بين النقيب أبي أحمد الموسوي، والوزير أبي الفضل الشيرازي وعداوة.

فتنة بغداد: د

سنة 375هـ: في هذه السنة جرت فتنة ببغداد بين الديلم، وكان سببها أن أسفار بن كردويه وهو من أكابر القواد استنفر من صمصام الدولة، واستمال كثيراً من العسكر إلى طاعة شرف الدولة. واتفق رأيهم على أن يولوا الأمير بهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة العراق نيابة عن أخيه شرف الدولة. وكان صمصام الدولة مريضاً فتمكن أسفار من الذي عزم عليه، وأظهر ذلك وتأخر عن الدار، وراسله صمصام الدولة يستميله ويسكنه فما زاده إلا تمادياً. فلما رأى ذلك من حاله راسل الطائع يطلب منه الركوب معه، وكان صمصام الدولة قد أبل من مرضه، فامتنع الطائع من ذلك، فشرع صمصام الدولة واستمال فولاذ زماندار وكان موافقاً لإسفار إلا أنه كان يأنف من متابعته لكبر شأنه، فلما راسله صمصام الدولة أجابه واستحلفه على ما أراد وخرج من عنده، وقاتل أسفار فهزمه فولاذ وأخذ الأمير أبو نصر أسيراً، وأحضر عند أخيه صمصام الدولة فرق له وعلم أنه لا ذنب له، فاعتقله مكرماً، وكان عمره حينئذ خمس عشرة سنة. وثبت أمر صمصام الدولة. وسعى إليه بابن سعدان الذي كان وزيره فعزله، وقيل إنه كان هواه معهم فقتل.

ومضى أسفار إلى الأهواز، واتصل بالأمير أبي الحسن بن عضد الدولة، وخدعه وسار باقي العسكر إلى شرف الدولة.

الفتنة في بغداد سنة 417: هـ

في هذه السنة تسلط الأتراك ببغداد فأكثروا مصادرات الناس وأخذوا الأموال حتى أنهم قسطوا على الكرخ خاصة مائة ألف دينار. وعظم الخطب وزاد الشر وأحرقت المنازل والدروب والأسواق، ودخل في الطمع العامة والعيارون، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره، فعمل الناس الأبواب على الدروب فلم تغن شيئاً. ووقعت الحرب بين الجند والعامة فظفر الجند ونهبوا الكرخ وغيره فأُخذ منه مال جليل وهلك أهل الستر والخير. فلما رأى القواد وعقلاء الجند أن الملك أبا كاليجار لا يصل إليهم وأن البلاد قد خربت، وطمع فيهم المجاورون من العرب والأكراد، راسلوا جلال الدولة في الحضور إلى بغداد فحضر على ما نذكره سنة ثمان عشرة وأربعمائة.

الفتنة في بغداد سنة 199هـ: هـ

في هذه السنة تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة. وكان سبب ذلك أن الملقب بالمذكور أظهر العزم على الغزاة، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وكتب له منشوراً من دار الخلافة وأعطى علماً فاجتمع له لفيف كثير، فسار واجتاز باب الشعير وطاف الحراني وبين يديه الرجال بالسلاح فصاحوا بذكر أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) وقالوا: هذا يوم معاوي، فنافرهم أهل الكرخ ورموهم، وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لأنهم قيل عنهم أنهم أعانوا أهل الكرخ. فلما كان الغد اجتمع أهل السنة من الجانبين ومعهم كثير من الأتراك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الأسواق، وأشرف أهل الكرخ على خطة عظيمة. وأنكر الخليفة ذلك إنكاراً شديداً ونسب إليهم تخريق علامته التي مع الغزاة، فركب الوزير فوقعت في صدره آجرة فسقطت عمامته وقتل من أهل الكرخ جماعة، وأحرق وخرب في هذه الفتنة سوق العروس، وسوق الصفارين، وسوق الأنماط، وسوق الدقاقين وغيرها. واشتد الأمر فقتل العامة الكلالكي وكان ينظر في المعونة وأحرقوه. ووقع القتال في أصقاع البلد من جانبيه واقتتل أهل الكرخ ونهر طابق والقلائين، وباب البصرة. وفي الجانب الشرقي أهل سوق الثلاثاء وسوق يحيى وباب الطاق والأساكفة والرهادرة، ودرب سليمان، فقطع الجسر ليفرق بين الفريقين، ودخل العيارون البلد وكثر الاستقفاء والعملات ليلاً ونهاراً، وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته، ففرق فيهم حالاً وحلف لهم فسكنوا. ثم عاودوا الشكوى إلى الخليفة منه، وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبهم إلى ذلك، فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس وضربه النوبة أوقات الصلاة،

وانصرف الطبالون لانقطاع الجاري لهم ودامت هذه الحال إلى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط.

ثم حدثت فتنة أخرى بين أصحاب الأكسية وأصحاب الخلعات – وهم شيعة – واعترض أهل باب البصرة قوماً من قم أرادوا زيارة مشهد علي والحسين عليهما السلام فقتلوا منهم ثلاثة نفر وامتنعت زيارة مشهد موسى بن جعفر.

فتنة سنة 200هـ: و

في هذه السنة شغبت العامة ببغداد ووثبوا بسليمان بن عبد الله وكان سببه أن كتاب المهتدي ورد إلى سليمان يأمره يأخذ البيعة له وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد كان المعتز قد سيره إليها كما تقدم فأرسل سليمان إليه فأخذه إلى داره، وسمع من بغداد من الجند والعامة يأمر المعتز فاجتمعوا إلى باب دار سليمان فقاتلهم أصحابه وقيل لهم: ما يرد علينا من سامرا خبر فانصرفوا.

ورجعوا الغد – وهو يوم الجمعة – على ذلك وخطب للمعتز ببغداد فانصرفوا، وبكروا يوم السبت فهجموا على دار سليمان ونادوا باسم أبي أحمد ودعوا إلى بيعته وسألوا سليمان أن يريهم أبا أحمد فأظهره لهم ووعدهم أن يصير إلى محبتهم إن تأخر عنهم ما يحبون فانصرفوا بعد أن أكدوا عليه في حفظ أبي أحمد، ثم أرسل إليهم من سامرا مال ففرق فيهم فرضوا وبايعوا من سامرا مال ففرق فيهم فرضوا وبايعوا للمهتدي وسكنت الفتنة.

فتنة بغداد سنة (481هـ): ز

في هذه السنة شرع أهل باب البصرة في بناء القنطرة الجديدة ونقلوا الآجر في أطباق الذهب والفضة وبين أيديهم الدبادب واجتمع إليهم أصحاب المحال وكثر عندهم أهل باب الأزج في خلق لا يحصى. واتفق أن كوهرائين سار في سميرية وأصحابه يسيرون على شاطئ دجلة، فوقف أهل الأزج على امرأة كانت تسقي الناس من مزملة لها على دجلة فحملوا عليها على عادة لهم وجعلوا يكسرون الجرار ويقولون: الماء للسبيل، فلما رأت سعد الدولة كوهرائين استغاثت به فأمر بإبعادهم عنها فضربهم الأتراك بالمقارع فسل العامة سيوفهم وضربوا وجه فرس حاجبه سليمان وهو أخص أصحابه فسقط عن الفرس، فحمل كوهرائين الحنق على أن خرج من السميرية إليهم راجلاً فحمل أحدهم عليه فطعنه بأسفل رممحه فألقاه في الماء والطين، فحمل أصحابه على العامة فقاتلوهم وحرصوا على الظفر بالذي

طعنه فلم يصلوا إليه وأخذ ثمانية نفر فقتل أحدهم وقطع أعصاب ثلاثة نفر وأرسل قباءة إلى الديوان وفيه أثر الطعنة الطين يستنفر على أهل باب الأزج ثم إن أهل الكرخ عقدوا لأنفسهم طاقاً آخر على باب طاق الحراني وفعلوا كفعل أهل باب البصرة.

فتنة بغداد (601هـ): ح

في هذه السنة جرت فتنة بغداد بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية، وسببها أن أهل باب الأزج قتلوا سبعاً وأرادوا الطواف به، فمنعهم أهل المأمونية، فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير، فجرح منهم خلق كثير، وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة، فجرح فرسه، فعاد، فلما كان الغد سار أهل المأمونية إلى باب الأزج، فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب، واشتد الأمر فنبهت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف في تسكين الناس، وركب الأتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا.

ثم جرت فتنة أخرى بين أهل قطفتا والقريبة من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضاً أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية أن يجروا به عندهم فاقتتلوا، وقتل بينهم عدة قتلى، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر، ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا. ثم كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرفية، منشؤها أن رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه، فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا في مقبرة الجعفرية، فسير إليهم من الديوان من تلافي الأمر وسكنه، فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة، فطاف في البلد وقتل جماعة ممن شبهة، فسكن الناس.

وفي سنة 482هـ حدثت فتنة إذ كبس أهل باب البصرة بالكرخ فقتلوا رجلاً وجرحوا آخر فأغلق أهل الكرخ الأسواق ورفعوا المصاحف وحملوا ثياب الرجلين بالدم ومضوا إلى دار العميد كما الملك أبي الفتح الدهستاني مستغيثين، فأرسل إلى النقيب طراد بن محمد يطلب منه إحضار القاتلين فقصد طراد دار الأمير بوزان بقصر ابن المأمون فطالبه بوزان بهم ووكل به، فأرسل الخليفة إلى بوزان يعرفه حال النقيب طراد ومحله ومنزلته فخلى سبيله واعتذر إليه فسكن العميد كمال الملك الفتنة وكف الناس بعضهم عن بعض، ثم سار إلى السلطان فعاد الناس إلى ما كانوا فيه من الفتنة ولم ينقض يوم إلا عن قتلى وجرى.

ومن الشغب في بغداد:

وثب عامة بغداد بمحمد بن أوس البلخي. وكان السبب أن محمد بن أوس قدم من خراسان مع سليمان بن عبد الله بن طاهر على الجيش القادمين من خراسان وعلى الصعاليك الذين معهم ولم تكن أسماؤهم في ديوان العراق، وكانت العادة أن يقام لمن يقدم من خراسان بالعراق ما كان بخراسان ويكون وجه ذلك من دخل ضياع ورثة طاهر بن الحسين ويكتب إلى خراسان ليعطي الورثة من بيت المال عوضه، فلما سمع عبيد الله بن عبد الله بقدوم سليمان إلى العراق ومصير الأمر إليه أخذ ما في بيت مال الورثة وأخذ نجوماً لم تحل وسار فأقام بالجويث في شرقي دجلة ثم انتقل إلى غربيها، فقدم سليمان فرأى بيت مال الورثة فارغاً فضاقت عليه الدنيا وأعطى أصحابه من أموال جند بغداد، وتحرك الجند والشاكرية في طلب الأزراق، وكان الذين قدموا مع محمد بن أوس من خراسان قد أساءوا مجاورة أهل بغداد وجاهروا بالفاحشة وتعرضوا للحرم والغلمان بالقهر فامتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، فاتفق العامة مع الجند وثاروا وأتوا سجن بغداد عند باب الشام فكسروا بابه وأطلقوه من فيه.

وجرى حرب بين القادمين مع ابن أوس وبين أهل بغداد، فعبر ابن أوس وأصحابه وأولاده إلى الجزيرة، وتصايح الناس من أراد النهب فليلحق بنا فقيل: إنه عبر إلى الجزيرة من العامة أكثر من مائة ألف نفس، وأتاهم الجند في السلاح فهرب ابن أوس إلى منزله فتبعه الناس فتحاربوا نصف نهار حرباً شديدة وجرح ابن أوس وانهزم هو وأصحابه وتبعهم الناس حتى أخرجوهم من باب الشماسية وانتهبوا منزله وجميع ما كان فيه فقيل: كان قيمة ذلك ألفي ألف درهم وأخذوا له من الأمتعة ما لا حدّ عليه، ونهب أهل بغداد منازل الصعاليك من أصحابه، فأرسل سليمان بن عبد الله إلى ابن أوس يأمره بالمسير إلى خراسان ويعلمه أن لا طريق له إلى العودة إلى بغداد، فرحل إلى النهروان فنهب وأفسد. ثم أتى بابكيال التركي كتب إليه ولاية طريق خراسان في ذي القعدة، وكان مساور بن عبد الحميد قد استخلف رجلاً اسمه موسى بالدسكرة ونواحيها في ثلاثمائة رجل واليه ما بين حلوان والسوس على طريق خراسان، وبطن جوخى، وفيها أمر المهتدي بإخراج القيان والمغنين من سامرا ونفاهم عنها، وأمر بقتل السباع التي كانت بدار السلطان، وطرد الكلاب، ورد المظالم وجلس للعامة، ولما ولي كانت الدنيا كلها بالفتن منسوجة.

حصارات بغداد:

سنة 197هـ: في هذه السنة حاصر طاهر وهرثمة وزهير بن المسيب الأمين محمداً ببغداد، فنزل زهير بن المسيب الضبي برقة كلواذي، ونصب المجانيق والعرادات وحفر الخنادق، وكان يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالعرادات ويعشر أموال التجار، فشكا الناس منه إلى طاهر.

فنزل هرثمة نَهر بين، وعمل عليه خندقاً وسوراً، ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشماسية، ونزل طاهر البستان الذي بباب الأنبار، فلما نزله شقّ ذلك على الأمين، وتفرق ما كان بيده من الأموال، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة، ليفرقها في أصحابه، وأمر بإحراق الحربية، فرميت بالنفط والنيران، وقتل بها خلق كثير.

واستأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فولاه الأسواق، وشاطئ دجلة، وما اتصل به، وأمر بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كل ما غلب عليه من الدروب، وأمدّه بالأموال والرجال فكثر الخراب ببغداد والهدم، فدرست المنازل، ووكّل الأمين علياً أفرادهمرد بقصر صالح، وقصر سليمان بن المنصور إلى دجلة، فألح في إحراق الدور والدروب، والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر مثل ذلك فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة، وما يليها، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم، ومن أبي إجابته قاتله، وأحرق منزله، ووحشت بغداد، وخربت بغداد، وخربت فقال حسين الخليع:

أتســـرع الرحلةُ أغـذاذا عـــن جانبي بغداد أماذا

أما تـــرى الفتنة قد ألفت إلى أولـــــي الفتنة شذاذا

وانتقضت بغداد عمرانهـــا عـــن رأي لا ذاك ولا هذا

هدماً وحرقاً قد أباد أهلهـــا عقوبـــــة لاذت بمن لاذا

ما أحسن الحالات إن لم تعد بغداد في القلـــــة بغدادا

وسمى طاهر الأرباض التي خالفها أهلها، ومدينة المنصور، وأسواق الكرخ والخلد دار النكث، وقبض ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم، والقواد وغيرهم، وأخذ أموالهم فذلوا وانكسروا، وذل الأجناد، وضعفوا عن القتال إلاّ باعة الطريق والعراق وأهل السجون، والأوباش والطرارين وأهل

السوق، فكانوا ينهبون أموال الناس.

وكان طاهر لا يفتر في قتالهم، فاستأمن إليه على أفراهمرد الموكل بقصر صالح فأمنه، وسيّر إليه جنداً كثيفاً، فسلم إليه ما كان بيده من تلك الناحية، واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين، وكان مجداً في نصرة الأمين، فلما استأمن هذان إلى طاهر أشفى الأمين على الهلاك، وأقبلت الغواة من العيارين، وباعة الطريق، والأجناد، فاقتتلوا داخل قصر صالح قتالاً عظيماً، قُتِل فيه من أصحاب طاهر جماعة كثيرة، ومن قواده جماعة، ولم تكن واقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر منها.

ثم إن طاهراً كاتب القواد الهاشميين وغيرهم بعد أن أخذ ضياعهم ودعاهم إلى الأمان والبيعة، فأجابه جماعة منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة وأخوته، وولد الحسن بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ما هان ومحمد بن أبي العباس الطائي وكاتبه غيرهم وصارت قلوبهم معه.

وأقبل الأمين بعد وقعة قصر صالح على الأكل والشرب، ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك والي الهرش، فكان من معهما من الغوغاء والفساق يسلبون من قدروا عليه، وكان منهم ما لم يبلغنا مثله، فلما طال ذلك بالناس خرج عن بغداد من كانت به قوة، وكان أحدهم إذا خرج أمن على ماله ونفسه، وكان مثلهم كما قال الله: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه في الرحمة وظاهره من قبله العذاب). وخرج عنها قوم بعلة الحج ففي ذلك يقول شاعرهم:

أظهروا الحج وما ينوونــه　　بل من الهرش يريدون الهرب

كم أناس أصبحوا في غبطة　　وكـل الهرش عليهم بالعطب

وقال بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغداد لمـــا　　فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا هموماً من ســـرور　　ومن سعة تبدلنا بضيـــق

أصابتنا من الحساد عيـــن　　فأفنت أهلها بالمنجنيـــق

وقوم أحرقوا بالنار قســراً　　ونائحةٍ تنوح علـــى غريق

وصائحةٍ تنادي وأصبـــاحاً　　وباكيةٍ لفقدان الشقيـــق

وحوراءِ المدامـــع ذات دلٍ مضمخة المجاسد بالخلـوق

تفِرُّ من الحريق إلى انتهـــاب ووالدها يفرُّ إلى الحـــــريق

وسالبة الغزالةِ مقلتيهـــــا مضاحكها كلألاءِ البـــروقِ

حيارى هكذا ومفكـــراتٍ عليهن القلائد في الحلـــوق

ينادين الشفيق ولا شفيـــقَ وقد فُقد الشفيق من الشفيق

وقوم أخـرجوا من ظل دنيا متاعهـــم يبـــاع بكل سوق

ومغتربٍ قريب الدار مقلـى بـــــلا رأس بقارعة الطريق

توسط من قتالهم جميعـــــاً لما يـــدرون مـــن أي الفريق

فما ولدٌ يقيم على أبيـــــــه وقد فرّ الصديق مـن الصديق

ومهما أنسَ من شيء تولـــى فإني ذاكـــــرٌ دار الـــرفيق

وذكر أن قائداً من أهل خراسان من أصحاب طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوماً إلى القتال فنظر إلى قومٍ عراة لا سلاح معهم، فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا من نرى؟ استهانه بأمرهم واحتقاراً لهم فقيل له: نعم هؤلاء هم الآفة. فقال لهم: أُفٍ لكم حين تنهزمون من هؤلاء وأنتم في السلاح والعدة والقوة، وفيكم الشجاعة، وما عسى يبلغ كيد هؤلاء ولا سلاح معهم، ولا جنة تقيهم، وتقدم إلى بعضهم وفي يديه بارية مقيرة، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار، فوقع في باريته أو قريباً منها، فيأخذه، ويتركه معه، وصاح دانق أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه، فلم يزالا كذلك حتى فني سهام الخراساني، ثم حمل عليه العيار ورُمي بحجر من مخلاته في مقلاع فما أخطأ عينه، ثم خرّ فكاد يصرعه، فانهزم وهو يقول: ليس هؤلاء بناس، فلما سمع طاهر خبره، ضحك منه.

فلما طال ذلك على طاهر، وقتل من أصحابه في قصر صالح من قُتل أمر بالهدم والإحراق، فهدم دُورَ من خالفه ما بين دجلة، ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة، وربض حميد، ونهر كرخايا، فكان أصحابه إذا هدموا داراً أخذ أصحاب الأمين أبوابها وسقوفها فيكونون أشد على

أهلها فقال شاعر منهم:

لنا كـــل يـــــومٍ ثلمة لا نسدُّها يزيدون فيما يطلبـــون وننقص

إذا هدمـــــوا داراً أخذنا سقوفها ونحن لأخرى غيرهـــا نتربص

فإن حرصوا يوماً على الشر جهدهم فغوغاؤنا منهم على الشر أحرص

فقد ضيقوا من أرضنـــا كل واسع وصار لهم أهل بها وتعـــرصوا

يثيرون بالطبل القنيص فـــإن بدا لهم وجه صيد من قريب تقنصوا

لقد أفسدوا شرق البلاد وغـــربها علينا فما ندري إلى أين نشخص

إذا حضروا قالوا بما يعرفونـــــه وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا

وما قتل الأبطال مثل مجـــــرب رسول المنايا ليله يتلصـــص

فلما رأى طاهر أن هذا جميعه لا يحفلون به، أمر بمنع التجار عنهم، ومنع من حمل الأقوات وغيرها، وشدد في ذلك، وصرف السفن التي يحمل فيها إلى الفرات، فاشتد ذلك عليهم وغلت الأسعار وصاروا في أشد حصار.

فأمر الأمين ببيع الأموال، وأخذها ووكلّ بها بعض أصحابه، فكان يهجم على الناس في منازلهم ليلاً ونهاراً، فاشتد ذلك على الناس وأخذوا بالتهمة والظنة، ثم كان بينهم وقعة بدرب الحجارة، قتل فيها من أصحاب طاهر خلق كثير، ووقعة بالشماسية خرج فيها حاتم بن الصقر في العيارين وغيرهم إلى عبيد الله بن الوضاح، فأوقعوا به، وهو لا يعلم، فانهزم عنهم، وغلبوه على الشماسية، فأتاه هرثمة يعينه، فأسره بعض أصحاب الأمين، وهو لا يعرفه، فقاتل عليه بعض أصحابه حتى خلصه وانهزم أصحاب هرثمة، فلم يرجعوا يومين.

فلما بلغ طاهراً ما صنعوا، عقد جسراً فوق الشماسية، وعبر أصحابه إليهم، فقاتلوا أشد قتالٍ حتى ردوا أصحاب الأمين، وأعاد أصحاب عبيد الله بن الوضاح إلى مراكزهم، وأحرق منازل الأمين بالخيزرانية، وكانت النفقة عليها بلغت عشرين ألف ألف درهم.

وقتل من العيارين كثير، فضعف أمر الأمين، فأيقن بالهلاك، وهرب منه عبدالله بن خازم بن

خزيمة إلى المدائن خوفاً من الأمين، لأنه اتهمه، وتحامل عليه السفلة والغوغاء، فأقام بها، وقيل: بل كاتبه طاهر، وحذره قبض ضياعه وأمواله، ثم إن الهرش خرج ومعه لفيفة، وجماعة إلى جميرة العباس، وكانت ناحية لم يقاتل فيها، فخرج إليه بعض أصحاب طاهر، فقاتلوه فقوي عليهم، فأمدهم طاهر بجند آخر، فأوقعوا بالهرش وأصحابه وقعة شديدة، فغرق منهم بشر كثير، وضجر الأمين وخاف حتى قال يوماً: وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً فأراح الناس منهم، فما منهم إلاّ عدو لي، أما هؤلاء فيريدون مالي، وأما أولئك فيريدون نفسي، وضعف أمره وانتشر جنده وأيقن بظفر طاهر به.

حصار المستعين ببغداد: سنة 251هـ:

عقد المعتز لأخيه أبي أحمد بن المتوكل – وهو الموفق – على حرب المستعين، ومحمد بن عبد الله وولاه ذلك وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمور كلها، وجعل التدبير إلى كلباتكين التركي، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراعنة وألفين من المغاربة، فلما بلغ عكبرا صلى بها وخطب للمعتز وكتب بذلك إلى المعتز، فذكر أهل عكبرا أنهم كانوا على خوف شديد من مسير محمد بن عبد الله إليهم ومحاربتهم فانتبهوا القرى ما بين عكبرا وبغداد فخربت الضياع وأخذ الناس في الطريق، ولما وصل أبو أحمد إلى عكبرا هرب إليه جماعة كبيرة من أصحاب بُغا الصغير، ووصل أبو أحمد وعسكره باب الشماسية فقال بعض البصريين ويعرف بباذنجانة:

يا بني طاهر أتتكم جنود الـ لـــــه والموتُ بينها منثورُ

وجيــوش أمامهم أبو أحـ مد نعم المولى ونعم النصير

ولما نزل أبو أحمد بباب الشماسية ولى المستعين باب الشماسية الحسين بن إسماعيل وجعل من هناك إلى القواد تحت يده فلم يزل هناك مدة الحرب إلى أن ساروا إلى الأنبار.

ثم وافت طلائع الأتراك إلى باب الشماسية فوقفوا بالقرب منه، فوجه محمد بن عبد الله الحسين بن إسماعيل، والشاه بن مكيال، وبندار الطبري فيمن معهم وعزم على الركوب لقتالهم فأتاه الشاة فأعلمه أن الأتراك لما عاينوا الأعلام والرايات قد أقبلت نحوهم رجعوا إلى معسكرهم، فترك محمد الركوب، فلما كان الغد عزم محمد على توجيه الجيوش إلى القفص ليعرضهم هناك وليرهب الأتراك وركب معه وصيف وبغا في الدروع ومضى معه الفقهاء، والقضاء. وبعث إليهم يدعوهم إلى الرجوع عما هم عليه من الطغيان والعصيان ويبذل لهم الأمان على أن يكون المعتز ولي العهد بعد المستعين

فلم يجيبوا، ومضى نحو باب قطربل فنزل على شاطئ دجلة هو ووصيف وبغا ولم يمكنه التقدم لكثرة الناس فانصرف فلما كان من الغد أتاه رسل وجه الفلس وغيره من القواد يعلمونه أن الترك قد دنوا وضربوا مضاربهم برقة الشماسية وأرسل إليهم لا تبدؤهم بقتال وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم وادفعوهم اليوم، فوافى باب الشماسية منهم اثنا عشر فارساً فرموا بالسهام ولم يقاتلهم أحدٌ فلما طال مقامهم رماهم المنجنيقي بحجر فقتل منهم رجلاً فأخذوه ورجعوا.

وقدم عبيد الله بن سليمان خليفة وصيف التركي من مكة في ثلاثمائة رجل فخلع عليه محمد بن عبد الله، ووافى الأتراك في هذا اليوم باب الشماسية فخرج الحسين بن إسماعيل ومن معه من القواد لمحاربتهم فاقتتلوا وقتل من الفريقين وجرح، وكانوا في القتلى والجرحى على السواء وانهزم أهل بغداد وثبت أصحاب البواري ثم انصرفوا، وأحضر الأتراك منجنيقاً فغلبهم عليه العامة فأخذوه، ثم سار جماعة من الأتراك إلى ناحية النهروان فوجه محمد بن عبد الله قائدين من أصحابه وأمرهما بالمقام بتلك الناحية وحفظها من الأتراك فقاتلوهم فانهزم أصحاب محمد إلى بغداد وأخذت دوابهم فدخلوا بغداد منهزمين، ووجه الأتراك برؤوس القتلى إلى سامرا واستولوا على طريق خراسان وانقطع الطريق عن بغداد، ووجه المعتز عسكراً في الجانب الغربي فساروا إلى بغداد وحازوا قطربل فضربوا عسكرهم هناك، فلما كان من الغد وجه محمد بن عبد الله عسكراً إليهم فلقيهم الشاه بن ميكال فتحاربوا فانهزم أصحاب المعتز فخرج عليهم كمين لمحمد بن عبد الله فانهزموا ووضع أصحاب محمد فيهم السيف فقتلوهم أكثر قتل ولم يفلت منهم إلا القليل ونهب عسكرهم جميعه، ومن سلم من القتلى ألقى بنفسه في دجلة ليعبر إلى عسكر أبي أحمد فأخذه أصحاب السفن وحملوا الأسرى والرؤوس في الزواريق فنصب بعضها ببغداد، وأمر محمد لمن أبلى في هذا اليوم بالأسورة والخلع والأموال، وطلبت المنهزمة فبلغ بعضهم أواناً وبعضهم بلغ سامرا، وكان عسكر المعتز أربعة آلاف، فقتل منهم ألفان وغرق منهم جماعة وأسر جماعة، فخلع محمد على جميع القواد على كل قائد أربع خلع وطوق، وسوار من ذهب، وكان عود أهل بغداد عنهم مع المغرب وكان أكثر العمل في هذا اليوم للعيارين. وركب محمد بن عدب الله إلى الشماسية فأمر بهدم ما وراء سورها من الدور والحوانيت والبساتين من باب الشماسية إلى ثلاثة أبواب ليتسع على من يحارب، وقدم مال من فارس والأهواز مع منكجور الأشروسني فوجه أبو أحمد الأتراك لأخذه، فوجه محمد بن عبد الله جماعة لحفظ المال فعدلوا به نحو النهروان فقتلوا وأحرقوا سفن الجسر – وهي عشرون سفينة – ورجعوا إلى سامرا، وقدم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد وكان

المستعين قلده إمرة الثغور الجزرية وكان بمدينة بلد ينتظر الجنود والمال ليسير إلى الثغور كان من أمر المستعين والأتراك ما ذكرنا سار من بلد إلى بغداد على طريق الرقة في أصحابه وخاصته – وهم زهاء أربعمائة – فخلع عليه محمد بن عبد الله خمس خلع ثم وجهه في جيش كثيف لمحاربة أيوب بن أحمد فأخذ على طريق الفرات فحاربه في نفر يسير فهزم محمد وصار إلى ضيعته بالسواد، فلما سمع محمد بهزيمته قال: لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به، وكانت للأتراك وقعة بباب الشماسية فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى كشفوا من عليه ورموا به المنجنيق بالنار والنفط فلم يحرقه ثم كثر الجند على الباب فأزالهم عن موقفهم بعد قتلى وجرحى، ووجه محمد العرادات في السفن فرموهم بها رمياً شديداً فقتلوا منهم نحو مائة، وكان بعض المغاربة قد صار إلى السور فرمي بكلاّب فتعلق به فأخذه الموكلون بالسور ورفعوه فقتلوه وألقوا رأسه إلى الأتراك فرجعوا إلى معسكرهم.

وأراد بعض الموكلين أن يصيح يا مستعين يا منصور فصاح يا معتز فظنوه من المغاربة فقتلوه، وتقدم الأتراك في بعض الأيام إلى باب الشماسية فرمي الدرغمان مقدم المغاربة بحجر منجنيق فقتله وكان شجاعاً. وكان بغض المغاربة يجيء فيكشف أسته ويصيح ويضرط ثم يرجع فرماه بعض أصحاب محمد بسهم في دبره من حلقه فخر ميتاً. واجتمعت العامة بسامرا ونهبوا سوق الجوهريين والصيارفة، وغيرهما فشكا التجار ذلك إلى إبراهيم المؤيد فقال لهم: كان ينبغي أن تحولوا متاعكم إلى منازلكم ولم يصنع شيئاً ولا أنكر ذلك، وقدم جماعة من أهل الثغور يشكون بلكاجور ويزعمون أن بيعة المعتز وردت عليه فدعا الناس إلى بيعته وأخذ الناس بذلك فمنع امتنع ضربه وحبسه وإنهم امتنعوا وهربوا فقال وصيف: ما أظنه إلا ظن أن المستعين مات، وقام المعتز فقالوا: ما فعله إلا عن عمد، فورد كتاب بلكاجور يذكر أنه بايع المعتز فلما ورد كتاب المستعين بصحة الأمر جدد له البيعة وأنه على السمع والطاعة، فأراد موسى بن بغا أن يسير إلى المستعين فامتنع أصحابه الأتراك من موافقته على ذلك وحاربوه فقتل بينهم قتلى، وقدم من البصرة عشر سفائن بحرية في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً ما بين نفاط وغيره فمرت إلى ناحية الشماسية فرمى من فيها بالنيران إلى عسكر أبي أحمد فانتقلوا إلى موضع لا ينالهم شيء من النار، وتقدم الأتراك إلى أبواب بغداد فقاتلوا عليها فقتل من الفريقين جماعة كثيرة ودام القتال إلى العصر.

ثم عمل محمد بن عبد الله كافر كونات وفرقها على العيارين فخرجوا بها إلى أبواب بغداد وقتلوا من الأتراك نحواً من خمسين رجلاً. ثم قدم مزاحم بن خاقان من ناحية الرقة فتلقاه الناس ومعه زهاء

ألف رجل فلما وصل خلع عليه سبع خلع وقلد سيفاً، ووجه المعتز عسكراً يبلغون ثلاثة آلاف فعسكروا بإزاء عسكر أبي أحمد بباب قطربل.

وركب محمد بن عبد الله في عسكره وخرج من النظارة خلق كثير فحاذى عسكر أبي أحمد فكانت بينهم في الماء جولة وقتل من أصحاب أبي أحمد أكثر من خمسين رجلاً، ومضى النظارة فجاؤوا العسكر بنصف فرسخ فعبرت إليهم سفن لأبي أحمد فنالت منهم، ورجع محمد بن عبد الله وأمر ابن أبي عون برد الناس فأمرهم بالعود فأغلظوا له فشتمهم وشتموه وضرب رجلاً منهم فقتله فحملت عليه العامة فانكشف من بين أيديهم، فأخذ أصحاب أبي أحمد أربع سفائن وأحرقوا سفينة فيها عرادة لأهل بغداد، وسار العامة إلى دار ابن أبي عون لينهبوها، وقالوا: مايل الأتراك فانهزم أصحابه وكلموا محمداً ف صرفه ومنعهم من أخذ ماله. ثم وصل عسكر المعتز الذي سيّره إلى مقابل عسكر أخيه أبي أحمد عند عكبرا فأخرج إليهم ابن طاهر عسكراً فمضوا حتى بلغوا قطربل وبها كمين الأتراك فأوقع بهم ونشبت الحرب بينهم وقتل بينهما جماعة، واندفع أصحاب محمد قليلاً إلى باب قطربل والأتراك معهم فخرج الناس إليهم فدفعوا الأتراك حتى نحوهم ثم رجعوا إلى أهل بغداد فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقتل من الأتراك أيضاً خلق كثير، ثم تقدم الأتراك إلى باب القطيعة فنقبوا السور فقتل أهل بغداد أول خارج منه وكان القتل ذلك اليوم أكثره في الأتراك والجراح بالسهام في أهل بغداد.

وندب عبد الله بن عبد الله بن طاهر الفاس فخرجوا معه وأمر الموكل بباب قطربل أن لا يدع منهزماً يدخله ونشبت الحرب فانهزم أصحاب عبد الله وثبت أسد بن داود حتى قتل. وكان إغلاق الباب على المنهزمين أشد من الأتراك فأخذوا منهم الأسرى وقتلوا فأكثروا وحملوا الأسرى والرؤوس إلى سامرا، فلما قربوا منها غطوا رؤوس الأسرى، فلما رآهم أهل سامرا بكوا وضجوا وارتفعت أصواتهم وأصوات نسائهم فبلغ ذلك المعتز فكره أن تغلظ قلوب الناس عليه فأمر لكل أسير بدينار وأمر بالرؤوس فدفنت. وقدم أبو الساج من طريق مكة فخلع عليه. وجاء نفر من الأتراك إلى باب الشماسية ومعهم كتاب من المعتز إلى محمد بن عبد الله فاستأذنه أصحابه في أخذه فأذن لهم فإذا فيه يذكره ما يجب عليه من حفظ العهد القديم فإن الواجب عليه أنه كان أول من يسعى في أمره ويؤكد خلافته فما رد عليه محمد جواب الكتاب.

وكانت وقعة بينهم أخرى قتل فيها من الأتراك سبعمائة ومن أصحاب محمد ثلاثمائة. ثم أمر أبو

الساج وعلي بن فراشة وعلي بن حفص بالمسير إلى المدائن، فقال أبو الساج لمحمد بن عبد الله: إن كنت تريد الجد مع هؤلاء القوم فلا تفرق قوادك واجمعهم حتى تهزم هذا العسكر المقيم بإزائك، فإذا فرغت منهم فما أقدرك على من بعدهم فقال: إن لي تدبيراً ويكفي الله إن شاء الله. فقال أبوا لساج: السمع والطاعة وسار إلى المدائن وحفر خندقها وأمده محمد بثلاثة آلاف فارس وألفي رجل. وكتب المعتز إلى أخيه أبي أحمد يلومه للتقصير في قتال بغداد فكتب إليه الجواب:

لأمر المنايا علينـــا طريـــقُ ... وللدهر فينـــا اتســـاع وضيقُ

وأيامنـــــا عبـــرة للأنام ... فمنها بكورٌ ومنها الطـــروقُ

ومنها هَنَتاتٌ تُشيـــب الوليد ... ويُخذك فيها الصديق الصـدوق

وفتنـــة ديـــــن لها ذروة ... تفوق العيون وبحر عميـــق

قتال متيـــن وسيـــف عتيد ... وخـــوف شديدٌ وحصن وثيق

وطول صياحٍ لداعي الصباح الـ ... ســـلاحَ السلاحَ فما يستفيق

فهـــذا طريـــحٌ وهذا جريحٌ ... وهذا حريق وهـــذا غريـــق

وهـــذا قتيـــل وهذا تليل ... وآخر يشدخه المنجنيـــق

هناك اغتصاب وتـــم انتهاب ... ودور خـــراب وكانت تروق

فبالله نبلـغ مـــــا نـرتجي ... وبالله نـــدفع مـــا لا نطبق

وهذه الأبيات لعلي بن أمية في فتنة الأمين والمأمون.

شغب الأتراك على جلال الدولة ببغداد:

في سنة 431هـ شغب الأتراك على الملك جلال الدولة ببغداد، وأخرجوا خيامهم إلى ظاهر البلد ثم أوقعوا النهب في عدة مواضع فخافهم جلال الدولة فعبّر خيامه إلى الجانب الغربي وترددت الرسل بينهم في الصلح وأراد الرحيل عن بغداد فمنعه أصحابه فراسل دبيس بن مزيد وقرواشاً صاحب الموصل وغيرهما وجمع عنده العساكر فاستقرت القواعد بينهم وعاد إلى داره وطمع الأتراك وآذوا

الناس ونهبوا وقتلوا وفسدت الأمور بالكلِّية إلى حلا ما لا يرجى صلاحه.

غرق بغداد سنة 466هـ:

في هذه السنة غرق الجانب الشرقي وبعض الجانب الغربي من بغداد وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة وانفتح القورج عند المسناة وجاء في الليل سيل عظيم، وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل من فوق ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم وشدت الزراريق تحت التاج خوف الغرق، وقام الخليفة يتضرع ويصلي وعليه البردة وبيده القضيب، وأتى أيتيكن السليماني من عكبرا، فقال للوزير: إن الملاحين يؤذون الناس في المعابر فأحضرهم وتهددهم بالقتل وأمر بأخذ ما جرت به العادة، وجمع الناس وأقيمت الخطبة للجمعة في الطيار مرتين وغرق من الجانب الغربي مقبرة أحمد ومشهد باب التبن وتهدم سوره، فأطلق شرف الدولة ألف دينار تصرف في عمارته، ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي.

ومن عجيب ما يُحكى في هذا الغرق أن الناس في العام الماضي كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عنده فضربه فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة، منهم أبو إسحاق الشيرازي واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطليها فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك فسكنوا وتفرقوا، ولازم كثير من الصالحين الدعاء بكشفه فاتفق أن غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس، فرأى الشريف أبو جعفر موسى بعض الحجاب الذين يقولون نحن نكاتب السلطان ونسعى في تفريق الناس ويقول اسكنوا إلى أن يرد الجواب، فقال له أبو جعفر قد كتبنا وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعني أنهم شكوا ما حل بهم إلى الله تعالى وقد أجابهم بالغرق قبل ورود جواب الخليفة.

غرق بغداد سنة 554هـ:

في هذه السنة كثرت الزيادة في دجلة، وخرق القورج فوق بغداد، وأقبل المد إلى البلد، فامتلأت الصحارى، وخندق البلد، وأفسد الماء السور، ففتح فيه فتحة، فوقع بعض السور عليها فسدها، ثم فتح الماءُ فتحة أخرى، وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع، فغلب الماء، وتعذر سده فغرق قراح طغر، والأجمة، والمختارة، والمقتدية، ودرب القبار، وخرابة أبي جردة، والرياني وقراح القاضي، وبعض القطيعة، وبعض باب الأزج، وبعض المأمونية، وقراح أبي الشحم، وبعض قراح ابن رزين،

وبعض الظفرية، ودب الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت، وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي، فبلغت المعبرة عدة دنانير، ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور، وبقي الماء، الذي داخل السور يدب في المحال التي لم يركبها الماء، فكثر الخراب، وبقيت المحال لا تعرف، وإنما هي تلول، فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين. وأما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل، وغيرها من المقابر، وانخسفت القبور المبنية، وخرج الموتى على رأس الماء، وكذلك المشهد، والحربية، وكان أمراً عظيماً. وفي آخر صيف سنة 654هـ حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد، لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل هناك غرقت في الماء واختفت تماماً. وقد استمر السيل يهطل في تلك الديار خمسين يوماً، ثم بدأ في النقصان وكان من نتيجة ذلك أن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً يباباً.

حريق بغداد سنة 451هـ:

في هذه احترقت بغداد الكرخ وغيره وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها أرد شير الوزير ونهبت بعض كتبها وجاء عميد الملك الكندري فاختار من الكتب خيرها وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة من أصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق فأزالهم عميد الملك وقعد يختارها فنسب ذلك إلى سوء سيرته وفساد اختياره وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمر المدارس ودوّن العلم في بلاد الإسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها.

حريق الكرخ سنة 362هـ:

في هذه السنة احترق الكرخ حريقاً عظيماً، وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عامياً، فثار به العامة والأتراك، فهرب ودخل دار بعض الأتراك، فأخرج من فيها، فركب الوزير أبو الفضل لأحد الجناة وأرسل حاجباً له – يسمى صافياً – في جمع لقتال العامة بالكرخ، وكان شديد العصبية للسنية، فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ فاحترق حريقاً عظيماً. وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان، وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ومن الأموال ما لا يحصى.

ما قبل الحريق:

- الخلافة العباسية قبيل حملة هولاكو تطاول عليها الزمن وأدركتها الشيخوخة.

- مظاهر الانهيار ترتسم عليها بعد أن ظلت جذور الضعف تمتد في جسمها قبل ذلك بمدة طويلة.

- كان الفرس يسيطرون عليها من وراء ستار وغلبة الأتراك تبدو واضحة منذ أن فتح لهم الخليفة المعتصم الباب على مصراعيه.

- استئثار بالنفوذ وطغيان على سلطان الخلفاء، وتهاون العباسيين وانصرافهم عن العرب أسقطت هيبة الدولة.

- ولاة الأمصار طمعوا في استقلال ولاياتهم والاكتفاء بولاء صوري للخلافة.

- تفكك الروابط القوية التي كانت تربط الحكومة المركزية بالأمصار.

- دول عديدة نشأت وإمارات مستقلة في قلب الخلافة وعلى أطرافها.

- الخلافة أصبحت كالعليل على فراش الموت، ينتهز اللصوص فرصة مرضه للإجهاز عليه والقبض على ميراثه.

- اعتلال الإدارة، وشغب الموالي وتطاولهم على الخلافة واستئثارهم بالنفوذ والصولة كان الأثر الأعظم في وهن السلطة المركزية.

- الخلفاء صاغرون أذلاء رضوا لأنفسهم الهوان والإساءة.

- الخلفاء كالوزراء والقضاة ورؤساء العسكر راشون مرتشون، يعيشون في أجواء الغموض والريبة.

- ثورات العلويين المتتابعة كلفت الدولة العباسية كثيراً من المال والجهد والرجال واستنزفت قوى الدولة.

- انتفاء الأمان وكثرة نقض العهود والتحلل من الإيمان يسبب التنافس على عرش الخلافة وسوء الحالة الاجتماعية على أثر الانغماس في الترف والعكوف على الشراب والغناء والأخذ بأسباب اللهو إلى أبعد حد، والإقبال على التسري وما رافقه من نظام الحريم والخصيان، واقتناء الجواري والغلمان، وتكاثر الأبناء والبنات المولدين من أمهات مختلفات في بلاد الخلافة، كل ذلك عمل على تقويض معنويات الأمة وتوهين مقام المرأة، وانحراف الرجال وذهاب المروءة منهم، وإفساح المروءة المجال

للتحاسد والتباغض وإثارة الفتن وإشاعة الفساد في جسم الدولة والقضاء على النشاط والحيوية في أفراد البيت المالك.

- الدولة العباسية في شيخوختها تشهد انسلاخ الأطراف عنها واحداً بعد الآخر حتى إذا اقتربت من نهايتها لم يبق لها غير القلب الذي صار ينبض في جسد عليل لا يكاد يتجاوز إقليم العراق وخوزستان. وهذا القلب قد أختلت دقاته، وانقطع نظامه بحالة لا يمكن أن يقف معها لمواجهة اليد الباطشة القوية التي امتدت إليه من الشرق.

- المستعصم آخر الخلفاء العباسيين كان رجلاً متديناً، لين الجانب سهل العريكة، سهل الأخلاق، ضعيف الوطأة، إلا أنه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور. يقضي زمانه أكثره بسماع الأغاني، والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة. وأصحابه كانوا مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام.

- اشتهر عنه مرة أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يطلب جماعة من ذوي الطرب، وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه بطلب منه منجنيقات وآلات حصار.

- بدر الدين يقول: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله.

- المستعصم كان شديد البخل يكنز الأموال، ويقيم وزناً كبيراً للدينار والدرهم ولا يصرف الأموال في شؤون الدفاع، وتشجيع الجنود وحثهم على مواجهة الأعداء، وقد استمر هذا العيب لاصقاً به حتى في أحرج الأوقات عندما قدم هولاكو يجيوشه الجرارة إلى إيران، وصار يتهدد دولة المستعصم بالفناء.

- الأخبار تصل الخليفة تباعاً باقتراب جيوش المغول.

الخليفة لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم أو على الأقل يداهنهم ويصانعهم كما صنع غيره من أمراء الولايات.

- المستعصم إذا لُفت نظره إلى ما يجب أن يفعله مع التتار، إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق – يقول: (أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا يهجمون عليّ وأنا بها

وهي بيتي ودار مقامي).

- المستعصم كان متديناً متمسكاً بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده، ولم يكن على ما كانوا عليه من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، نازل الهمة، محباً للمال، مهملاً للأمور يتكل فيها على غيره.

- المستعصم رغم أنه كان ضعيف الرأي، قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول، كان يظن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام الخطر المغولي، فخالف بذلك السياسة التقليدية التي درج عليها أسلافه زمناً طويلاً مع السلطات القوية التي تعاقبت على إيران مثل البويهيين والسلاجقة، إذ كانت القاعدة أن هؤلاء السادة حين كانت تغطى قوتهم، كان الخلفاء يستسلمون ويقبلون إلى جانبهم أمير الأمراء البويهي أو السلطان السلجوقي. وكان الخليفة حين يستسلم، يتمسك بوظائفه الروحية، ويترقب إلى أن تستنفد تلك السيادة الوقتية قواها، حتى إذا حانت الفرصة للخليفة، ولمس بادرة ضعف في هؤلاء السادة، عاد فرقع رأسه، وتدخل في حل المشكلات، وعمل على إنهاء تلك السيادة، فكانت الخلافة أبقى من هؤلاء الحكام الذين قد يعمرون دهراً قصيراً أو طويلاً، ولكن مصيرهم إلى الزوال. أما الخلافة فإن لها الخلود كما كانوا يعتقدون. أو على حد تعبير الخليفة على لسان رسوله إلى هولاكو: (إن كل ملك قصد أسرة العباسيين ودار السلام بغداد، صارت عاقبته وخيمة. ومهما قدصهما الملوك ذوو الصلابة وأصحاب الشوكة، فإن بناء هذه الأسرة محكم للغاية، وسوف يدوم إلى يوم القيامة).

- زمام الأمور في بغداد لم يكن مركزاً في يد واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخى، ويتدخل في عملها. ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شؤون الدولة، بل كانوا متنازعين متباغضين كل منهم ينقم على الآخر، ويدبر ضده المؤامرات، ويسفه رأيه عند الخليفة. وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الإرادة، ضعيف الشخصية، لا يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده، فترتب على ذلك أن اتسعت شقة الخلاف بين هؤلاء الساسة، واستحكم العداء بينهم.

- الخلاف على أشده بين وزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي وكان شيعياً، وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سنياً.

- قبيل حملة هولاكو جمع الدواتدار الصغير حوله كثيراً من الرعاع والمشاغبين والسفلة، وأخذ

يهدد الأمن، ويضع الخطط لخلع الخليفة وإحلال آخر محله.

- الوزير بعد أن علم بتلك المؤامرة، أخبر الخليفة على الفور بما يدبر ضده، وطلب إليه أن يقضي على تلك الفتنة في مهدها.

- الخليفة جرياً على سياسة التهاون وعدم المبالاة، لم يصغ إلى نصيحة وزيره، وأمَّنَ الدواتدار على حياته، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة.

- تصرف الخليفة على هذا النحو يدل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة في هذا العهد، وأنها لا محالة قد آذنت بالمغيب.

- الوزير والدواتدار كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة، مما كان له أثره السيء في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة، لأن مثل هذه التصرفات كانت تصدر عن غاية وهوى لا عن خدمة حقيقية للدولة.

- سكان بغداد خليط من السنة والشيعة والمسيحيين واليهود كانوا في خلاف دائم حول المسائل الدينية والميول السياسية.

- هذه الحالة تثير الفتن والمنازعات بين السكان كما حدث في أواخر عهد المستعصم إذ نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع، فأغار أبو بكر على مقر الشيعة في الكرخ وارتكب كثيراً من الفظائع، فقتل الرجال، وسبى النساء، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، واستباح الحرمات.

- هذا التصرف كان له أسوأ الأثر في نفوس الشيعة، فنقموا على المستعصم وعلى ابنه، كما أثار هذا الحادث كواً من الأحقاد على الدولة العباسية فبرموا بها وتمنوا زوالها.

- مؤيد الدين العقلمي الذي كان من كبار الشيعة، تألم جداً لوقوع هذا الحادث، فكاتب التتر وأطعمهم في ملك بغداد.

- العوامل الاقتصادية: الخراج المرهق، خطة التحكم في شؤون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة، كساد الحياة الزراعية والصناعية، كان أثرها في فساد شؤون العباد، فكلما ازداد الحكام غنى ازداد الفقراء فقراً.

- الدولة حينما تجزأت إلى دويلات، قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته، وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فصارت أكثر المزارع مهجورة خربة، وزاد الخراب تكرر الفيضان في سهول العراق الجنوبية.

نذر الحريق
شرارات أولى

النصيحة:

«لاحظ في كل خطواتك أعمال جنكيز خان وعاداته وقوانينه جملة وتفصيلاً. وعامل بالحسنى، وأغمر بشواهد محبتك وعطفك كل من يخضع لك ويطيع أوامرك ونوهيك، من شواطئ جيحون حتى أطراف مملكة مصر. أما إذا ثار عليك إنسان أو عصاك فشتته في الصحراء هو وزوجته وأولاده وأسرته وجميع أقاربه واجعله فريسة للشدة والذل.

وعندما تبدأ بقوهستان خرب القلاع والحصون واجعل أعالي كردكوة ولنبسير أسافلها، ولا يهمنك إبقاء أي حصن في العالم أو أية بقعة من بقاع الأرض. حتى إذا أتمت كل هذا فسر إلى العراق واقض على ساداتها، وعلى من فيها من الأكراد الذين يقطعون الطرق بلصوصيتهم. وإذا قدّم لك خليفة بغداد فروض الطاعة والخضوع فلا تأخذ منه شيئاً، أما إذا تظاهر بالغرور، وإذا كانت أقواله ونواياه تعوزها المودة فعامله كما تعامل أعداءك الآخرين».

هذا بعض ما قاله مانجو خان الزعيم المغولي لهولاكو بعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أجطاي الذين دبروا المؤامرة ضده. إذ أعد مانجو ما يلزم من الرجال والمؤن والذخيرة ووضع لهولاكو خطة العمل، وأسندها إليه، وعني بها عناية فائقة وخصص لها كثيراً من القوات المغولية المحاربة، فوضع تحت تصرف هولاكو الجيش الذي كان قد أرسله إلى إيران تحت قيادة بيجو نويان وجور ماجون، والآخر الذي أرسله نحو كشمير وهندستان تحت قيادة طاير بها دور. كما أمده بألف من الرجال ذوي الخبرة في إدارة آلات الحرب وقاذفات النفط الذين أحضرهم من بلاد الخطا لهذه الغاية.

وكانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس في وقت واحد، وكل قوس منها يرمي سهاماً يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة أذرع. وكانت السهام مغطاة بريش الصقور والنسور ولها حافات قصيرة قوية. وأمر مانجو فوق ذلك بأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود جنكيز خان التي قسمت بين أبنائه وأخوته وأبناء أخوته لتكوين

حرس خاص لهولاكو. ولم يهمل في الوقت نفسه تموين الجيش فخصص لكل جندي ألف رجل من النبيذ، ومثل ذلك من اللبن الحامض الذي كان يحبه المغول، وألف رطل من اللحم، كما أنه لم ينس أن يسهل لهذه الجيوش مهمة السير، وأرسل رسله إلى البراري والمراعي التي تمتد من قرة قورم إلى شاطئ جيحون والتي ستمر بها هذه الجيوش ليدعو أهلها إلى تقديم المعونة لها أثناء سيرها ولينذروهم من التعرض لها وليقيموا الجسور المتينة على الأنهار العميقة ومجاري المياه السريعة التي تعترض طريق هذه الجيوش.

- في الطريق إلى بغداد عقبة يجب أن يزيحها هولاكو قبل أن يجتاز إلى دار السلام.

- القضاء على الإسماعيلية هي العقبة، فقد كان ظهور هذه الطائفة على يد الحسن بن الصباح في أول مركز لها في آلموت ظهوراً مقلقاً لجنكيز خان ولذلك قام إلى ما وراء النهر للقضاء عليها في أيام جلال الدين جد ركن الدين خور شاه الذي حكم من سنة 1210م حتى سنة 1220م.

- رسول جلال الدين أول من قدّم فروض الطاعة لجنكيز خان بعد عبوره نهر سيحون.

- الإسماعيلية ظلوا مدة طويلة في صفاء مع المغول وهم الذين دعوا جنكيز خان إلى القضاء على جلال الدين خوارزم شاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنت.

- الإسماعيلية بعدما رأوا مطامع المغول لا تقف عند حد وأن فتوحهم مستمرة في الصين وأوروبا وخراسان والعراق (العجمي) وآسيا الصغرى خافوا خطرهم وعوّلوا على مناجزتهم، وأخذوا يرسلون رسلهم إلى أوروبا سنة 1238م يطلبون معونة ملوكهم الذين عرفوهم أبان الحروب الصليبية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك.

- خطة الإسماعيلية هذه أغضبت المغول، وكانت سبباً في سوء معاملتهم لرسول شيخ الجبل الذي حضر انتخاب كيوك سنة 1246م. كما كانت أيضاً سبباً في تقرير المغول بعد ذلك في مجلس انتخاب مانجو إرسال حملة من ضمن أهدافها القضاء على الإسماعيلية هي حملة هولاكو.

- هولاكو خرج من قره قورم سنة 1254هـ بعد أن أقام مانجو له ولجنوده الولائم.

- حاكم ما وراء النهر وتركستان مسعود بك يقدم خيمة مطرزة بالذهب إلى هولاكو.

- هولاكو يتقبل فروض الطاعة والولاء من الأمير أرغون حاكم خراسان وغيره من الكبراء الذين جاءوا حاملين الهدايا من العراق وخراسان وأذربيجان وآران وشروان وبلاد الكرج والذين كان من بينهم السلطان عزالدين وركن الدين من بلاد الروم السلاجقة وسعد بن الأتابك مظفر الدين من فارس.

- هولاكو يوجه الرسائل إلى ملوك إيران وسلاطينهم يدعوهم إلى مساعدته قائلاً: «أتينا طبقاً لأمر الخان الأعظم لندك حصون الإسماعيلية ونقضي على هذه الطائفة قضاء تاماً، فإن حضرتم بأنفسكم أمامي وعضدتم مشروعي بتقديم الجند والذخيرة والآلات احتفظت لكم بما في أيديكم من الولايات والجيوش والقصور، أما إن أظهرتم على العكس من ذلك تواني وإهمالاً في تنفيذ أوامري سرت إليكم بعد إتمام مشروعي بعون الله ولم أسمع منكم اعتذاراً وعاملت حكوماتكم وأملاككم كما لو كانت ملكاً للكفار.

- هولاكو لم يبق أمامه سوى أن يلاقي الإسماعيلية بعد أن اطمأن إلى عدم وجود أخطار أمامه، وبعد أن اكتسب محالفة الأمراء فيما وراء النهر وفارس.

- هولاكو يعبر بقواته نهر جيحون سنة 653هـ ويسير نحو قوهستان.

- هولاكو لم يبق صعوبة كبيرة ولم يبذل مجهوداً في فتح ساوه وخواف سنة 1256م، لأنه كان قد أرسل من قبل قائده قطبغا نويان بجيش عدده اثنا عشر ألفاً في خريف سنة 1252م إلى هذه الجهة ليمهد له السبيل، وقد قام هذا بواجبه خير قيام.

- هولاكو يترك قوهستان ويتجه نحو بحر قزوين ماراً بالمنصورية وسهول راذكان ثم خبوشان فيعيد بناءها بعد أن مخربة منذ حملات المغول الأولى.

- هولاكو يصل أمام أسوار خرا كان وبستام ليتوجب عليه فتح معاقل الإسماعيلية الحصينة.

- هولاكو يتبع خطة توفر عليه الجهود وتقرّب أمنيته بديلاً عن القوة في مواجهة شجاعة الإسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم التي كانت تقض مضجعه وتطيل حروبه وتكبده الخسائر الكبيرة.

- خطة هولاكو تقوم على الاستفادة من جبن ركن الدين خور شاه المقيم وقت ذاك في ميمون

ديزه وإدخال الرعب في قلبه حتى يسلّم ثم استخدامه في فتح معاقل الإسماعيلية.

- هولاكو يبدأ بتنفيذ خطته هذه وهو أمام أسوار بستام فيرسل حاكم هراة مركتاي ومعه منكلمش ويوصيهما بتهديد خور شاه وإرهابه.

- المراسلات تتواصل بينهما مدة طويلة، وأخيراً أرسل إليه هولاكو عطا ملك الجويني حتى إذا لم يصل إلى نتيجة بدأت جيوشه تضرب المدينة.

- خطة هولاكو تثمر ثمرتها الأولى المتمثلة بخروج ركن الدين خور شاه من ميمون ديزه في سنة 654هـ وتقديم خضوعه لهولاكو.

- المغول يستولون بعد ذلك مباشرة على ميمون ديزه ويخربونها وينبهونها ويحرقوها.

ثم يستغلون ركن الدين خور شاه ويستفيدون من وجوده في أيديهم فيعاملونه بالحسنى في أول الأمر حتى أطاعهم ودعا مدن الإسماعيلية إلى التسليم لهم. وقد أثمرت دعوته بخضوع أكثر من خمسين قلعة إليهم.

- المدن التي أبت سماع دعوة خوة شاه بالتسليم مثل آلموت فتحت بالقوة سنة 654هـ.

- هولاكو يرسل ركن الدين شاه إلى قره قورم لمقابلة الخان الأعظم، ولكن الخان لم يقابله وأمر بقتله وقتل جميع من بقي على قيد الحياة من أهل طائفته. وبهذا قضى المغول على الإسماعيلية في إيران كقوة سياسية.

- جبن ركن الدين خور شاه وسوء تدبيره كانا السبب في قضاء هولاكو على الإسماعيلية بهذه السهولة.

- عامل آخر يضاف إلى هذين السببين يتمثل في الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي الذي كان في آلموت عندما دارت المحادثات بين هولاكو وركن الدين خور شاه. وكان قد جاء بهذا الرجل إلى آلموت نصير الدين حاكم قوهستان من قبل الإسماعيلية في أيام علاء الدين وركن لدين خور شاه. وظل بها منذ ذلك الحين محترماً مكرماً. ولكن هذه الإقامة كانت على غير رغبة منه لذلك لم يخلص لحكامها، وبلغ كرهه لها على أشده في أيام ركن الدين خور شاه.

- الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي يتلخص في أنه اتفق مع جماعة ممن كانوا يقيمون مثله في آلموت على غير ولاء على تسليم الإقليم لهولاكو إذا استدعى الأمر. وقد خدمته الظروف إذ لم تضطره إلى تدبير مؤامرة لتسليم البلاد، ولم تظهر للملأ خيانته هو وإخوانه، لأن خور شاه سرعان ما اقتنع بضرورة التسليم للمغول مع أنه الخائن الذي غرر بخور شاه وخدعه وشجعه على التسليم وكلفه بذلك أمراً أفقده حياته وملكه وطائفته.

الوثوب:

«الحقيقة أن هذه المدينة بسبب كثرة سكانها، وجيوشها العديدة. وبسبب ما تحتوي عليه من آلات الحرب والذخيرة، وبسبب هذه الطرق الصعبة الضيقة التي يجب سلوكها قبل الوصول إليها، بسبب ذلك كله لا يمكن لأي جيش أن يقتحمها إلا بصعوبة».

- بهذا عزا بيجو نويان تمهله عن المسير إلى بغداد أمام تقريع هولاكو، فليس من الحكمة والأمر الإسراع بمهاجمتها قبل إتمام العدة. وقد يكون التريث برغبة هولاكو في الظهور بمظهر المطيع لتعليمات الخان الأعظم المنفذ لها.

- همذان محطة الوصول الأول بعد أن انتهى أمر الإسماعيلية وانطفأت أنوار الحفلات في قزوين التي أقامها هولاكو لجيوشه المنتصرة سنة 654هـ.

- همذان محطة استراحة مقاتل تجتاحه رغبات تدميرة لمدينة تتراقص أنوار حضارتها في مخيلة طموح لأن تسع الدنيا كلها، ومدينة السلام حاضرة الأمة الإسلامية هي بؤرة أحلام قائد منتفش بزهو الانتصارات على شعوب مقهورة تغط تحت دثار أمراء مستكينين لرغبات مكبوتة وجشع إلى المال والمرأة والكرسي.

- في ذهن هولاكو تتصارع هواجس، هواجسه الذاتية ورغبته في إبادة حاضرة الدولة العباسية الممتدة أمامه لتسع ثلثي الدنيا ورغبة مانجو أميره الذي نصحه يوم أقام له ولجيوشه الولائم في قره قوم بألا يقضي على حاضرة الخلافة العباسية، بل طلب منه أن يترك أملاك الخليفة إذا قدم له فروض الطاعة وأظهر نواياه الحسنة.

- هولاكو مأزوم النفس، استمع إلى نصيحة أميره بإذن صماء، وكان مغتاضاً من خليفة آخر

العنقود في الخلافة العباسية الذي لم يكلف نفسه مؤونة إرسال رسول من قبله مؤازراً له – لهولاكو – حينما كان الأمراء الآخرون يقدمون له فروض الطاعة حيثما وصل.

- وعلى كل حال وصل هولاكو إلى مرحلة الحسم في نفسه على الأقل، وكان أول ما قام به وهو في همذان أن أرسل رسالة عتب إلى خليفة بغداد المستعصم بسبب عدم إمداده بالجند عند محاربته للإسماعيلية ويذكره بأن المغول لم يهزموا قط.

- هولاكو يدعو خليفة بغداد إلى تجريد حصونه من السلاح والحضور شخصياً إليه أو إرسال الدفتر دار الصغير وسليمان شاه نيابة عنه. وينذره قائلاً له إنه إن فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه وإن أبى أحل بنفسه وبأهله الدمار؛ لأن جيوش المغول في تلك الحالة ستسير إلى بغداد وتستولي عليها منه لتخفضه من عزه ولا تدع أحداً في قيد الحياة في جميع أرضه.

الإنذار الأخير:

هولاكو وجه الرسالة التالية إلى المستعصم:

(لا بد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قوة وسلطان؟! وقد نصحناك قبل هذا. والىن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً. ومع هذا فقد مضى ما مضى فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا، وإذا كنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدواتار، ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة، ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك، وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعد جيشك وعين جبهة للقتال فإننا مستعدون لمحاربتك، واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض فإذا أردت أن تحفظ رأيك وأسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله).

- القمر يضيء فقط عندما تغيب الشمس فلا تدق مسماراً بقبضتك ولا تخطئ الشمس بنور الشمعة

أو تظن أنه يمكنك التوبة.

هولاكو يراوغ الخليفة كثعلب ماهر يظهر في أول الأمر أنه اتبع وصية أميره الخان الأعظم مانجو بدعوته خليفة بغداد إلى إظهار ميوله الحسنة نحو المغول وتقديم خضوعه لهم لكنه يحيط كل ذلك بتهديدات تفصح عن كراهيته للخليفة ورغبته في النيل منه.

- الخليفة المستعصم يجتاحه الغضب مما سمعه من هولاكو فيجيء رده مبتسماً بالشدة وإن حرص على صوغه بقالب مرن يدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والرجوع إلى خراسان مخاطبه: «أيها الشاب الحدث لم يخبر الأيام بعد والذي يتمنى قصر العمر، والذي أغراه إقبال الأيام ومساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب شيئاً لن تجده عندي؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان كليهم عبيد هذا البلاد وجنود لي.

(إنك شربت كأس العز، والحظ الحسن من عشرة أيام، وجعلت نفسك تبعاً لذلك فوق العالم أجمع، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء. كيف تطلب مني طلباً لا يمكنك تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟ اتبع طريق الحسنى وعد إلى خراسان..).

وأخذ يذكره بمجد الخلافة الغابر وسلطة الخليفة الحالية وانتشار نفوذه على جميع المسلمين ويقول له: (إن ملايين من الخيالة والرجالة على الاستعداد للحرب رهن إشارتي حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر).

وفي آخر الأمر لم ينس الخليفة المستعصم أن يذكّر هولاكو بأنه لا يريد حرباً لأنه لا يود أن تقاسي رعيته من سير الحروب. وإن القوة الطاغية لا تميت أرواح الشعوب، فستنبت فيها إرادة مقاومة تحفز إلى الثأر من الطغاة وإن ظنوا أن قلاعهم وحصونهم تجعلهم في مأمن. فإرادة الحياة أقوى من إرادة الموت، وكل عدوان مآله الفشل والخذلان فما يبنى على غرور القوة يحصده إيمان المغلوبين، والزمان يكرر أمثاله والرشيد من اتعظ.

- هولاكو وجد في رسالة المستعصم مبرراً لتشدده إزاء الخلافة اعباسية وتكأة لتنفيذ إرادته في سحقها، ورأى أنه إن حارب الخليفة بعد أن ظهرت نواياه السيئة وغروره القبيح لم يتخبط الدائرة التي رسمها له مانجو. وذلك يتضح فيما أرسله من تحذير إلى الخليفة يقول: (إنك تركت نهج آبائك فاستعد

للحرب وانتظر جيشاً قوياً، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله).

- وبغرور القوة الظاهرة في نفوس الطغاة الذين يزرعون الشر في أطواء زهور ورياحين، وينشرون الموت بأثواب الحياة، لم يأبه هولاكو ولم يدخل الرعب إلى قلبه حين وصله من قبل الخليفة المستعصم رسولان هما: بدر الدين ديربكي، وقاضي البندنيجين اللذين قالا لهولاكو:

(إن كل من حاول تفح بغداد فشل ورجع بالخيبة) وضربوا الأمثال بيعقوب بن الليث الصفار الذي سار إلى فتحها ولكنه مات. وإلى أخيه عمرو الذي أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع في يد إسماعيل بن أحمد الساماني أسيراً وأرسل إلى بغداد ليلاقي جزاءه، والبساسيري الذي أقام الخطبة للخليفة المستنصر ولكن طغر لبك السلجوقي قضى عليه، والسلطان محمد السلجقوقي الذي تقدم لغزو بغداد، ولكنه عاد هارباً ومات في الطريق، ومات خوارزم شاه الذي سار لهذا الغرض ولكن البرد اشتد عليه ونزل الثلج على جيشه واضطر إلى التقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه في إحدى الجزر النائية في بحر قزوين.

لكن هولاكو لم يصغ إلى هذه الأقوال ودفعه التعنت إلى اشتداد التمسك بالعزة بالإثم فازداد جموحاً إلى الر راكباً مطية أهوائه متمثلاً يقول الفردوسي في الشاة نامة:

(أقيموا حوله مدينة وسوراً من الحديد وشيدوا حصناً وحاجزاً من الصلب. اجمعوا جيشاً من الشياطين والجن، وسيروا بعد ذلك ضدي تحرقكم الرغبة في الثأر فسأخفضه ولو كان في السماء، وسأصل إليه رغم أنفه، ولو كان في معقل الأسد).

- هولاكو يعد العدة لمحاربة الخليفة المستعصم.

- العلاقات تسوء بين هولاكو والخليفة المستعصم وتبادل المراسلات بينهما لم يكن له من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها.

- هولاكو يثاقب نظره يرى ضرورة الاستيلاء على الجهات الواقعة في طريقه إلى بغداد قبل أن يعزم على السير إليها لهذا أرسل إلى حسام الدين أكه صاحب مدينة ديرتنك وما جاورها من قبل الخليفة يستدعيه إليه ويغمره بعطفه ويحاول أن يضمه إليه.

- هولاكو لم يأنس الإخلاص في حسام الدين أكه ورآه يميل إلى الرجوع إلى صف الخليفة،

فاستدعى قطبغا نويان من إيران الوسطى وأغراه بمحاربته فسار إلأيه وقتله واستولى على بلاده ثم عاد منتصراً.

- هولاكو لم يكتنف بما فعل بل أخذ يثير أحقاد الشيعة والمسيحيين ضد الخلافة العباسية، وهي الورقة الرابحة في تمزيق نسيج مجتمع موحد كان من الممكن أن يكون سداً بوجهه إلا أنه أذكى روح الفتنة بين طوائف المجتمع مما سهل عليه الانقضاض على بغداد.

- هولاكو يستعين بالفلكيين على عادة المغول إذا أقدموا على أمر ذي بال أو عزموا على غزو بعدما تأكد أن في إمكانه السير إلى بغداد دون أن تعترضه مصاعب ذات بال.

- الفلكي السني حسام الدين الذي أرسله الخان مانجو مع هولاكو تعاطف مع الخليفة وحاول أن يثني هولاكو عن عزمه، وأخذ يبين أن مشروعاً يراد به فتح بغداد لن يعقبه خير وكان مما قاله: (الحقيقة أنه حتى هذه اللحظة، كل ملك تجاسر على السير ضد بغداد وأبناء العباس لم يبق له العرش ولا الحياة. وإذا أبى الأمير أن يسمع نصائحي وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة:

أولاً: ستموت الخيول جميعها وتصيب الجنود أمراض مختلفة.

ثانياً: لن تطلع الشمس.

ثالثاً: لن يسقط المطر.

رابعاً: ستهب رياح شديدة، وسيعاني العالم من هزات الأرض.

خامساً: لن تخرج الأرض نباتاً ما.

سادساً: سيموت الخان الأعظم هذا العام.

- الفلكي حسام الدين يحدد وقتاً لوقوع هذه الكوارث وهو الخطأ الذي وقع فيه لأن هولاكو اعتقله عنده حتى حل الوقت المعين، ولما لم يحدث ما أشار به قتله.

- الفلكي خوجه نصير الدين الطوسي يخالف رأي حسام الدين وينضم إلى صف الأمراء المغول الذين كانوا متمسكين بضرورة غزو بغداد وكانوا يرون أن حملة ضدها مشروع من أنسب المشروعات.

- هولاكو يسأل الطوسي عن رأيه فيما قاله حسام الدين فيجيبه أن شيئاً من الكوارث التي عددها

لن يقع، وأكد له أنه سيحكم مكان الخليفة.

- نصير الدين الطوسي ذكر ما ذكره لأنه خاف أن يتحققوا من كلامه، ويفعلوا به ما فعلوا بحسام الدين كما أنه فعل ذلك نكاية بالخليفة العباسي الذي كان يكرهه لاختلافه عنه في المذهب الديني ولأنه جاء بغداد ذات مرة وقدّم إليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها.

ونصير الدين الطوسي هو الذي كان سبباً في إقناع خور شاه بالتسليم لهولاكو. وهو أيضاً الذي ساق حججاً دامغة أمام هولاكو عندما استدعى حسام الدين ليناقشه، فقد كذّب دعوى حسام الدين، وكان مما ذكره أن كثيرين من أصحاب الرسول ماتوا في الدفاع عن الدين ومع ذلك لم تقع كارثة ما، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بني العباس ولم يلحقهم أذى، ومثّل بطاهر قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم.

لقد أظهر نصير الدين الطوسي أنه يكره الخليفة ويعمل على سقوطه ووقف موقف المحبذ لمشروع هولاكو في غزو بغداد المدافع عن الفكرة الذي لا يتهاون فيها.

- هذا ما قام به هولاكو استعداداً للحرب.

- أما الخليفة المعتصم فهو رغم موافقته الدفتر دار الصغير وسليمان شاه على المقاومة فإنه لم يقم بما يجب عليه لصد الخطر المدلهم، ولم يقم بعمل الاستعدادات اللازمة. فهو بعد أن أمر وزيره مؤد الدين محمد بن العقلمي. يجمع الجند وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة من الوزير دامت خمسة شهور عاد فنكص على عقبيه ولم يوزع عليه شيئاً من ماله، وعاودته طبيعة البخل المتحكمة فيه. وقد قيل:

إنه كان ينتظر معونة آليهة، وإنه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين له كما قال له وزيره ابن العلمي.

- «أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنا بها وهي بيتي ومقامي».

هذا كان رد الخليفة المستعصم إذا نبّه على ما ينبغي أن يفعله في أمر المغول أما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على

العراق.

- المستعصم يلزم خطة الجمود ولم يقم بعمل يستحق الذكر ولم تنزل عليه معونة آلهية، ولم يخف الأمراء المسلمون لنجدته إذ كان يأمل مساعدة الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، فينضوون تحت العلم الأسود شعار العباسيين. كما أن المغول لم يراعوا عواطفه ولم يفكروا في ترك بغداد.

المسير إلى بغداد:

- هولاكو في همذان يصنع خطة السير إلى بغداد وترمي هذه الخطة إلى جعل بغداد في وقت من الأوقات محاطة بجيوشه من جميع النواحي.

- هولاكو يواصل سيره حتى يصل دينور على أن يكون هو في القلب منها، بينما يؤلف جور ماجون وبيجو نويان ومن معهما الجناح الأيمن ويذهبون إلى الموصل عن طريق أربل، ويعبرون جسل الموصل، ويكونون في وقت معين معسكرين غربي بغداد، ويكون الجناح الأيسر مؤلفاً من جيش كتبغا نويان بعد أن يخترق لورستان.

- هولاكو يبدأ سيره من هما في أواخر المحرم سنة 655هـ (أواخر يناير سنة 1257م) ويأخذ معه من أمراء المغول كوكا الكا وأركاتو وآرجوناكا.

ومن أمراء المسلمين أبا بكر سعد بن زنكي آتابك شيراز وبدر الدين لؤلؤ آتابك الموصل، ومن الكتاب والعلماء قرطاي زسيف الدين وسكرتيره عطا ملك الجويني وخوجه نصير الدين الطوسي.

- هولاكو يصل إلى أسد آباد ويرسل رسولاً يدعو الخليفة المستعصم إلى المثول بين يديه. ويقول له: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يُؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين، لقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم.

- هولاكو يواصل سيره حتى يصل ديتور.

- في ديتور يلقاه رسول الخليفة شرف الدين عبد الله بن الجوزي برسالة كلها تهديد ووعيد وفيها يطلب الخليفة من هولاكو الرجوع ويعده في مقابل ذلك بدفع جزية سنوية.

- هولاكو يرد هذا الرسول، ويقول له ساخراً: (لقد قطنا طريقاً طويلاً فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة.

إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه، وبعد أن نتحادث معه سنسمع أوامره ونعود مباشرة».

- هولاكو يستمر في سيره ويعبر بجيوشه الجبال الكردية حتى وصل إلى كرمان شاه في 27 محرم سنة 655هـ.

- جيوش هولاكو في كرمان شاه أضحت قريبة من قوات الخليفة التي كانت معسكرة في المكان الواقع بين بلدتي بعقوبا وباجسرا تحت قيادة مجاهد الدين أيبك الدفتر دار الصغير وابن قرة.

- نذر التصادم تتطاير كأمر محتوم.

- المغول يحولون دون هذا التصادم بكل الطرائق الممكنة لأنهم كانوا يخافون عواقبه، وكانوا يميلون بدءاً إلى العمل على تمزيق القوات الخلافية باستمالة الأتراك الموجودين فيها، وقد استعملوا لهذه الغاية الأتراك الذين يعملون في صفوفهم، معتقدين أن تأثيرهم على أبناء جنسهم لا بد أن يكون كبيراً ولكنهم فشلوا وأثبت الأتراك الذين في صف الخليفة أنهم مخلصون له وأنهم عازمون على البقاء معه حتى النهاية. وتجلى إخلاصهم في رد أحدهم المسمى سنقر قائد مقدمة جيش الخليفة على كتاب أرسله إليه أحد الكشاف الأتراك في الجيش المغولي واسمه سلطان جوك، فقد كتب إليه أنه تركي مثله خضع لهولاكو فلم يلق منه إلا كل خير، ودعاه إلى الانضمام إلى هولاكو هو الآخر حتى يحتفظ بحياته وحياة أبنائه وأسرته.

- قره سنقر يرد على سلطان جوك قائلاً: إن كل من حاولوا فتح بغداد أو الاعتداء على الخليفة العباسي باءوا بالفشل. وذكر له أن الخليفة عندما علم بسير هولاكو حنق وعزم على القضاء عليه، ثم طلب منه إذا كان يريد سلماً أن يبدأ بإقناع هولاكو بالرجوع إلى همذان ووعده بأنه في هذه الحالة سيوسط الدفتر دار لإقناع الخليفة بالرضا بالسلم.

- هولاكو يغتاظ لهذا الغشل وكان مما قاله عندما علم بما رد به قره سنقر: (إن قوتي قائمة على سيف الخالق، وليست قائمة على الذهب والفضة، وإذا أحبني الله وقاني، فمن ذا الذي يخيفني من الخليفة وجنده، إن ناظري لا تختلف أمامه النملة والبعوضة والفيل أو النبع والنهر والبحر والنيل..).

- هولاكو رغم ذلك لم يجسر على أن يتبع طريق القوة بل أراد أن يراوغ الخليفة ويكسب الوقت فأرسل إليه قائلاً: (إذا كان الخليفة عازماً على التسليم فليأت بنفسه إلينا، وإذا كان عازماً على محاربتنا فليرسل الوزير وسليمان شاه والدفتر دار قبل كل شيء ليصغوا إلى مطالبنا).

- هولاكو يرى أن يتخلص من مقاومة جيوش الخليفة له بعد أن فشل في تمزيقها فيستدعي بيجو نويان وسنجاك وسنتوا وبغاتيمور على عجل ويأمرهم بالإسراع إلى عبور دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب.

- هولاكو ينجح في خطته هذه لأن قوات الخليفة المعسكرة بين بعقوبا وباجسرا عندما علمت بمهاجمة القوات المغولية لبغداد من الغرب تحركت من مركزها وعبرت نهر دجلة لتصدها وبذلك تركته حراً طليقاً فسار حتى وصل شاطئ نهر حلون في 9 من ذي الحجة سنة 655هـ ثم عسكر في خانقين حتى يوم 22 من الشهر نفسه، ثم واصل سيره حتى عسكر شرقي بغداد في يوم 11 من محرم سنة 656هـ أي بعد سنة تقريباً من تركه همذان.

- قام بيجو نويان وزملاؤه بهذا العبور تبعاً للخطة التي رسمها هولاكو لجيوشه في همذان، وهو الوقت المناسب لسيرهم إذ رمى هولاكو عصفورين بحجر واحد، إذ وصل أسوار بغداد الشرقية دون أن يلقى مقاومة، كما وصلت جيوش بيجو نويان وزملائه إلى بغداد الغربية.

وقد بذلت قوات بيجو نويان وزملائه مجهوداً كبيراً إذ أسرعت منذ دعاها رسول هولاكو وقابلته في المكان المسمى طاق كسرى ثم تلقت أوامره وأحرقت أكناف الحيوانات على عادة المغول ثم يممت شطر بغداد الغربية وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب أقامته في أربع وعشرين ساعة بعد أن قطع أهل تكريت الجسر الذي كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقامه لعبورها. وسارت في محاذاة قناة دجيل حتى عسكرت على شاطئ نهر عيسى. وبعد أن استراحت من العناء الذي لاقته طلب سنجاك من بيجو نويان أن يؤمره على مقدمة الجيش ثم سار حتى وصل قريباً من حي الحربية، ولكن قوات الخليفة كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقته في 9 محرم سنة 656هـ وهزمته بقرب الأنبار على بعد تسعة فراسخ من بغداد واضطرته إلى التقهقر والإسراع للانضمام إلى قوات المغول التي تركتها وراءه. وقد حدث بعد ذلك أن سارت قوات الخليفة متتبعة الجيش المنهزم غير مكتفية بما أحرزته من نصر، فاضطرت قوات بيجو نويان وزملائه إزاء ذلك إلى ملاقاتها، ووقعت بذلك موقعة

شديدة في منطقة دجيل استغرقت مساء 9 وصباح 10 من محرم سنة 656هـ. وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة في مساء 9 محرم، فإن المغول نجحوا ليلاً بسبب قطع أحد الجداول وإغراق ما وراء معسكر الجيش العباسي.

وقد نسب إغراق المعسكر إلى اتباع الوزير ابن العلقمي وإن المغول فعلوا ذلك بمعاونة المهندسين الصينيين.

وهم لم يهزموا هذا الجيش في صباح 10 محرم فحسب بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضاً، فقتل من قواده فلاح الدين وابن قره وقره سنقر، كما قتل من جنده اثنا عشر ألفاً عدا من غرقوا وغطاهم الطين، ولم ينجح منهم إلا من رمى بنفسه من الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام أو الحلة أو الكوفة، وكان الدفتر دار الصغير ممن نجوا إذ تمكن من الوصول إلى بغداد على رأس شرذمة قليلة.

لقد كان انتصار القوات المغولية الجناح الأيمن والقلب عظيماً مكنهم من دخول بغداد الغربية في 15 محرم سنة 656هـ والسيطرة على جميع أجزائها.

أما الجناح الأيسر الذي كان يقوده قطبغا نويان فإنه اخترق لورستان وتقدم حتى أصبح في يوم 15 محرم سنة 656 عند «صرصر» وهما قريبتان من سواد بغداد على ضفة نهر عيسى.

حصار بغداد (الشرقية):

بغداد الشرقية كانت مقر الخليفة وحكومته، وقد تدفق إليها أغلب سكان بغداد الغربية بعد أن اجتاحها المغول وجيوشهم بقيادة بيجو نويان وزملائه بعد أن عبروا نهر دجلة عند تكريت. وقد بلغ من شدة رغبتهم في الذهاب إليها أنهم كانوا يعطون الجذافين الذين ينقلونهم بقواربهم من ضفة دجلة الغربية إلى ضفته الشرقية أسورة من الذهب وملابس مطرزة بالذهب وعدداً كبيراً من الدنانير.

- أحاط المغول ببغداد الشرقية منذ وصولهم إحاطة السوار بالمعصم.

- هولاكو بعد ما وصل عن طريق خراسان عسكر في وسط القوات المتواجدة أمام الأسوار الشرقية تجاه برج العجم.

- الأمراء المرافقون لهولاكو هم الكانويان وفريا عسكروا أمام باب كلوا ذي على يسار هولاكو،

ثم انضم إليهم قطبغا نويان الذي كان يكون بجيشه الجيناح الأيسر للقوات جميعها.

- الأمراء الآخرون: كولي، بلجا، توتا، شيرامون، أركيو، عسكروا تجاه الجزء الأكبر من السور الشرقي بقرب باب السلطان على يمين هولاكو.

- جيوش بيجو نويان وسنجاك عسكرت في محلة المستشفى العضدي، كما عسكرت قوات بغاتيمور في محلة القرية.

- جيوش هولاكو أضحت جميعها تطل على بغداد الشرقية من الغرب وتحول دون وصول المدد إليها عن طريق نهر دجلة.

- القوات المغولية التي اتخذت أماكنها حول بغداد لم تترك فرصة تمر دون أن تستخدمها في تقريب الغاية التي تسعى إليها وهي الاستيلاء على هذه المدينة.

وقد أقامت أمام أسوارها أسواراً أخرى موازية لها من الأتربة، كما حفرت خندقاً بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار، وأتمت هذه الأعمال جميعها في أربع وعشرين ساعة وتمكنت بذلك من فصل المدينة عما جاورها.

- قوات هولاكو تكوّن من الأنقاض الموجودة حول المدينة أكواماً عالية جعلتها مقاعد لقاذفات الأحجار (العرادات) وآلات النفط وبذلك جعلت المدينة تحت رحمتها.

- قوات هولاكو تحضر الحجارة التي تحتاج إليها العرادات وغير الموجودة حول بغداد من جبل حمرين وجالولا. وهي أماكن تبعد عن بغداد شمالاً بمراحل طويلة تقطع في ثلاثة أو أربعة أيام، كما أنها كانت تستعيض بالأحجار عند عدم وجودها بقطع من جذوع النخل.

- القوات الغازية لم تهمل الناحية المعنوية لجيوشها ولأعدائها، فكانت تقويها في أفرادها بحثهم على العمل وتضعفها في أعدائها عن طريق نشر عوامل الانقسام في صفوفها برمي النشرات عن طريق تثبيتها في سهام ترميها داخل الأسوار أو الاتصال برجال من أعوان الخليفة.

- هجوم القوات المغولية على الأسوار الشرقية لبغداد في 23 من شهر محرم سنة 656هـ، فضربت تلك الأسوار ضرباً شديداً في جميع نقطها. وكان عدد الأبراج التي كانت تقوم على هذه الأسوار يبلغ مائة وثلاثة وستين ومن أهم هذه الأبراج برج العجم.

- ضرب الأسوار استمر عدة أيام متوالية حتى بدأ أثره يظهر في يوم 25 المحرم حيث تصدع برج العجم أمام هجمات فرقة هولاكو، كما ظهر هذا الأثر أيضاً في يوم 29 المحرم حين استولت هذه الفرقة نفسها على الثغرة التي أحدثتها بالقوة، ثم اشتد حماس القوات المغولية المواجهة لباب السلطان على أثر لوم هولاكو على تكاسلها، فهاجمت السور المواجه لها واستولت عليه وأصبح بذلك جميع السور الشرقي في قبضة المغول.

- هولاكو عندما كان مغوله يهاجمون السور الشرقي لجأ إلى إضعاف الروح المعنوية في أهل بغداد في الوقت الذي قوى فيه الروح المعنوية في جنوده، وقد استعمل لهذا الغرض نشرات ثبتها في سهام رمى بها داخل الأسوار وفيها يقول: (ليتأكد القضاة والعلماء والشيوخ والشيعة والتجار وكل من لا يحمل سلاحاً ضدنا أننا سنصون حياتهم).

- المغول بعد أن سيطروا على الأسوار الشرقية أرادوا أن يجعلوا إشرافهم على الجهة الغربية تاماً، حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهرباً وحتى لا يترك الباب مفتوحاً أمام أهل بغداد ليستمدوا العون من خارجها.

- هولاكو يأمر بإقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالي بغداد وجنوبها، كما أمر بإقامة حواجز من الأتربة على شاطئ النهر ووضع العرادات عليها. كما أمر بوضع قوات تشرف على الطرق الموصلة إلى البصرة وعهد إلى بغاتيمور ومعه عشرة آلاف بحراسة طريق المدائن.

- الاحتياطات التي اتخذها المغول كانت في محلها، إذ أن الدفتر دار الصغير حين رأى المغول يضيقون الدائرة على بغداد أراد أن يقع الخليفة بالفرار عن طريق قناة دجيل والفرات.

- الدفتر دار الصغير فشل في إقناع الخليفة بالهروب.

- الدفتر دار عول على الهرب وحده وسار في دجلة نهر الجنوب، ولكن القوات المغولية ردته بوابل من الحجارة وبمقذوفات النفط بعد أن استولت على ثلاثة من القوارب التي كانت ترافقه وبعد أن أفقدته كثيراً من أتباعه.

- حلقة الحصار أصبحت كاملة حول بغداد ولم يبق أمامها إلى طريق واحد هو التسليم.

الضربة القاضية:

- الخليفة المستعصم أحس بالخطر الكبير منذ تجمعت القوات المغنولية حول بغداد وبدأت في حصارها وبدأ يفكر في إنقاذها.

- المستعصم فكر في استمالة هولاكو واسترضائه لتحقيق غايته في إنقاذ بغداد.

- المستعصم أرسل وزيره ابن العلقمي وأمره بأن يقول لهولاكو باسمه: (طلب مني الأمير المغولي إرسال وزيري، وها أنذا اليوم أقتنع بما طلب مؤملاً أن يحفظ الأمير كلمته).

وقد رمى بذلك إلى إقناع هولاكو بإرسال الوزير إليه والرجوع من حيث أتى. وكان مع الوزير بطريق نساطرة بغداد أرسله الخليفة عندما علم بأن لهولاكو زوجة مسيحية.

- هولاكو يرد على المستعصم: (عندما وعدت هذا الوعد (وهو الرجوع إذا أرسل الخليفة وزيره) كنت لا أزال تحت أسوار همذان. أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد، وقد أصبح بحر المشاكل والعداوة في أشد الهيجان، كيف أكتفي باستقبال أحد كبار رجال الدولة يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة الوزير والدفتر دار وسليمان شاه).

- وفي اليوم التالي الخليفة يرسل الوزير وتسعة من حاشيته وعدداً من أشهر كبار رجال بغداد.

- هولاكو يرد وفد الخليفة دون أن يعيرهم أي اهتمام.

- الخليفة المستعصم يرى أن المغول ضيقوا الخناق على بغداد وحاصروها من جميع الجهات، ولم يمكنوا الدفتر دار من الهرب فكر مرة أخرى في استمالة هولاكو فأرسل إليه فخر الدين الدامغاني وابن درنوش ثم ابنه الأوسط أبا الفضل عبد الرحمن وكثيراً من رجال حكومته يحملون الأموال الكثيرة.

ثم أرسل الخليفة في اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة 656هـ ابنه الأكبر ومعه الوزير وعدداً من أشهر رجال الحاشية.

- هولاكو لم يسمع لرسل الخليفة وردهم جميعاً وفداً بعد الآخر يجرون أذيال الخيبة والفشل. ويطلب من الخليفة إرسال الدفتر دار الصغير وسليمان شاه.

- كل الطرائق التي اتبعها الخليفة المستعصم لم تفلح لاستمالة هولاكو نهائياً.

- المستعصم فهم فشله وإخفاقه في استعمالة هولاكو وعرف في الوقت نفسه أن هولاكو مصمم

على اتباع طريق العنف فبادر إلى إجابة طلباته حتى يسلم من أذاه على الأقل.

- المستعصم يرسل في أول صفر سنة 656هـ الدفتر دار الصغير وسليمان شاه، فكان ذلك أول خطوة في سبيل الاستسلام.

- هولاكو رأى أن الفرصة سانحة وأن في إمكانه أن يصل إلى درجة أبعد فأعاد الدفتر دار الصغير وسليمان شاه إلى المدينة وطلب منهما الرجوع إليه ومعهما أتباعهما.

- الدفتر دار الصغير وسليمان شاه يعودون إلى هولاكو ومعهما الأتباع الذين خرجوا على أمل السير إلى سوريا فوزعوا على الجند المغولي وقتلوا أفظع قتله ثم قتل الدفتر دار الصغير وابنه كما فعل سليمان شاه بعد أن أنبه على مسلكه، وكان مما قال له: (وأنت يا من تعرف سير النجوم (إذ كان فلكياً) وما يقع من خير وشر، لمَ لم تعرف يوم مصرعك وتنصح سيدك وتدعوه إلى المسالمة؟).

- هولاكو يرسل رؤوس الثلاثة إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق سليمان شاه ليعلقها في مجلسه.

- تساهل الخليفة المستعصم لم يحل دون وقوع الكوارث المتوالية برجاله ورعيته.

- مقتل سليمان شاه والدفتر دار الصغير وأتباعهما كان له أثر كبير في سير الأمور فيما بعد إذ لم يقتصر هذا الأثر على تصرفات أهل بغداد إزاء المغول بل تعدى ذلك إلى تصرفات الخليفة نفسه.

- الرعب يدب في قلوب أهل بغداد على أثر هذا الحادث ونفوسهم تطير شعاعاً. فأخذ فريق منهم يختبئ في المغارات وفي أفران الحمامات كما خرج بعض كبرائهم من المدينة ليعرضوا تسليمها إلى هولاكو وليعدوا بأن الخليفة أراد بإرسال أولاده أولاً أن يحضر بشخصه بعد ذلك.

- الذين خرجوا من بغداد إلى هولاكو بهذه المهمة هم: شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني. وإن أهل بغداد هم الذين أرسلوهم.

- هولاكو لا يسمع لهؤلاء ولم يجب على طلبهم بعد أن أصابت سهم طائشة خارجة من داخل المدينة عين سكرتيره هندو. وأمر نصير الدين الطوسي بأن ينصب خيامه أمام باب الحلبة ليستقبل من يسلم منهم ثم لم يلبث بعد أن تجمع منهم عدد كبير أن أمر بقتلهم.

- الخوف يتسرب إلى نفس المستعصم إثر قتل الدفتر دار وسليمان شاه وأتباعهما ولم يلبث حين رأى هولاكو يقتل من خرج إليه من أهل المدينة، أن تحقق مصير بغداد وأهلها، ورأى أن كل شيء لا بد من ضائع، خصوصاً وأنه أراد أن يستعين بالوزير فلم يجد منه معيناً بل وجد منه مثبطاً لهمته ومدخلاً لليأس في نفسه، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قال له عندما سأله عما يصنعه في هذا الموقف الحرج:

يظنــون أن الأمر سهل وإنما هو السيف حدث للقاء مضاربه

ولذلك لم يجد الخليفة بداً من تسليم نفسه إلى عدوه، وخرج من بغداد يوم الأحد 4 من صفر سنة 656هـ ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وثلاثة آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة وسلم نفسه إلى هولاكو.

- أدى تسليم الخليفة المستعصم إلى (سقوط بغداد) في أيدي المغول. وذلك لأن هولاكو منذ رآه أراد أن يتخذه آلة لتحقيق هذا الغرض فقابله بالترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولاً من لدنه نادى في طراقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار، ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم.

- هولاكو يأمر بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة، كما أمر بنصب جسر على دجلة، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية في شرق بغداد بدخول المدينة من الشرق، كما أمر القوات المغولية الموجودة على الشاطئ الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب.

- القوات المغولية تدخل المدينة في اليوم السابع من صفر سنة 656هـ، ويتقاسمون محلاتها ويظلون فيها أسبوعاً تاركين لأنفسهم العنان؛ فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخربوا المكاتب وأتلفوا الكتب التي بها إما بإحراقها أو برميها في دجلة كما قتلوا أهل المدينة دون أن يستثنوا امرأة أو طفلاً ودون أن يعطفوا على مريض أو يقدروا عالماً.

- استهتار المغنول بالنفوس بلغ أشده.

- اثنان منهم ناءا بحمل من الأسلاب فلقوا رجلاً سائراً في الطريق فقتلاه وشقا جوفه ليتخذاه أداة لحمل الأسلاب.

- أحد المغول دخل زقاقاً وقتل أربعين طفلاً حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل.

- الأنفس التي أزهقها المغول حين دخولهم بغداد قدرت بمليون وثمانمائة ألف نفس.

- مدينة بغداد فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة. كما أن الثروة الأدبية والفنية التي سهر على جمعها خلفاء بني العباس منذ اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثراً بعد عين.

- هولاكو شارك جنوده بغداد بارتكاب ما ارتكبوه من الفظائع وزاد عليهم.

- هولاكو عندما دخل بغداد الشرقية أقام معسكره في محلة المأمونية.

- في يوم 9 صفر سنة 656هـ ذهب وأمراؤه إلى قصر الخليفة المستعصم الذي كان يرافقهم ونهبوه وأذلوا صاحبه وقتلوا الأنفس التي تقيم فيه.

الذهب والدم:

هولاكو يدخل قصر الخليفة المستعصم متبختراً بين قواده كطاوس، ويسلك مع الخليفة سلوكاً سيئاً ينم عن قلة ذوق ووحشية، فكأن الدماء التي تسيل حوله وبين يديه أنهار خمرة الانتصار، وكأن الرؤوس التي تتهاوى من كل جانب بالونات ملونة يلعب بها الأطفال في حدائق الترهات. غرور القوة يعمي الأبصار فلا نرى الحرائق التي يتصاعد لهيبها من كل الأنحاء، ولا تشم رائحة الموت التي تنبعث من كل زاوية، لقد تحول أنين الناس الجريحة إلى رنات موسيقى ترسم الفرح على وجنات الغزاة. غزاة بلا قلوب، وقلوب كالحجارة الصلدة، وأوهام القوة والغلبة سمادي تتماوج في الرؤوس.

- هولاكو يطلب من الخليفة أن يقدم له ولأمرائه ما يليق بهم وهم ضيوف في قصره.

- الخليفة وما تبقى له من حاشية ممزقة مغلوبة مقهورة يقدم لهولاكو ألفي كساء وعشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الأحجار الكريمة وحلياً من أصناف مختلفة.

- هولاكو يأخذها من الخليفة بازدراء ويقدمها إلى أتباعه قائلاً: (إن الكنوز التي تمتلكها، والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعهي، إن ما نريده هو

أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضعها.

- الخليفة المستعصم يخبر هولاكو بأن وسط القصر جرة مملوءة بالذهب.

- هولاكو يأمر بالحفر في الموضع الذي أشار إليه الخليفة.

- الحفارون يجدون عدداً كبيراً من القطع الذهبية التي تزن الواحدة منها مائة مثقال.

- هولاكو يجرد القصر من سبعمائة جارية كانت له وألف خصي.

- سنجاك أحد قواد المغول الذين كانوا في صحبة بيجو نويان عندما هاجم بغداد من الغرب يرسل حاشيته إلى القصر فيجمع ما به من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة ويعود بها إلى حيث وضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم.

في الطريق إلى النهاية:

قرية (وقف) بالقرب من بغداد تتراقص من حولها ألسنة اللهيب التي تتماوج بين أنحائها التي كانت تنعم بهدوء الزمن، وتجري بين جنباتها آمال ناس بسطاء يتقاسمون الحلو والمر بقناعة الرضى.. (وقف) هذه لم يقرأ إنسانها أنها ستصافح لحظات فاصلة لخليفة يمتد ظله كالأبد.. لحظات ستؤرخ للغدر الأصفر القادم عبر لا نهائية الأرض والماء ليغتال أحلام «حضارة» مجتمع نما وتكاثر وفي أفقه تشتجر سيوف القوة بسيوف المودة والرحمة.

زهو الحياة كان يملأ تلك النفوس المؤمنة بكلمة الله السرمدية، وبكلمة الإنسان المتطاولة في أفق الكون لتكون. الأفاعي المسمومة يغيضها أن تؤرق الحضارة على جنبات مدينة وضعت أول لبنة فيها لتكون (دار السلام) في أرض السلام. الحقد البشري الأعمى يستشري في أعماق مغول بلا قلوب، تريد أن يحيا غيرهم مثلهم بلا قلوب، دون أن يعلموا وأنى لهم أن يعلموا أن القوة العمياء لا تغلب حضارة مبصرة وإن تعثر مصيرها أو خبت جذوتها، فالجذر الحي سينهض ولو من رحم الصخر وسزدهر يوماً رغم وخز الشوك ووجع المكابدة، فإرادة الإنسان الحية لن تموت لأنها إرادة مقاومة، تنتصر ولو في أحضان الموت وسهام الحقد. تنتصر وترسم أفقاً جديداً ولو من رحم النار.. ولو من رحم الاغتيال، فروح الحياة تكمن ولا تموت بعيداً عن صلصلة السيوف العمياء والرماح المغرورة.

- المستعصم في (حوزة) هولاكو يحرم من الطعام ويعامل بسوء لا يضارعه سوء معاملة جندي

أسير.

يسقى كل لحظة من كأس الإذلال، فهو رمز لأمة قهرت وغلبت على أمرها من قوة عمياء لا تشتهي غير الظلام.

- الجوع يعض بأنيابه جسد المستعصم، الذي استخلفه الناس رمزاً لقوتهم ومجدهم، وعذابه إذن هو عذاب الناس، واغتياله اغتيال لآمال الناس.

الظلام يغار من النور، وذرة النور تمحو قناطير الظلام وإن طال المدى.

- الخليفة (المستعصم)، يطلب كالذليل لقمة من طعام، وهولاكو يتمدد زهواً كثور كسب الرهان فيأمر بإعطاء لقمة لهذا الجريح.. المأسور الممتلئ بأشجان المغلوب بين أحضان الغالب المجهول.

- هولاكو يقدم لأسيره طبقاً مملوءاً بالذهب، ويأمره أن يأكل.

- الخليفة يضطرب إذ يرى العماء من حوله يلف كل شيء فيتحول كل شيء إلى ظلام فيصرخ: وهل يؤكل الذهب؟

ولكنه السؤال الذي لن يجد الجواب عندما تحقد النفوس وتتعامى العيون.

- بل كل أيها الخليفة، وإن كنت تعرف أنه لا يؤكل فلماذا احتفظت به ولم توزعه على جنودك ليحموك ويصونوا ملكك الموروث من هجمات جيشنا، ولمَ لمْ تسرع إلى شاطئ جيحون لتحونل دون عبوري؟

- المستعصم: هكذا كان تقدير الله.

- هولاكو: وما سوف يجري عليك إنما هو تقدير الله.

- قد يغلب الجاهل العالم، يغلبه بجهله المتراكم كالحديد. لكن روح الحياة في (العالم) لا تموت ميتة الجهول الذي لا يملك سوى لحظته الراهنة. التي يلزم إزاءها الصمت، ولكنه الصمت الذي سيتلاشى يوماً بإرادة الحياة التي تمزق أستاره لينبثق نور الحياة من جديد.

- مساء 14 صفر من سنة 656، والدماء تسيل أنهاراً على طرقات بغداد ودروبها، وأشلاء الرؤوس والأجساد تملأ روائحها كل زاوية ومنحنى يأمر هولاكو جنوده بالكف عن النهب والقتل ليتهيأ

للاحتفال بمشهد النهاية الذي سيظل مشهداً للقسوة بأعلى صورها والحقد في أوسع مدياته.

يؤتى بالخليفة المستعصم ومعه ولده الأكبر أبو بكر وخمسة من مرافقيه المخلصين.

- ينقض رجال الظلام على الخليفة ومرافقيه بالرفس بأقدامهم المثقلة بوحول الجهد والحقد والغباء ثم يوضع في (عِدْل) ويرفس حتى يموت اختناقاً.

فانطلق لسان الشعر ينعى بغداد وخليفتها المغدور فيقول شمس الدين الكوفي:

عنـــــدي لأجل فراقكم آلام　　فـــــالآم أُعذلُ فيكم وأُلامُ

مـــن كان مثلي للحبيب مفارقاً　　لا تعـــــذلوه فالكلام كلامُ

قــف في ديار الطاعنين ونادها　　يا دار ما صنعـــت بك الأيام

يا دار أيـــــن الساكنون وأين　　ذيـــاك البهاء وذلك الإعظام

يا دار أين زمان ربعــك مونقاً　　وشعـــارك الإجلال والإكرام

يا دار مُذ أفلــت نجومك عمنا　　والله مـــن بعد الضياء ظلام

فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم　　فقد الهدى وتزلــزل الإسلامُ

فمتى قبلت من الأعادي ساكناً　　بعـــــد الأحبة لاستماك غمامُ

وفي رثاء أهلها يقول:

إن لم تقرح أدمعـــــي أجفاني　　مـــن بعد بعدكمو ما أجفاني

إنسان عيني مذ تناءت داركم　　ما راقـــــــه نظر إلى إنسان

ما للمنازل أصبحت لا أهلها　　أهلي ولا جيرانهـــا جيراني

وحياتكم ما حلها من بعدكم　　غير البلى والهدم والنيـــران

مالي أردد ناظــري ولا أرى　　الأحباب بين جماعة الأخوان

هولاكو أمير بغداد الذبيحة:

بعد أن استولى الجيش المغولي على بغداد ونهبها وقتل سكانها وحرق مكتباتها، صارت طرقات المدينة ودروبها أوردة تمتلأ بالدم وعلى جنباتها تتكوم رؤوس البشر وأجسادهم الممزقة بأنياب الحقد المغولي الأصفر، لقد تخربت مآذن مساجدها ومدارسها وأسواقها فآلت إلى مدينة مهدمة خربة انطفأ منها ضوء الحياة وغار من أرضها رواء النماء والزرع والضرع، انطفأت شموع حضارة زهت ونشرت ظلالها على امتداد عالم إسلامي واسع وعم ظلام جاهلية جديدة يحمل لواءها مغامر مستهتر.

- هولاكو بعد أن قتل الخليفة رفساً وخنقاً بحوافر الخيل الجامحة، وبعد أن أخفى جثته على عادة قومه المغنول يعين أمراءه حكاماً عليها، فيجعل على بها دور حاكماً على بغداد ويحتفظ لابن العقلمي الوزير الغادر بالوزارة، ويجعل فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان، ويسلم أحمد بن عمران إدارة المناطق الواقعة شرق بغداد، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضياً للقضاة، وبمجيئهم انطوت صفحة الخلافة العباسية وانطفأ نور عاصمتها الذي كان القلب المشع في أنحائها الشاسعة، وكانت بغداد رأس العالم الإسلامي وقلب الإسلام النابض، وكانت محل احترام جميع المسلمين، كما أن نفوذها المعنوي كان لا يزال ينتشر في الأرجاء الإسلامية، وكان الأمراء والسلاطين المسلمون يلتمسون القوة لعروشهم والثبات في نظر الجماهير باعتراف الخليفة العباسي بسلطانهم.

هذا إلى أن الخلفاء العباسيين كانوا يعملون على تشجيع العلماء وتقريب أهل الأدب ويشيدون العمارات الفخمة ويجمعون الكنوز النفيسة التي أدهشت المغول حين استولوا على بغداد، كما أدهشت كنوز فارس العرب عندما فتحوا تلك البلاد في فجر الإسلام.

وبعد أن انتشر النفوذ المغولي ذبلت بغداد وتخلت عن مركز الرئاسة السياسية، وذلك لأن أبناء هولاكو حين أقاموا مملكة لأسرتهم في غرب آسيا تدخل تحت سيطرتها فارس والعراق العربي قسموها إلى قسمين، وجعلوا بغداد عاصمة لأحدهما وهو العراق العربي، ولكنها لم تكن ذات نفوذ وكان يزورها أبناء هولاكو أحياناً كما كان بعضهم يقضي الشتاء فيها.

وانحطت الحياة الأدبية في بغداد، إذ أحرق المغول الكتب وقتلوا الأدباء وشتتوا من نجا منهم من الموت كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر في بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب ولا المعرفة.

هكذا حل الظلام ودالت شمس الحضارة ولكن إلى حين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
كلمة أولى	٧
كلمة ثانية	٩
منظر (١) موطن المغول	١١
مناخ منغوليا	١٣
منظر (٢) معيشة المغول	١٥
منظر (٣) القوانين	١٩
منظر (٤) الدين	٢٢
منظر (٥) صفات المغول	٢٥
منظر (٦) جيوش المغول	٣٠
منظر (٧) المغول في نظر المؤرخين	٣٣
منظر (٨) قبائل التتار	٣٩
جنكيزخان	٤٢
تموجين وقبيلة كرايت	٤٩
تموجين وقبيلة النايمان	٥١
منظر (٩) الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول	٥٧
منظر (١٠) عهد خلفاء جنكيزخان	٦٠
منظر (١١) المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية	٦٢
منظر (١٢) فتح أقاليم الصين الشرقية	٦٧
منظر (١٣) المغول في أوروبا	٧٠

منظر (١٤)..... ٧٣
منظر (١٥) هولاكو والإسماعيلية..... ٧٧
منظر (١٦) بدء الحملة نحو إيران..... ٨١
نـجاح سياسة هولاكو..... ٨٦
منظر (١٧) ضعف الخلافة العباسية..... ٩٣
منظر (١٨) أيام العباسيين الأخيرة في العراق..... ١٠٧
الناحية الحربية..... ١١٥
الناحية الطائفية..... ١١٨
الناحية العمرانية..... ١٢٢
الحالة الخارجية..... ١٢٤
العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء (٥٥١هـ - ٦٤٠هـ) ١٢٥
الإسماعيلية (الحشيشية)..... ١٢٧
منظر (١٩) علاقة الخلافة العباسية بالدول الإسلامية..... ١٣٣
منظر (٢٠) الفتح المغولي للعراق بغداد قبيل الفتح المغولي.. ١٤٣
منظر (٢١) حكم المستعصم ببغداد..... ١٥٠
بغداد النار الأولى..... ١٦٨
منظر (٢٢)..... ٢٠١
نذر الحريق شرارات أولى..... ٢٦٩